



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه  
صلى الله عليه وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

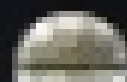
ذَمَّاتُ تَارِيخِنَا  
مِن  
الْمَقَرَّاتِ الْكَلِمَاتِ

( ٣ )

فِي مَقَرِّ

رِسْتِ  
بَيْتِ نَبِيِّ عَرَبِنَا

إِذْ أَلْبَسَتْ الْعَرَبِيَّةُ  
مِنْ مَقَرِّاتِ الْكَلِمَاتِ  
بِئْسَ مَا كَانَتْ تَلْبَسُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# دراسات تاريخية من القرآن الكريم

كاتب:

محمد بيومي مهران

نشرت في الطباعة:

دار النهضة العربية

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

5	الفهرس
9	دراسات تاريخية من القرآن الكريم- المجلد 3
9	هوية الكتاب
9	اشارة
13	[الجزء الثالث]
13	تقديم
15	الكتاب الرابع داود و سليمان عليهما السلام
15	اشارة
17	الباب الأول سيرة داود عليه السلام
17	اشارة
19	الفصل الأول بنو اسرائيل فيما بين عهدي و داود عليهما السلام
19	[1] دخول بني اسرائيل كنعان:
23	[2] عصر القضاة:
27	[3] قيام ملكية طالوت:
34	[4] حروب طالوت و ظهور داود:
42	الفصل الثاني داود الرسول النبي
42	اشارة
43	معجزات داود عليه السلام
49	قصة الخصمين
62	الفصل الثالث داود- ملك بني اسرائيل
62	1- داود فيما قبل الملكية:
65	2- اختيار داود ملكا على يهوذا:
67	3- داود و توحيد اسرائيل:

68	4- داود و الفلسطينيين:
71	5- داود و مؤاب و عمون و آرام و أدوم: .....
73	6- دولة داود و مدى اتساعها: .....
77	7- وراثة العرش و الخلافت العائلية: .....
79	8- ثورة أبشالوم: .....
83	9- التعداد العام و نتاجه: .....
86	10- وفاة داود عليه السلام: .....
90	الفصل الرابع داود بين آي الذكر الحكيم و روايات التّوراة .....
98	الباب الثاني سيرة سليمان عليه السلام .....
98	اشارة .....
100	الفصل الأول سليمان - الرسول التّبي .....
100	1- وراثة سليمان داود: .....
103	2- من أحكام سليمان: .....
106	3- من معجزات سليمان: .....
124	الفصل الثّاني بناء المسجد الأقصى .....
138	الفصل الثّالث سليمان و ملكة سبأ .....
169	الفصل الرّابع سليمان ملك بني إسرائيل .....
169	[1] السياسة الداخلية:- .....
172	[2] السياسة الخارجيّة:- .....
174	[3] التنظيمات العسكريّة:- .....
176	[4] النشاط التجاري:- .....
180	[5] النشاط البحري:- .....
189	[6] النشاط الصناعي:- .....
190	[7] مملكة سليمان و مدى اتساعها:- .....
207	[8] القدس عاصمة سليمان:- .....

211	[9] مباني سليمان:-
217	الكتاب الخامس الأنبياء من أيوب إلى يحيى عليهم السّلام
217	اشارة
219	الفصل الأول أيوب عليه السّلام
219	[1] قصة أيوب عليه السلام:-
233	[2] سفر أيوب:-
241	الفصل الثاني إيلياس و إيسع عليهما السّلام
241	[1] إيلياس عليه السلام:-
249	[2] إيسع عليه السلام:-
253	الفصل الثالث زكريا و يحيى عليهما السّلام
253	اشارة
277	استشهاد يحيى عليه السلام:-
284	الكتاب السادس المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
284	اشارة
286	الفصل الأول مريم ام المسيح عليهما السّلام
296	الفصل الثاني مولد المسيح عليه السّلام
318	الفصل الثالث نبوة المسيح و معجزاته
318	[1] نبوة المسيح:-
322	[2] معجزات المسيح:-
322	اشارة
331	و أما هذه المعجزات التي جاءت في هذه الآية و في غيرها فهي:-
331	أولاً: كان المسيح يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ياذن الله تعالى:-
332	ثانياً: إبراء الأكمه و الأبرص ياذن الله تعالى:-
333	ثالثاً: إحياء الموتى ياذن الله:-
334	رابعاً: إخبار القوم بما يأكلون و ما يدخرون في بيوتهم:-

336 ..... الفصل الرابع دعوى تأليه المسيح وصلبه

336 ..... اشارة

336 ..... [1] دعوى التأليه:-

351 ..... [2] دعوى الصلب:-

368 ..... فهرست

372 ..... تعريف مركز



## دراسات تاريخية من القرآن الكريم - المجلد 3

### هوية الكتاب

بطاقة تعريف: مهراڻ محمديومي

عنوان واسم المؤلف: دراساا تاريخية من القرآن الكريم محمديومي مهراڻ

اافاصيل المنشور: بيروا : دارالنهضة العربية ، ق 1408 = م. 1988 = 1367.

اخصائص المظهر: ج 4

حالة الاستماع: القائمة السابقة

ملحوظة: كتابنامه مندرجات : ج 1. بلاد العرب -- ج 2. مصر -- ج 3. في بلاد الشام -- ج 4. في العراق

موضوع: قرآن -- قصة ها

ترتيب الكونجرس: 1367 4د86/BP88

رقم الببليوغرافيا الوطنية: م 81-8979

ص: 1

اشارة







بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على المبعوث رحمه للعالمين سيدنا محمد وآله تحدثنا في الجزء الأول من هذه الدراسات عن النبوات في بلاد العرب، ومن ثم فقد قدمنا دراسة تاريخية عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وكذا عن هود وصالح وشعيب عليهم السلام، هذا إلى جانب دراسة أحداث تاريخية جاء ذكرها في القرآن الكريم، كقصة سيل العرم وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل.

ثم خصصنا الجزء الثاني من هذه السلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» لدراسة تاريخ النبوات في أرض الكنانة، ومن ثم فقد قدمنا دراسة عامة عن النبوة والنبوات، ثم دراسة مفصلة عن تاريخ النبيين الكريمين يوسف وموسى عليهما السلام، فضلا عن تاريخ بني إسرائيل في مصر.

وفي هذا الجزء الثالث من هذه السلسلة نتحدث عن تاريخ النبوات في

بلاد الشام، و من ثم فإن حديثنا في هذا الجزء إنما سيكون عن الأنبياء الكرام: داود و سليمان، ثم أيوب و إلياس و اليسع و زكريا و يحيى، ثم ختمنا هذا الجزء الثالث بسيرة المسيح عيسى بن مريم رسول الله، صلوات الله عليهم أجمعين.

وإني لكبير الأمل في الله تعالى أن يكون في هذه الدراسة بأجزائها الثلاثة بعض النفع، و الله من وراء القصد، و هو الهادي إلى سواء السبيل.

«و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب».

الإسكندرية في 12 ربيع الأول عام 1408 هـ.

4 نوفمبر عام 1987 م.

ص: 6







إشارة

ص: 9



[1] دخول بني إسرائيل كنعان:

آل أمر بني إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام إلى يوشع بن نون خادم موسى و فتاه (1)، و منذ تلك اللحظة بدأ كتابة التوراة يضعوه في مكانة لا تقل عن مكانة موسى نفسه (2)، فكما كلم الزب موسى من قبل، كلم يوشع من بعد (3)؛ و كما آثر موسى بمعجزة انفلاق البحر في مصر، فقد آثر يوشع بمعجزة شق الأردن في كنعان، هذا فضلا عن معجزة أخرى يتعطل فيها مسير الأفلاك بإشارة من يوشع، فإذا الشمس تتوقف عن مغيبها عند «جبعون»، و إذا القمر لا يبزغ في حينه على وادي أيلون (4).

ص: 11

1- خروج: 13/24، عدد: 12/27-23، تثنية: 28/1.

2- يذهب بعض المفسرين إلى أن يوشع قد بعث بعد موسى نبيا (انظر تفسير الطبري: 10/192، تفسير الطبري: 6/70، تفسير ابن كثير: 2/74، تفسير الكشاف: 1/622) و بديهي أن هذا من اجتهادات المفسرين، و لكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله عز و جل، و ليس ما درج المفسرون أن يقدموا وإنما هو اجتهاد، و فوق كل ذي علم عليم، و ليس في كتاب الله نص صريح على نبوة يوشع أو يشوع هذا.

3- يشوع: 1/1-2.

4- خروج: 14/21، يشوع: 3/14-17، 10/12-14، مختصر تفسير ابن كثير: 1/504، محمد بيومي مهران: إسرائيل: 2/601،

610، و كذا، Y. N, ygolohtyM nretsae nI, learsI, yarG. J 111. p, 1969,

وقد بدأ يشوع بخطط لغز وكنعان، وبدأ بمدينة أريحا، ومن ثم فقد عبر بنو إسرائيل الأردن في «مقابل أريحا» (1)، وهي المخاضة المعروفة بالمغطس أو الحجلة، على مبعدة ميلين جنوبي كوبري النبي، ويبدو أن العبور كان في الربيع عند ما كان النهر ضحلا كما يفهم من بعض نصوص التوراة، وإن ذهب نص آخر إلى أن «المياه المنحدرة من فوق وقفت، وقامت ندا واحدا، بعيدا جدا عن أدام المدينة» (2)، فسار القوم في الأرض الجافة، وأما مدينة «أدام» هذه فيمكن أن توجد «بتل الدامية»، على مبعدة ميل واحد جنوبي اتصال يبوق بالأردن، وهناك يوجد جرف من الحجر الجيري يكون عند الزلزال شقا في النهر يسده تماما لفترة ما و يمنع تدفق مياه الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، الأمر الذي حدث مثل له في عام 1937 م (3).

وأيا ما كان الأمر، فلقد عبر بنو إسرائيل الأردن، وعسكروا في «الجلجال» عند تخم أريحا الشرقي (4)، ثم سرعان ما تقدموا نحو المدينة الحصينة، ذات الأسوار العالية، وطبقا لرواية التوراة، فلقد دار القوم حول أريحا مرة كل يوم، على مدى سبعة أيام، وفي اليوم السابع يدور القوم دورتهم السابعة، ويضرب الكهنة بالأبواق، وتسقط أسوار أريحا، وتحرق المدينة وكل من فيها و ما فيها «من رجل وامرأة و طفل و شيخ، حتى البقر والغنم والحمير»، ما عدا «الذهب والفضة و آنية النحاس فقد جعلوها في خزانة بيت الرب»، وأما «رحاب» الزانية التي خانت قومها ووطنها، وأخفت

ص: 12

1- يشوع: 3/16.

2- يشوع: 3/15-16.

3- 155. J. gnatsraG , auhsaJ , segduJ , ehT fo snoitadnuaf . J. elbiB . J. nageniF . P , tic . P و كذا yrotsiH , nodnoL , F,

136. p, 1931

4- يشوع: 4/19، 24.

جواسيس يشوع في بيتها وسهلت مهمتهم، فقد كافأها بنو إسرائيل بأن أبقوا عليها، هي وبيت أبيها، كما أسكنوها في وسط إسرائيل، ولم يكتف يشوع بكل ما فعله بأريحا، وإنما هو يصب اللعنات على من يعيد بناء المدينة، وإلا «فبكره يؤسسها، وبصغيره ينصب أبوابها» (1)، هذا ويذهب الكثير من العلماء إلى أن سقوط أريحا لم يكن بسبب ضرب كهنة يهود بأبواقهم، ثم الدوران حول المدينة طيلة أيام سبعة، وإنما بسبب زلازل وقعت في المدينة (2).

و كانت الضربة التالية من نصيب «عاي» التي سقطت عن طريق خدعة يهودية، ثم «ضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منقلب» (3) وإن كان البعض يعتبر ذلك مجرد خيال يهودي لأنه لم تكن هناك مدينة وقت ذلك باسم «عاي»، وأن حضائر «مدمام جوديت ماركيت كروز» في موقع عاي، وهي التل الحالية على مبعدة 13 ميلا شمال غرب أريحا، تشير إلى بقايا مدينة من عصر البرونز المبكر قد دمرت تماما حوالي عام 2200 قبل الميلاد، كما أن اسم «عاي» يعني الخراب، و من هنا يرى العلماء أن التفسير المحتمل لرواية التوراة هو الخلط بين عاي وبيت إيل (بيتين) على مبعدة ميل من عاي (4)، وعلى أية حال، وطبقا لرواية التوراة، فلقد امتد هذا المد الإسرائيلي سعيرا، فأحرق بالنار المدن الكنعانية، وقتل أهلها برمتهم، من رجال ونساء وأطفال، بل وفي حمى لا واعية، انطلق هذا المد مجنوناً، فلم يسلم من يده

ص: 13

1- يشوع: 1/6-27.

2- .P, tiC. pO, nageniF. J 158 . و كذا 1968. R. T 134. p. dlroW tneicnA, revolG.

3- يشوع: 3/7، 8/13-29.

4- , 118. p. 31. R O S A B dna A J A, thgirblA. F. W 158. p. 40, و كذا, (-) esuarK, selluoV seL, ed yA (te- llet-

1944-1935، 2 slov 1949 teuqraM htiduJ و كذا. P, tiC- pO, nageniF. J 160- 159

شيء، حتى السائمة لم يستبق يشوع من البهائم واحدة، البقر والغنم والحمير أحرقتها يشوع أباد يشوع كل شيء باستثناء المعادن و سبائك الفضة والذهب.

و تقدم يشوع فاستولى على جبعون (الجيب الحالية، 8 أميال شمال غرب القدس) و لبنه (تل بورناط شمالي غرب بيت جيرين أو تل الصافية) و لخيش (تل الدوير) و جازر (تل الجزر، 17 ميلا جنوب شرق حيفا) و عجلون (خربة عجلا قرب أربد) و حبرون (مدينة الخليل، 19 ميلا جنوب غرب القدس) و دبير (تل بيت مرسيم، 12 ميلا جنوب غرب الخليل) و حاصور (تل القدح، 9 أميال شمال بحر الجليل)، ثم تزعم التوراة بعد ذلك أن يشوع استولى على أملاك 31 ملكا في كنعان، وأنه أخذ كل الأرض حسب ما كلم الرب موسى و أعطها ملكا لبني إسرائيل (1)، على أن الباحثين إنما يكادون يجمعون الآن على أن غزو كنعان إنما كان بعيدا عن التمام على أيام يشوع، ذلك لأن هناك كثيرا من المدن الحصينة في طول البلاد و عرضها و لم تخضع لبني إسرائيل، فضلا عن مجموعات من القبائل، بل إن احتلال كنعان حين تم، إنما تم عن طريق جهود كل سبط في الدفاع عن منطقته، و أن ذلك استغرق فترة تزيد عن القرن من الزمان، و من هنا فليس صحيحا ما روته توراة يهود من أن الغزو قد تم في جيل واحد أو في خمسة أو سبعة أعوام، و إنما استمر طوال عهد القضاة، و حتى بداية عصر الملوك الأول، حيث تم الاستيلاء على أورشليم و مجدو و تعناك و بيت شان و منطقة دور و جازر، بل إن أورشليم لم يتم الاستيلاء عليها إلا على أيام داود، و جازر على أيام سليمان و بقوات مصرية (2).

ص: 14

1- يشوع: 7-3/9، 11-1/10، 23/11، 24-1/12، محمد بيومي مهران، إسرائيل: 612/2-622، و كذا. P, tic- P, sdoL. A. 332 و كذا. AB, drahtirP. B. J 75- 65. p، 1956، 19، BMU dna 24، 12.، و كذا، P, tiC. pO, nageniF. J 164- 160، 21، 1957، 26- 3. p، 1958،

2- يشوع: 11-10/14، صموئيل ثان: 9-6/5، ملوك أول: 16/9، و كذا. P, tiC. pO, nietdPE. I. 242. 33. P, tiC. pO و كذا، xuoR O

و هكذا يمكننا القول إن ما تمتلئ به صفحات سفر يشوع من غزوات لا تعد و ما اعتاده الرحل أن يمارسوه من غارات قبلية على السكان المستقرين الآمنين في كنعان، و الذين كانوا يعيشون في تلك الفترة شيئا و أحزابا، لا تربطهم رابطة و لا يجمعهم حلف واحد، فإذا أضفنا إلى ذلك حروب رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر، و انشغال مصر بتلك الحروب، فضلا عن ضياع دولة الحيثيين على أيدي شعوب البحر، هذا إلى جانب ما كان يمر به العراق القديم من فترة ضعف تشبه تلك التي كانت تمر بها مصر في أخريات أيام الأسرة العشرين، و هكذا كانت الظروف التي كانت تمر بها دول الشرق الأدنى القديم و شعوبه، و التخلخل الموجود في سورية و فلسطين في أعقاب غزوات شعوب البحر، الأمر الذي أعطى بنو إسرائيل فرصة شن بعض الغارات البربرية الناجحة في بعض مدن شرق فلسطين بدرجة تكفي لأن يبدأ يشوع من تنظيم حياة قومه السياسية و الدينية، و أن يقسم الأرض المحتلة بين الأسباط طبقا لعدد كل سبط، و أن يشيد في شيلوه (سيلون الحالية، 17 ميلا شمال القدس) محرابا مركزيا يتخذ مركزا للتابوت الذي كان يستخدم كرمز لوحدة القوم السياسية و الدينية (1).

## [2] عصر القضاة:

يبدأ عصر القضاة بموت يشوع بن نون و ينتهي بقيام الملكية على يد طالوت (شاؤل في التوراة) و تستغرق هذه المرحلة من تاريخ بني إسرائيل ما بين أربعة قرون و قرن واحد من الزمان، على اختلاف في الرأي (2)، و الرأي

ص: 15

1- .33 I. P, tiC- pO, nietspE.

2- أعمال الرسل: 20/13، شاهين مكاربيوس: المرجع السابق ص: 8، فيليب حتى: المرجع السابق ص: 195، باروخ سبينوزا: المرجع السابق ص: 29-294، و كذا، 2، 1975، p، 553. O tdlefssiE. ehT FdoireP ehT segduJ ehT HAC nI. II, traP, و كذا. P, tic. .B .M . 1965 .notwoB .ehT ylraE ehT fo doirep ehT ni segduJ ehT I ni 112 .egdirbmaC ,learsI pO, yorG و كذا.

عندي أنها لا تعدو القرن ونصف القرن، إذا اعتمدنا على الرأي الذي يرجح الخروج على أيام مرتبناح حوالي عام 1214 ق.م، وقيام ملكية طالوت حوالي عام 1020 ق.م، آخذين في الاعتبار فترة التيه وعهد يشوع بن نون.

وأيما كان الأمر، فلقد كانت القبيلة أو السبط هي أساس النظام الاجتماعي عند بني إسرائيل، وطبقا لرواية التوراة فقد كانت الأرض المفتوحة تقسم على إحدى عشرة قبيلة، بينما وزعت القبيلة الاثني عشر، وهي قبيلة لاوي رهط موسى، على القبائل الأخرى للخدمة الدينية، وهذه القبائل كانت بدورها تقسم إلى عشائر، ولكنها تتجمع حول هيكل مركزي في «شيلوه» الأمر الذي دفع بعض العلماء إلى أن يقارن هذا النظام القبلي العبراني بمجلس «الأمفكتيون» اليوناني (ynoytcihpMA) والذي يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية، وكانت سلطة الكاهن الأكبر عظيمة، ولكن من المبالغة أن نزع وجود حكومة «ثيوقراطية» فإن سلطته لم تكن سياسية، وإنما كان يتصدر القوم أثناء الأزمات الأزمت زعماء محليون هم «القضاة» الذين حكموا بني إسرائيل طوال القرن ونصف القرن التاليين لدخولهم فلسطين، وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة، وهي في هذا النظام تذكرنا بسلطة زعماء النظام البدوي الذي تتميز به الحياة السامية في مراحلها الأقدم عهدا (1).

ولم يكن القضاة قضاة بالمعنى المفهوم، ولم يكونوا مشرعين بالمعنى القديم، وإنما كانوا طبقة من الأبطال المحاربين والمنقذين أقامهم الرب «ليخلصوهم من يدها ناهيهم»، ولم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض، بل إننا

ص: 16

---

1- يشوع: 1/8، 8، 10، موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص: 14-141، و كذا regnU. F. M و كذا slearsI emmeatS، flowZ red metsyS saD، htoN. M 60- 39. p، 1930. P، tiC- pO. 1015



لنشهد أكثر من واحد في وقت واحد، ولم يكن في إسرائيل ملوك في تلك الأيام، حتى إذا كانوا من الكهنة، وكان الواحد من هؤلاء القضاة يطلق عليه أحيانا لقب ملك أو قاض (1)، والحق أنك لا تجد واحدا من القضاة استطاع أن يبسط سلطانه على جميع بني إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام والسيوخ كان يتسلم قيادة زمرة واحدة، عند ما تهدد هذه الزمرة تهديدا مباشرا، وهو إذا ما كتب له النصر، لم يحتفظ حتى بقيادة تلك الزمرة (2)، هذا وتفيد روايات التوراة عنهم أنها تختلف بينها بدرجة كبيرة، فبينما يبدو بعضها ذو أهمية تاريخية مثل شعر انتصار «دبورة» أو قصة «أبيمالك»، يبدو بعضها الآخر ذو صفة أسطورية لا أقل ولا أكثر، وأما أبطال هذه القصص فلا يظهرون أبدا كمصلحين دينيين، بل إن «شمعون» لم يكن حتى زعيما، كما أن هذه الروايات مستقلة تماما إحداها عن الأخرى، ولم يعد ممكنا أن نقول بالتأكيد ما هو الترتيب التاريخي للأحداث المسجلة (3) من عصر القضاة، والذين بلغ عددهم خمسة عشر قاضيا، أولهم «عثنيل» و آخرهم صموئيل النبي (4).

و من حوالي منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أصبح «عالي» الكاهن قاضيا لإسرائيل في «شيلوه» ولمدة 40 سنة، لم يستطع فيها بنو إسرائيل أن يوقفوا قوة الفلسطينيين (5)، وكان أولى المعارك بينهما في أفيق).

ص: 17

1- نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص: 325.

2- جوستاف لوبون: المرجع السابق ص: 35.

3- .P, tiC- P, sdoL. A 335 .

4- انظر: محمد بيومي مهران إسرائيل: 630/2 - 657.

5- الفلسطينيون هم: «برست» (بلستي) أحد شعوب البحر، وقد اختلف العلماء في مواطنهم الأصلي، فمن قائل أنهم شعب هندي أوريبي أتى من كريت، ولكنه لم ينشأ بها أصلا، ومن قائل إن موطنهم الأصلي كريت، ومن قائل إنهم ساميون، ولكن الإسرائيليون يشيرون إلى أنهم قوم لا يختنون، وهذا يناهض بهم عن الساميين والمصريين، ومن قائل إنهم ينتسبون إلى القومية الإليرية، ومن قائل إنهم يتشابهون مع البلاسجيين وأن لغتهم لهجة لوية، ومن قائل إنهم من آسيا الصغرى من منطقة سيليسيا الغربية، والأكثر احتمالا، المنطقة أعلى وأسفل نهر كالكادانوس في الجزء الشرقي، ومن قائل غير ذلك، ويبدو لي أن الذين يرجعون بهم إلى آسيا الصغرى أقرب الآراء إلى الاحتمال، لأن أغلب شعوب البحر من هذه المنطقة، ولأن الأدلة العلمية في صالح هذا الرأي أكثر من غيره، وقد اشترك الفلسطينيون مع غيرهم من شعوب البحر في غزو الامبراطورية المصرية ومصر نفسها على أيام رمسيس الثالث، وقد هزموا هزيمة منكرة في معركتين، بحرية وبرية، وقد صورت المناظر المصرية رؤساءهم ملتحين، و جنودهم دون لحي، وبأغطية رأس ذات ريش، و سيوف طويلة عريضة و خناجر و حراب مثلثة و تروس مستديرة و حراب، وقد سمح لهم الفرعون بعد هزيمتهم بالاستقرار في ساحل فلسطين فيما بين يافا و غزة، و كانت أهم مدنها غزة و عسقلان و أشدود و عقرون و جت، و قد نظمت بشكل ممالك أو دويلات مدن، و لكنها كانت تشكل جميعا اتحاد تحت زعامة أشدود، و قد احتفظ التاريخ باسمهم على فلسطين، لا لأنهم أصبحوا غالبية السكان فيها و لأنهم بسطوا نفوذهم عليها جميعا، و لكن ربما لأنهم آخر من نزلها و لكثرة ترديد التوراة لاسمهم بسبب تهديدهم لليهود و غلبتهم عليهم، و قد بلغوا ذروة قوتهم عليهم جميعا، و لكن ربما لأنهم آخر من نزلها و لكثرة ترديد التوراة لاسمهم بسبب تهديدهم لليهود و غلبتهم عليهم، و قد بلغوا ذروة قوتهم في النصف الثاني من القرن الحادي عشر قبل الميلاد (انظر عن التفصيلات و المراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 587/2 - 596).



قبائل بني إسرائيل نفسها لسلطانهم، وإقامة الثكنات العسكرية الفلسطينية في المناطق الإسرائيلية، واحتلال الجبال الرئيسية في غرب الأردن، وإقامة النصب التذكارية لنصرهم في «جبعة بنيامين» (تل الفول، 5 كيلا شمالي القدس)، وأخيرا فلقد نزعوا سلاح إسرائيل حين منعهم من صناعة أسلحة جديدة، وهكذا قوى الفلسطينيون امتيازاتهم السياسية عن طريق تفوقهم في السلاح، وضعف أعدائهم فيه، بل منعه عنهم، فضلا عن القضاة على فكرة الثورة بين بني إسرائيل ضدهم (1).

### [3] قيام ملكية طالوت:

يذهب الباحثون إلى أنه من أخريات القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وبعد هزيمة أفيق المروعة تجمعت كل العوامل الضرورية لإنهاء نظام حكم القضاة وقيام الحكم الملكي عند بني إسرائيل، والتي كان منها (أولا) ضغط الفلسطينيين على الإسرائيليين، والذي كان أقوى العوامل لتجميع قوى بني إسرائيل وإنشاء مملكة، بل ربما كان الأصح أن تهديد الفلسطينيين للكيان الإسرائيلي من أساسه هو السبب في قيام الملكية الإسرائيلية، ومنها (ثانيا) أن بني إسرائيل كانوا يعيشون بين أقوام يحكمون بملوك، فالآدميون والعمونيون والمؤابيون كان لهم ملوك والفلسطينيون كان لهم أقطاب أشبه بالملوك، كما كان للفينيقيين ممالك مدن، مما دفع بني إسرائيل إلى المطالبة بملك يحارب حروبهم، ويكون لهم قاضيا كذلك، ومنها (ثالثا) أن الكهنوت الإسرائيلي كانت قد تسلمته أياد ضعيفة منذ أيام «فيخاض» و مما

ص: 19

---

1- صموئيل أول: 5/10، 3/13-22. O 572- 571. p, tiC. pO dlefssiE. و كذا. P, tiC. pO htoN. M 167- 166 olifS fo  
soP J nI 1930، 10. lacilbiB, thgirW. E. و كذا، F. P, tiC. pO thgirblA: F. W 103 و noitavaxE ehT, reajK. H

G

يؤيد هذا أن «عالي» الكاهن لم يكن من بيت «العازار» الابن الأكبر لسيدنا هارون عليه السلام، والذي يجب أن تستمر الخلافة في نسله، وإنما كان من بيت الابن الأصغر «إيثمار» ومنها (رابعاً) أن ولدي عالي الكاهن (حفني و فيخاض) لم يكتفيا بطمعهما الجشع، بل كانا يرتكبان أقذر أنواع العبادة الوثنية وسط كروم شيلوه، حتى أنهما، رغم أنهما متزوجين، لم يترددا عن إفساد النسوة اللاتي كن يترددن على المعبد للقيام بالخدمات التي كانت تتطلب عملاً لا يليق بالنساء (1).

و منها (خامساً) أن هناك نصاً في التوراة يجعل الحكم في إسرائيل ملكياً (2)، و منها (سادساً) التهديد العموني لحدود إسرائيل الشرقية، و لعل هذا السبب، بجانب التهديد الفلسطيني و تدمير للكثير من مدن إسرائيل، كان السبب المباشر لقيام الملكية الإسرائيلية (3)، و هكذا أدى التهديد الخارجي، و الاضطراب الداخلي إلى أن يضطر شيوخ إسرائيل إلى الاجتماع و المطالبة بتتويج ملك على شعب إسرائيل، و هكذا اختار لهم «صموئيل النبي» ملكاً على إسرائيل هو «شاؤل بن قيس» من سبط بنيامين، و مع ذلك، فإن رواية التوراة إنما تشير إلى أنه تردد كثيراً في إجابة شيوخ إسرائيل إلى ما يطلبون، بل (4) لقد ساء الأمر في عيني صموئيل، و حذر قومه من غضب الرب، إن هو رضي فملك عليهم ملكاً، و لكن احتجاج صموئيل كان عديم الجدوى، إذ أصرّ شيوخ إسرائيل على رأيهم، و مع ذلك فما كان عند صموئيل النية في إقامة ملك مستقل حقيقة، بل كان كل ما يرجوه أن يكون قائداً حربياً و زعيماً

ص: 20

---

1- صموئيل أول: 22/2-25، ف. ب. ماير: حياة صموئيل النبي - القاهرة 1967 ص 35، 65 (مترجم).

2- تثنية 14/17-15.

3- انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 661-667.

4- تثنية 14/17-15.

وسندا لكل الشعب يخلصهم من سيطرة الفلسطينيين ثم بعد ذلك يخضع لصموئيل طوال حياته (1).

على أن الاتجاه القرآني، كما بين ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد، يذهب إلى أن الملأ من بني إسرائيل قد طلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكا يقاتلون معه عدوهم، فحذرهم نبيهم من أن السوابق التاريخية تقيدهم ليس لهم صبر على القتال، ولا شجاعة يقفون بها أمام أعدائهم، ومع ذلك فقد أعلمهم أن الله تعالى قد اختار لهم طالوت ملكا.

هذا وقد وصف طالوت في التوراة بأنه «شاب حسن، ولم يكن في بني إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوقه، كان أطول من كل الشعب»، وفي الواقع فإن اختيار شخص بالذات ليكون ملكا على إسرائيل، ليس امرا سهلا، لأن اختياره من إحدى القبائل القوية فيه ما فيه من مساس بقدر القبائل الأخرى، وقد يثير حربا أهلية، كما أن المعارك الأخيرة بين بني إسرائيل والفلسطينيين قد حطمت من قوة «أفرايم» وهي التي كانت سيادتها على القبائل الأخرى حتى ذلك الوقت أمرا لا نزاع عليه، ومن ثم فإن اختيار طالوت «شاؤل في التوراة» كان موقفا، بالإضافة إلى مميزاته الجسمانية، وكذا العلمية كما جاء في القرآن الكريم، فقد كان من سبط «بنيامين» أضعف الأسباط الإسرائيلية، الأمر الذي كان لا يسبب له حقدا من الأسباط الأخرى، هذا إلى أن خيامه إنما كانت تقع بين أفرايم ويهوذا، أي أنها تقع في مكان وسط إلى حد ما بين القبائل الشمالية والجنوبية (2).

ص: 21

---

1- صموئيل أول: 1/8 - 22، حسن ظاظا: الفكر الدين الإسرائيلي ص 40، و كذا. P, tiC. pO, llaH. R. H. 292 و كذا. P, tiC. pO, sdoL. 395

2- صموئيل أول: 1/9 - 2، محمد بيومي مهران: إسرائيل 668-674 و كذا 1967. p, 179. W elleK. TT, eTT, saelbiB yrotsiH.

و من عجب أن يزعم الحاخام «أبشتين» أن اختيار شاول (طالبوت) ملكا على إسرائيل إنما يعتبر أول ملك دستوري في التاريخ، لأنه تم برضى عام من بني إسرائيل (1)، و الحق أن الأحداث التاريخية لا تتفق و مزاعم «أبشتين»، فالنبي صموئيل و ليس بنو إسرائيل، هو الذي اختار شاول ملكا، اعتمادا على سلطته الدينية، حيث فرضه عليهم كممثل معتمد لرب إسرائيل هذا إلى أن القوم لم يقبلوه جميعا، فلقد رفضه «بنو بليعال» الذين ازدروه وقالوا: كيف يخلصنا هذا فاحتقروه، و لم يقدموا له هدية فكان كأصم، «على حد تعبير التوراة» (2)، و كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم (3)، كما أن اختياره كان تجنباً لحرب أهلية يمكن أن تنشب، لو وقع الاختيار على واحد من أبناء القبائل القوية دون الأخرى، و من هنا كان اختياره من أضعف أسباط بني إسرائيل.

و أما أنه كان أول ملك دستوري في التاريخ، فيكذبه، أننا حتى لو صدقنا ذلك، فإن شاول قد اختير ملكا قبيل بداية الألف الأولى قبل الميلاد بأعوام قلائل، بينما نعرف أن هناك ما يدل على تواجد التفكير الديمقراطي منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في العراق القديم، و أن انتخاب الحاكم الذي كان يرأس حكومة المدينة إنما كان يتم بناء على قرارات الجمعية العمومية، و التي تتكون من جميع المواطنين، و ربما بما فيهم النساء كذلك (4)، هذا فضلا عن أن مصر الفرعونية قد عرفت منذ النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد، إنما لها من الديمقراطية و من العدالة الاجتماعية على أيام الثورة الاجتماعية الأولى، حتى أصبح الملك يوصف بأنه ليس أكثر من «ابن امرأة

ص: 22

1- .msiaduJ nietspE. I 35. p، 1970 .، -1

2- صموئيل أول 10 / 11 - 27.

3- سورة البقرة آية 247.

4- .II ,SENJ ,simatoposeM tneicnA ni ycarcomeD evitimirP ,nosilocaJ .T 165. p، 1943, .، -4

من تاتسي، طفل من نحن» مرة، وبأنه «ابن الإنسان» مرة أخرى، لإقناع القوم بأن حاكمهم ليس من بيوت الإمارة و الملك، وإنما هو من الشعب و ربيب الشعب و صديق الشعب، ثم هو قبل ذلك و بعده، رجل يخدم مصالح الدولة و يعرى شئونها، و يعمل على وحدتها، و يمتلى قلبه بحب رعاياه، و الرغبة في العمل من أجل مصالحهم (1)، و هكذا يبدو واضحاً أن ما ادعاه الحاخام «أبشتين» من تمجيد لقومه اليهود، إنما كان ادعاء عريضا إلى حد كبير.

هذا و قد اختلف المؤرخون في فترة حكم طالوت (شاؤل) فهناك من يرى أنها في الفترة (1030-1004 ق. م.) و من يرى أنها في الفترة (1025-1013 ق. م.) و من يرى أنها في الفترة (1020-1004 ق. م.)

و من يرى أنها في الفترة (1020-1000 ق. م.) و من يرى أنها في الفترة (1000-985 ق. م.) (2) و أما قصة طالوت في القرآن الكريم فقد جاءت في سورة البقرة، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ

ص: 23

- 
- 1- محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ص: 200-210، أحمد بدوي: في موكب الشمس: 120/2، و كذا، nosliW. A. J و كذا. 1960. p، TENA, 415. pO renidraG. A 120. P,- tic. pO 116- 115,
  - 2- محمد بيومي مهران: إسرائيل: 673/2-674، و كذا. 181. W thgirbla. W fo ygoloeahcrA ehT, relleK. W p, tic- pO, كذا، 1959. p، 415. p lacirotsiH ehT FsaltA Y. N, dnaL yloH I 35. P, tic. pO, nietspE. I 120. P, enitelaP و كذا. Ptic. pO, dlefssiE. O 575 و كذا.

اصْطَفَاهُ عَلَيْنِكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1).

وقد اختلف المفسرون في نبي إسرائيل الذي طلبوا منه أن يعث لهم ملكا، فروي عن قتادة أنه يوشع بن نون، قال ابن كثير في تفسيره: هو بعيد لأن هذا كان بعد موسى بزمن طويل، و كان ذلك في زمن داود عليه السلام، وقد كان بين داود و موسى ما يزيد على ألف سنة، وقول ابن كثير صحيح، لكنه بالغ كثيرا في تقديره الفترة بين موسى و داود، و هي التي يحددها الباحثون المحدثون ما بين أربعة قرون و قرن و نصف، و قد رجحنا من قبل أنها تقارب القرنين من الزمان، و قال السدي إنه شمعون، و قال مجاهد و غيره إنه شمويل (2) (صموئيل) و هو الأرجح، هذا و قد ذهب بعض المفسرين إلى أن سبب تنصيب ملك على بني إسرائيل أن جالوت رأس العمالقة و ملكهم، و هو جبار من أولاد عمليق، أو ملك الكنعانيين على رأي آخر، و كان قومه يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر و فلسطين، قد ظهروا على بني إسرائيل و سبوا أولادهم و أسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة و أربعين نفسا، و ضربوا عليهم الجزية و أخذوا توراتهم، فلما كتب على بني إسرائيل القتال تولوا،

ص: 24

- 
- 1- سورة البقرة آية: 246-248، و انظر تفسير الطبري: 5/291-328، تفسير النسفي: 1/124-125، تفسير روح المعاني: 2/166-168، تفسير الكشاف: 1/378-379، تفسير الفخر الرازي: 6/181-193، تفسير القرطبي ص: 1051-1058، تفسير الطبرسي: 3/275-284، تفسير القاسمي: 2/641-674، في ظلال القرآن: 2/266-269، تفسير المنار: 2/372-373، تفسير ابن كثير: 1/449-452 (دار الكتب العلمية- بيروت 1986) تفسير الجلالين ص: 43-44، صفوة التفاسير: 1/156-158.
- 2- تفسير ابن كثير: 1/449 (ط 1986)، تفسير البحر المحيط: 1/370، تفسير النسفي: 1/124.



إلا ثلاثمائة و ثلاثة عشر، بعدد أهل بدر، وقد رفض بنو إسرائيل طالوت ملكا لأنه من سبط بنيامين، و النبوة كانت عندهم في سبط لاوي، و الملكية في سبط يهوذا، و لكن اختياره إنما كان بسبب علمه ليتمكن من معرفة أمور السياسة، و جسامته بدنه ليعظم خطره في القلوب، و يقدر على مقاومة الأعداء و مكابدة الحرب (1).

و أما آية ملكه أن يأتيهم التابوت فيه سكينه من ربهم و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون، قال النسفي: هي رضاض الألواح و عصا موسى و ثيابه و شيء من التوراة و نعلا موسى و شمامة هارون عليهما السلام، تحمله الملائكة قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء و الأرض حتى وضعته بين يدي طالوت و الناس ينظرون، و قال السدي:

أصبح التابوت في دار طالوت فأمنوا بنبوة شمعون و أطاعوا طالوت، و قال عبد الرزاق عن بعض أشياخه: جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، و قيل على بقرتين، و ذكر غيره أن التابوت كان بأريحا، و كان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير، فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيدا، فعلموا أن هذا أمر من الله

ص: 25

---

1- تفسير البحر المحيط: 371 / 1 - 372، و نلاحظ على هذا الرأي عدة أمور، منها (أولاً) أن جالوت هو ملك الفلسطينيين، و ليس العماليق أو الكنعانيين، و منها ثانيا أن بحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط لم يكن يسمى في تلك الفترة «بحر الروم» بل إن الروم حتى ذلك الوقت لم يكونوا قد ظهوروا في العالم كقوة لها كيان يسمى باسمها البحر المتوسط، و على أي حال، فقد كان المصريون يسمون البحر المتوسط باسم «الأخضر العظيم» (وأج- ور: و في الدولة الوسطى سموه «واج ور إن حاونبو» و في الدولة الحديثة «بايم خاروه»، و منها ثالثا أن الكهانة، و ليس النبوة، هي التي كانت في سبط لاوي فقط، بل أن صموئيل النبي الذي اختار طالوت ملكا من سبط أفرايم، كما أن الملك لم يكن بعد في يهوذا، فالقضاة لم يكونوا جميعا من يهوذا إن أول ملك لإسرائيل كان من سبط بنيامين و هو طالوت.

لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعوه في بعض القرى، فأصاب أهلها داء في رقابهم، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين فسارتا به، لا يقر به أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل، فكسرتا النيرين ورجعتا، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقيل إنه تسلمه داود عليه السلام وأنه لما قام إليهما حجل من فرحه بذلك، وقيل شابان منهم فالله أعلم، وقيل كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها «أذدوه» (1).

#### [4] حروب طالوت و ظهور داود:

بدأ طالوت يعد العدة لقتال أعدائه الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على البلاد، منذ انتصارهم في معركة أفيق، واستيلائهم على التابوت (2)، وتجريدتهم من السلاح، فضلا عن إقامة القلاع في أماكن مختلفة من البلاد

ص: 26

1- تفسير ابن كثير: 1/ 451 (ط 1986).

2- التابوت: وتطلق عليه التوراة تابوت العهد أو تابوت الشهادة أو التابوت المقدس أو تابوت إله إسرائيل أو تابوت يهوه، وهو عبارة عن صندوق صنعه موسى بأمر ربه من خشب السنط، طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، ومغشى بذهب نقي من الداخل والخارج، وعليه إكليل من ذهب وأربع حلقات ذهبية، وله عصوان من السنط مغشيان بالذهب لحمل التابوت، وكانت مسئولية حراسته لبني فهاث من اللاويين رهط موسى، ويذهب البعض إلى أن فكرة التابوت مستعارة من المصريين، بينما يرى آخرون أنها مستعارة من الكنعانيين، وعلى أية حال، فلقد كان للتابوت مكانة ممتازة عند بني إسرائيل، وطبقا للتقاليد الإسرائيلية فقد كانوا يحملونه معهم أثناء المعارك الحربية، حتى عصر داود، على الأقل، وكان يستقبل بالتهليل والتكبير ليتحقق النصر، ويقع الذعر في قلوب الأعداء الذين كانوا يخافون منه ويقولون «جاء الله إلى المحلّة»، وفي أوقات الهدنة كان التابوت يودع في أحد أماكن العبادة أو في خيمة، في بيت إيل وشيلوه وبيت شمس وبعاريم وأورشليم، وطبقا لوجهة نظر سفر التثنية، فإن قدسية التابوت كانت في كونه يحمل ألواح الشريعة، ومن ثم سمي «تابوت العهد أو تابوت الشريعة أو الشهادة»، وطبقا لرواية التوراة فهو عرش يهوه، وكان التابوت على رأس الإسرائيليين عند ما دخلوا كنعان بقيادة يوشع بن نون، وأنهم حملوه عند ما عبروا الأردن، فانشق تيار النهر فوق المياه المنحدرة، وعبر الشعب على اليابسة، ثم بقي مدة في خيمة في الجبلجبل ثم في شيلوه، حيث بقي فيها أكثر من ثلاثة قرون، ثم وقع في أيدي الفلسطينيين في موقعة أفيق، وعند ما أعاده الفلسطينيون لهم بقي في قرية يعاريم، ثم نقل منها على أيام داود إلى القدس، ثم وضع في هيكل سليمان بعد بنائه حتى أزاله «منسى» ووضع بدله تمثالا، ثم أعاده «يوشيا» وبقي حتى مرحلة السبي البابلي عام 586 ق. م، ثم اختفى، ولا يعلم أحد هل أخذه البابليون أم أن اليهود أخفوه في مكان ما ثم ضاع، وهناك تقاليد أثيوبية تذهب إلى أنه نقل إلى أكسوم في أثيوبيا، وليس هناك دليل على صحة تلك التقاليد (انظر عن التفصيلات والمراجع، محمد بيومي مهران إسرائيل: 124/4 - 133).

للسيطرة عليها تماما، والتي كان من أهمها تلك التي عند «بيت شان» (بيسان) للسيطرة على الطريق الموصل بين نهر الأردن و وادي يزرعيل، والتي عند «مخماس» و «جبعة» بين جبل أفرام و أورشليم، والتي في جنوب القدس عند «بيت لحم» هذا فضلا عن تعيين موظفين فلسطينيين لجمع الضرائب المفروضة على شعب بني إسرائيل المهزوم، كما كانوا يراقبونهم من مراكز المراقبة الثابتة (1)، و على أية حال، فلقد بدأ طالوت في أعداد العدة، فجهز جيشا كثيفا، بالغ المفسرون و المؤرخون في تقدير اعداده حتى وصلوا به إلى ثمانين ألفا (2)، غير أن طالوت إنما أجرى لهم اختبارا، كان من نتيجته أن ترك الجيش و تقاعس عن القتال جميع رجال إسرائيل، إلا أقل القليل ممن عصم الله، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ

ص: 27

1- . P, tic-P, llaH. R. H 423 .

2- تذهب رواية التوراة إلى أن هذا الحدث كان مع جدعون أحد قضاة إسرائيل، و ليس مع طالوت، و أن عدد جنوده كانوا اثنين و ثلاثين ألفا، بقي منهم على العهد ثلاثمائة، و أن الحرب كانت ضد المدنيين، و ليس الفلسطينيين، و أن المدنيين كانوا قد أذاقوا الإسرائيليين العذاب ألوانا، حتى اضطروهم إلى ترك قراهم و منهم إلى الكهوف و المغاور و الحصون، و مع ذلك فإن جدعون استطاع بمئاته، الثلاث أن يقتل من أعدائه في الجولة الأولى 120 ألف، و في الجولة الثانية 15 ألف، و بدهي أن هذا من تحريفات التوراة (انظر محمد بيومي مهران: إسرائيل: 635 /2 -640، قضاة: 7 /6 -21 /8).

يَطْعَمُهُ فَإِنَّهُ مِنِّي، إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (1).

وقال ابن عباس: من اغترف بيده روى، و من شرب منه لم يرو، وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرّب منه ستة و سبعون ألفاً، و تبقى معه (أي طالوت) أربعة آلاف، على أن هناك روايات أخرى تذهب إلى أن من بقي على العهد مع طالوت ثلاثمائة و بضعة عشر نفراً، قيل ثلاثمائة و تسعة عشر، أو ثلاثمائة و ثلاثة عشر، عدة أهل بدر، روى البراء بن عازب: كنا نتحدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة و بضعة عشر، عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، و ما جاوزه معه إلا مؤمن، و أما النهر ففي رواية عن ابن عباس أنه نهر بين الأردن و فلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور (2).

و على أية حال فلقد دارت رحى الحرب بين بني إسرائيل و الفلسطينيين، و كادت الهزيمة تحقيق بالأولين، لو لا نصر الله و شجاعة داود عليه السلام الذي قتل جالوت قائد الفلسطينيين، و طبقاً لرواية التوراة فلقد كان جالوت (جليات) يخرج إلى الميدان صباح مساء طيلة أربعين يوماً دون أن يجرؤ واحد من بني إسرائيل على منازلته، حتى اضطر طالوت أن ينادي بين قومه «إن من يقتل هذا الرجل يغنيه الملك غنى جزيلاً، و يعطيه بنته

ص: 28

1- سورة البقرة آية: 249.

2- تفسير الكشاف: 1/ 294 - 296، تفسير الطبري: 5/ 246 - 248، تاريخ الطبري: 1/ 467 - 472، تفسير القرطبي ص: 1062 - 1063، تفسير المنار: 2/ 382 - 389، تفسير النسفي: 1/ 125 - 126، تفسير ابن كثير: 1/ 452 (بيروت 1986)، صحيح البخاري: 8/ 228، مسند الإمام أحمد: 4/ 290، تاريخ ابن الأثير: 1/ 123.

و يجعل بيت أبيه حرا في إسرائيل» و من ثم فقد خرج له داود بن يسي، و هو ما يزال بعد غلاما، و يتغلب على جالوت «فتمكن داود من الفلسطينيين بالمقلاع و الحجر، و ضرب الفلسطيني و قتله و لم يكن سيف بيد داود» (1)، و يشير القرآن الكريم إلى هذا الحادث في قوله تعالى: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَ انصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (2).

و هكذا استطاع داود عليه السلام بمقلاعه، و هو ما يزال بعد غلاما، أن يقتل بطل الفلسطينيين جالوت (3)، و أن يكون سببا في انتصار قومه على الفلسطينيين).

ص: 29

- 1- صموئيل أول: 1/17-54، محمد بيومي مهران إسرائيل: 2/680-687، ثم قارن: 2/635-640.
- 2- سورة البقرة آية: 250-251، و انظر تفسير الطبري: 5/354-376، تفسير الطبرسي: 2/289-292، تفسير الكشاف: 1/296-297، تفسير روح المعاني: 2/172-174، الجواهر في تفسير القرآن الكريم: 1/229-230، محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: 2/382-383، تفسير المنار: 2/389-394، تفسير القرطبي ص: 1064-1069، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: 1/318-319، تفسير النسفي: 1/125-126، تفسير ابن كثير: 1/452-454، هذا و روى في تفسير قوله تعالى «وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلَاءُ» وَ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مَرْفُوعًا قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَبْدَالُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ، بِهِمْ تَرْزُقُونَ، وَ بِهِمْ تَمْطَرُونَ، وَ بِهِمْ تَنْصَرُونَ»، قَالَ قَتَادَةَ: إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْحَسَنُ مِنْهُمْ (تفسير ابن كثير: 1/453-454).
- 3- يروي تاريخ النبوة الشريف حادثا يشبه ذلك، فبينما كان المسلمون محاصرين في غزوة الأحزاب (5هـ - 1627 م) و قد و جاءتهم جنود من فوقهم و من أسفلهم، حتى زاغت الأبصار، و بلغت القلوب الخناجر، و ظن الناس بالله الظنون، و زلزل المؤمنون زلزالا شديدا، و بدأ فريق من المنافقين يستأذنون النبي صلى الله عليه و سلم في العودة إلى بيوتهم لأنها عورة، و ما هي بعورة، و لكنهم يريدون الفرار من المعركة، في هذا الجو المليء بالخوف و الفزع، اقتحم عمرو بن ود، و كان أشجع قريش، و يحسب نفسه كفؤا لألف رجل، اقتحم الخندق بجواده مع مجموعة من فرسان قريش، فركز رمحه في للأرض، و أخذ يصول و يجول، و يطلب المبارزة، فما برز له أحد، فقد كان مقاتلا غادرا فاتكا و بطلا مغوارا، لم يبارز أحد إلا صرعه، و هكذا أخذ ينادي من يبارز، فلا يتقدم أحد غير الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قائلا: أنا لها يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: اجلس إنه عمرو، ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز، ثم جعل يؤنبهم فيقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إليّ رجلا، فقام علي فقال: أنا يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: إنه عمر، ثم نادى الثالثة فقام على كرم الله وجهه في الجنة، فقال يا رسول الله أنا، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: إنه عمرو، فقال علي: و إن كان عمرا، فأذن له رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال له: أدن مني فعممه صلى الله عليه و سلم بيده الشريفة، و قال: اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه، و عن يمينه و عن شماله، ثم رفع صلى الله عليه و سلم يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه و قال: «اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد، و عبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليا، رب لا تذرني فردا و أنت خير الوارثين»، و برز الإمام علي لعمر، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «الآن برز الإيمان كله للشرك كله»، فقال عمرو لعلي: من أنت، قال علي بن أبي طالب، فقال عمرو، و قد أعرض عن الإمام علي استخفافا به، إن أباك كان صديقي و نديمي، و إنني و الله ما أحب أن أقتلك، فقال الإمام: لكنني و الله ما أكره أن أقتلك، ثم قال يا عمرو: قد كنت تعاهد الله لقريش، ألا يدعوك رجل إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها، قال أجل، قال: فإني أدعوك إلى الله عز

و جل و إلى رسوله و الإسلام فتشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله، فقال عمرو: لا حاجة لي في ذلك، هات الثانية، قال الإمام: فترجع إلى بلادك، فإن يك محمدا صادقا كنت أسعد الناس به، و إن يك كاذبا كان الذي تريد، قال عمرو: إذن تتحدث عني نساء قريش أنني جنت و خنت قوما رأسوني عليهم، هات الثالثة، قال الإمام: الحرب، قال عمرو: هذه خصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يرؤعني بها، فقال الإمام: كيف أقاتلك و أنت فارس، و أنا راجل، فاقتحم عن فرسه و عقره و سل سيفه كأنه شعلة نار، ثم اندفع نحو الإمام علي مغضبا، و استقبله عليّ برقبته فضربه في الدرقة فشققها و أثبت فيها السيف، و ضربه الإمام علي كرم الله وجهه في الجنة، على جبل العاتق فسقط عمرو، و ثار العجاج و بانت سواة عمرو، و سمع سيدنا و مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم التكبير، فعرف أن عليا قتل عمرا، و أقبل الإمام علي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه و سلم و وجهه يتهلل، فعانقه النبي صلى الله عليه و سلم و دعا له، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعلي: هلا سلبته درعه، فإن ليس في العرب درع خير منها، فقال الإمام علي: إني حين ضربته استقبلني بسواته و استحييت ابن عمي أن استلبه، على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الإمام علي ضرب عمرا على ساقيه فقطعهما جميعا، فسقط على الأرض فأخذ علي بلحيته فذبحه و أخذ رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فألقاها بين يديه، فقام أبو بكر و عمر فقبلا رأس علي، و روى أن النبي صلى الله عليه و سلم قال في قتل علي لعمر: لضربة علي يوم الخندق أفضل من عمل الثقلين، و روى أن حذيفة بن اليمان قال: لو قسمت فضيلة علي بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لو سعتهم، و قال ابن عباس في قوله تعالى: وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ، و قال: بعلي بن أبي طالب (سورة الأحزاب آية: 9-27، تفسير القرطبي ص: 5210-5244، ابن كثير: السيرة النبوية 2/202-207، ابن هشام: سيرة النبي ص: 224-226، تاريخ الطبري: 2/573-574، الواقي: المغازي: 2/470-472، البلاذري: أنساب الأشراف: 1/345، ابن سعد: الطبقات الكبرى: 2/49، السهيلي الروض الأنف: 6/316-320، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ص: 212-213، السيرة النبوية للندوي ص: 287-288).



و من ثم فقد أخذ يملأ أعين الناس و آذانهم و قلوبهم، ثم يصبح ذا مكانة عالية بين قومه الإسرائيليين، مما أثار عليه حقد طالوت و أخذ يسعى إلى قتله، بينما هو في مسيس الحاجة إليه و إلى أمثاله من الرجال الشجعان، و لم تشفع له صداقته لولده ناثان و إصهاره للملك، و على أي حال، فما أن يمضي حين من الدهر، حتى يقتل طالوت و أولاده الثلاثة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام 1000 ق. م) (1) و يصبح داود عليه السلام ملكا على بني إسرائيل.

و أما متى كانت سنوات حكم داود، فذلك موضع خلاف بين المؤرخين، فهناك من يرى أنها كانت في الفترة (1010-955 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (1004-962 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (985-963 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (1012-972 ق. م) و من يرى أنها في الفترة (1000-960 ق. م) و هذا ما نميل إليه و نأخذ به (2).

ص: 31

- 
- 1- صموئيل أول: 25-3 / 28، 12-7 / 31، جيمس فريزر المرجع السابق ص: 43-51، محمد بيومي مهران إسرائيل: 687 / 2-689، و كذا. P, tic- P, llaH. R. H 359. و كذا. P, tic-. pO, htoN. M 178- 177.
- 2- فيليب حتى: المرجع السابق ص 303. Y. N, dnaL yloH ehT fo saltA, lacilbiB ehT, thgirblA. F. W. و كذا، Y. N, arzE omaharbA morF doireP. 81. p. 1959. و كذا، lacirotsiH 81. p. 1959. و كذا، qarI tneicnA, xuaR. G 454. p. 1966. و كذا، Y. N, msiaJ, nitspE. I 35. p. 1970. و كذا، 122- 120. p. 1963.





لمع اسم داود عليه السلام، كما رأينا من قبل، و سطع نجمه، و تعلق الشعب به و التفوا حوله، و تنادوا بزعامته، و أصبح ملء أسماع الناس و أبصارهم، و هم عن طالوت منصرفون، و ما أن يمضي حين من الدهر حتى يقتل طالوت و ولداه و يصبح داود ملكا على بني إسرائيل (1)، ثم تمضي فترة لا ندري مداها على وجه اليقين، يختار الله تعالى بعدها عبده داود رسولا نبيا (2)،

ص: 33

1- تروي التوراة أن داود كان ابن ثلاثين سنة حين ملك، و ملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين و ستة أشهر، و في أورشليم ثلاثا و ثلاثين سنة على جميع إسرائيل و يهوذا (صموئيل ثان: 4/5 - 5).

2- هناك فروق بين النبوة و الملك، منها أن النبوة لا تكون بالإرث، فولد النبي لا يكون نبيا بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي و الاصطفاء الرباني، و منها أن النبوة لا تعطي لكافر أبدا، و إنما تعطي لمؤمن فحسب، بخلاف الملك فقد يعطي لغير المؤمن، و منها أن النبوة خاصة بالرجال، و لا تكون للنساء، لقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ و إن كان ابن خزم يرى أن هذه الآية الكريمة خاصة بالرسول دون الأنبياء، و من ثم فلم يدع أحد أن الله تعالى قد أرسل امرأة، و أما النبوة و هي لفظة مأخوذة من الإنباء و هو الإعلام، فمن أعلمه الله عز و جل بما يكون قبل أن يكون، أو أوحى إليه منبئا بأمر ما فهو نبي بلا شك، فأمرها مختلف، و قد جاء في القرآن الكريم بأن الله تعالى قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبرهن بوحي حق من الله تعالى، كما حدث مع أم إسحاق و أم موسى و أم المسيح عليهم السلام، و منها أن النبوة مجالها الدعوة إلى الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و الملك قد يتعارض مع هذه الدعوة لأنه مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية التي جاءت بالترهيد عنها الأنبياء عليهم السلام، و لكن قد يجمع الله النبوة و الملك لرجل واحد، كما حدث مع داود و سليمان عليهما السلام (انظر ابن خزم: الفصل في الملك و الأهواء و النحل: 87/5، محمد بيومي مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل ص: 71-77، محمد علي الصابوني: النبوة و الأنبياء ص: 10-11).

وكان قد بلغ سن الكمال أربعين سنة (1) وأنزل عليه الزبور، فيه مواعظ وأذكار، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وهكذا أسس داود، وكذا ولده سليمان من بعده، مملكة التوحيد، تؤمن بالله ربا، وبالإسلام ديناً، ووسط عالم مشرك، ولم يجتمع النبوة والملك لأحد قبلهما أو بعدهما من بني إسرائيل، وهذا وقد ذكرت قصتهما في القرآن الكريم مطولة أحياناً (2)، ومختصرة أحياناً أخرى، وأحياناً يذكران معاً، وأحياناً يفرد أحدهما عن الآخر، ففي سورة البقرة يحكي الله تعالى أن داود كان في جيش طالوت، وأنه قتل جالوت، وأن الله آتاه من أجل ذلك الكتاب والحكمة وعلمه مما يشاء (3)، وفي سورتي النساء والأنعام يذكران معاً على أنهما من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وأنهما من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام (4).

## معجزات داود عليه السلام

هذا وقد خص الله تعالى داود عليه السلام بكثير من المعجزات، منها (أولاً) تسخير الجبال معه يسبحن بكرة وعشيا قال تعالى: **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (5)**، ومنها (ثانياً) ترجيع الطير معه كلما قرأ

ص: 34

1- يكاد يجمع العلماء على أن النبوة لا تكون إلا بعد بلوغ سن الأربعين، وقد أبطل ابن قيم الجوزية ما ذهب إليه البعض من أن عيسى بعث وهو في الثلاثين من عمره، وأما قوله تعالى في حق يحيى: **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** فالمراد الفهم والفقهاء في الدين كما فسره ابن عباس، وهو غير الحكمة المفسرة بالنبوة في آية البقرة: 251، وسنعود للموضوع ثانية عند الحديث عن يحيى وعيسى (زاد المعاد: 21 / 1، تفسير الكشاف: 504 / 2، عويد المطرفي: داود وسليمان في القرآن والسنة- مكة المكرمة: 1979 ص: 33).

2- سورة الأنبياء آية: 78-82، النمل آية: 15-44، سبأ آية: 10-14، ص آية: 17-26.

3- سورة البقرة آية: 249-251.

4- سورة النساء آية: 163-164، الأنعام آية: 84.

5- سورة ص آية: 18.

الزبور، قال تعالى: وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ (1)، وقال تعالى:

وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (2)، ويقول المفسرون عن هذه الآية إن الله تعالى قد وهب داود من الصوت ما لم يهبه لأحد، حتى أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه الزبور يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه، و يسبح بتسبيحه، و كذا الجبال تجيبه و تسبح معه كلما سبح بكرة و عشيا، و في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال صلى الله عليه و سلم: «لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود» (3).

و يقول الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه كان داود عليه السلام أوبا رجاعا إلى ربه بالطاعة و العبادة و الذكر و الاستغفار، و قد آتاه الله من فضله مع النبوة و الملك، قلبا ذاكرا، و صوتا رخيما يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه، و بلغ من قوة استغراقه في الذكرى، و من حسن حظه في الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه و كيان هذا الكون، و تتصل حقيقته بحقيقة الجبال و الطير في صلتها كلها ببارئها، و تمجيدها له و عبادتها، فإذا الجبال تسبح معه، و إذا الطير مجموعة عليه، تسبح معه لو ملاحا و مولاه إنا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ، وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ، و لقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ: الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى و الإشراق، حينما يخلو إلى ربه يرتل تراتيله في تمجيده و ذكره، و الطير تتجمع على نغماته لتسمع له و ترجع معه أناشيده، لقد يقف الناس مدهوشين للنبا، إذ يخالف مألوفهم، و يخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين

ص: 35

1- سورة ص آية: 19.

2- سورة الأنبياء آية: 79.

3- صحيح البخاري: 9 / 241، صحيح مسلم: 2 / 192.

جنس الإنسان و جنس الطير، و جنس الجبال، و لكن فيم الدهش؟ و فيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة وراء تميز الأجناس و الأشكال و الصفات و السمات، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله، أحيائه و أشيائه جميعاً، و حين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص و الإشراق و الصفاء، فإن تلك الحواجز تنزاح، و تنساح الحقيقة المجردة لكل منهم، فتتصل من وراء حواجز الجنس و الشكل و الصفة و السمة التي تميزهم و تعزلهم في مألوف الحياة، و قد وهب الله عبده داود هذه الخاصية، و سخر الجبال معه يسبحن بالعشى و الإشراق، و حشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله، و كانت هذه هبة فوق الملك و السلطان، مع النبوة و الاستخلاص (1)، قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبح، و كان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته، و بكت لبكائه (2).

و منها (ثالثاً) إلانة الحديد له، فكان بين يديه كالعجين أو كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار، و لا ضرب بمطرقة، و قيل لان الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة (3)، قال تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ، وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدْرٌ فِي السَّرْدِ، وَ اْعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (4)، و في قوله تعالى **وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ** قال الحسن البصري و قتادة و الأعمش و غيرهم: كان الله تعالى قد ألان الحديد لداود حتى كان يفتله بيديه لا يحتاج إلى نار و لا مطرقة، و قال الإمام الفخر الرازي: ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع و هو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به، فأى عاقل يستبعد

ص: 36

1- في ظلال القرآن: 3017/5 (بيروت 1982).

2- زاد المسير: 436/6.

3- تفسير النسفي: 319/3.

4- سورة سبأ: آية: 10-11.

ذلك على قدرة الله، قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح، وفي سياق الآية العاشرة من سورة سبأ، التي ابتدأها الله تعالى بقوله: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا**، ثم ذكر في آخرها **وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ**، ما يشعر بأن الله تعالى قد ألان الحديد تفضلا منه وكرما، وآية على الإعجاز من الآيات التي يمنحها الله لأتباعه، ولو أن إلانة الحديد بالنار، كما يقع للناس جميعا، لما ذكرها الله في سياق الامتتان على داود، ولما جعلها الله نعمة يختصه بها، وقد يقال إنه أول من اهتدى إلى أثر النار في إلانة الحديد، ولم يكن ذلك معروفا قبل داود، فكان هذا من نعم الله على داود أولا، ثم أصبح من سنن الطبيعة ثانيا أو بعد ذلك، ولكننا لا نذهب كما يقول الدكتور النجار، لمثل هذا المذهب ما دام فضل الله على أنبيائه بالمعجزات الخارقة أمرا مقرر لهم، وواجبا في حقهم (1).

ومن ثم يذهب العلامة سيد قطب إلى أنه في ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر، فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلا للطرق، إنما كان والله أعلم معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة، وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين يعد فضلا من الله يذكر، ولكننا إنما نتأثر بجو السياق وظلاله، وهو جو معجزات، وهي ظلال خوارق خارقة على المألوف، ثم يقول تعالى:

**أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَالسَّابِغَاتِ الدَّرْعَ**، روى أنها كانت تعمل قبل داود عليه السلام صفائح، الدرع صفيحة واحدة فكانت تصلب الجسم وتثقله، فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم، وأمر بتضيق تداخل هذه الرقائق لتكون

ص: 37

---

1- تفسير ابن كثير: 3/ 838-839، تفسير الفخر الرازي: 25/ 245، تفسير النسفي: 3/ 319-320، تفسير القرطبي: 14/ 266، محمد الطيب النجار تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية- الرياض 1983 ص: 234-235.

محكمة لا تنفذ فيها الرماح، وهو التقدير في السرد، وكان الأمر كله إلهاما وتعلينا من الله (1).

هذا وقد روى الحافظ ابن عساكر عن وهب بن منبه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكرا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحدا إلا أثنى عليه خيرا في عبادته وسيرته وعدله، قال وهب: حتى بعث الله ملكا في صورة رجل فلقية داود عليه السلام، فسأل كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأتمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه لكان كاملا، قال:

ما هي، قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود إلى ربه عز وجل في الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغني به ويغني به عياله، فألان الله عز وجل له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدروع وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: **أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرُ فِي السَّرْدِ**، يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلاثها، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها (2).

هذا وقد كشفت حفريات «سير فلندرز بتري» عن مناجم للحديد في جمعة وعصيون جابر (3)، على مقربة من خليج العقبة، ترجع إلى أيام داود وسليمان عليهما السلام، ويبدو أن داود قد استولى عليها من الآدوميين بعد هزيمته إياهم.

ص: 38

---

1- في ظلال القرآن: 2897/5 - 2898.

2- تفسير ابن كثير: 839/3.

3- وليم أولبرايت: آثار فلسطين - ترجمة زكي اسكندر و محمد عبد القادر، القاهرة 1971 م ص: 128، وكذا، yrotsiH sa elbiB ehT، 1967، W 199- 198. p. relleK.

ومنها رابعا قوى الله تعالى ملكه و جعله منصورا على أعدائه، مهابا في قومه، قال تعالى: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، ويذهب بعض المفسرين في معنى الآية الكريمة أن الله قواه و جعله منصورا على جميع أعدائه و مناوئيه، فكان لا يقوم له معارض إلا غلبه، قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطانا، وقال السدي: كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف، وقال بعض السلف بلغني أنه كان يحرسه في كل ليلة ثلاثة و ثلاثون ألفا، وقال غيره أربعون ألفا، وقد ذكر ابن جرير و ابن أبي حاتم رواية عن ابن عباس أن نفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود عليه الصلاة و السلام أنه اغتصبه بقرا، فأنكر الآخر و لم يكن للمدعي بينة فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود عليه السلام في المنام بقتل المدعي، فلما كان النهار طلبهما و أمر بقتل المدعي، فقال يا نبي الله علام تقتلني و قد اغتصب هذا بقري، فقال له إن الله تعالى أمرني بقتلك فأنا قاتلك لا محالة، فقال و الله يا نبي الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه، و إنني لصادق فيما ادعيت، و لكنني كنت قد اغتلت أباه و قتلته و لم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود عليه السلام فقتل، قال ابن عباس: فاشتدت هيبتة في بني إسرائيل، و هو الذي يقول الله عز و جل: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ (1)، و على أي حال فإن التاريخ يحدثنا أن الله تعالى كتب له النصر المبين على الفلسطينيين أقوى أعدائه و أكثرهم أهمية، و أشدهم خطرا كما كتب له نجاحا بعيد المدى في طردهم من مناطق بني إسرائيل، بل إنه وصل إلى مدنهم ذاتها، كما كتب له نصرا مؤزرا على ممالك مؤاب و عمون و أدوم، فضلا عن الآراميين (2)، كما سنفصل ذلك في الفصل التالي .

ص: 39

1- تفسير ابن كثير: 4/ 46-47 (دار الكتب العلمية- بيروت 1986)، تفسير النسفي: 4/ 36 (ط دار الفكر).

2- انظر التفصيلات عن دولة داود عليه السلام (محمد بيومي مهران إسرائيل: 2/ 693-734).



و منها خامسا أن الله تعالى آتاه الحكمة و فصل الخطاب، و الحكمة، فيما يرى كثير من المفسرين النبوة (1) أو هي في رأي آخر، الزبور و علم الشرائع أو هي كل كلام وافق الحق فهو حكمة (2)، و أما فصل الخطاب فهو الحكم في القضايا التي تقع بين الناس في عهده، و قد بيّنه الله تعالى في قوله جل ثناؤه: يا داؤد إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق (3)، و قال مجاهد و السدي: هي إصابة القضاء و فهم ذلك، و قال مجاهد أيضا: هي الفصل في الكلام و في الحكم و هذا يشتمل كل ذلك، و هو المراد، و قد اختاره ابن جرير، و قيل فصل الخطاب قطعه و الجزم فيه برأي لا تردد فيه، و ذلك مع الحكمة و مع القوة غاية في الكلام و السلطان في عالم الإنسان، و عن أبي موسى أول من قال: «أما بعد» داود عليه السلام و هو فصل الخطاب، و كذا قال الشعبي: فصل الخطاب «أما بعد»، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن، يفتح بذكر الله و تمجيده فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه و بين ذكر الله بقوله «أما بعد» (4).

## قصة الخصمين

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الآيات الكريمة من سورة «ص» (21-25) و التي ثار جدل حول تفسيرها، يقول تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تَسْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا

ص: 40

- 1- انظر تفسير ابن كثير: 47/4، تفسير روح المعاني: 173/2، تفسير أبي السعود: 186/1، فتح القدير للشوكاني: 266/1، زاد المسير لابن الجوزي: 300/1، الراغب الأصفهاني المفردات في غريب القرآن ص: 128.
- 2- تفسير النسفي: 36/4-37.
- 3- سورة ص آية: 26.
- 4- تفسير ابن كثير: 47/4، تفسير النسفي: 37/4، في ظلال القرآن: 3017/5، عويد المطرفي المرجع السابق ص: 50.

وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (1).

و تفسير الآيات الكريمة أن رجلين يمتلك أحدهما تسعا وتسعين نعجة، ويمتلك الآخر نعجة واحدة، وقد نازعه فيها صاحب التسع و التسعين، وقد دخل الخصمان على داود من غير المدخل المعتاد، فقد دخلا عليه من فوق الجدران، وهي طريقة توحى في أعراف الناس بشر يقع من هذا التسور، فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين، كما أن دخولهما كان في غير وقت جلوسه للحكم، وإنما في وقت خلوته إلى نفسه، واعتزال مجتمعه وأمه في هذا اليوم، إرضاء لرغبة نفسه في حبه لعبادة ربه، فقد كان داود يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة و ترتيل أناشيده تسيحا لله في المحراب، و كان إذا دخل المحراب للعبادة و الخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، روى عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن البصري قال: إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء، يوما لنسائه، و يوما للعبادة، و يوما للقضاء بين بني إسرائيل، و يوما لبني إسرائيل، و روى نحوه عن السدي فيما أخرجه الحكم في المستدرك و الطبري في التفسير (2).

و من ثم فقد فزع داود من الخصمين ظنا منه أنهما يريدان به شرا، فلما

ص: 41

1- سورة ص آية: 21-25.

2- انظر تفسير الطبري: 147/23-148، تفسير الدر المنثور: 301/5، تفسير الظلال: 3018/5، المستدرك للحاكم: 586/2، تاريخ الطبري: 482/1، عويد المطرفي المرجع السابق ص: 52-53.

ظهر أنهما جاءا من خصومة ليحكم بينهما فيها، استغفر ربه من هذا الظن و خر ساجدا منيبا إلى الله تعالى، فغفر الله له ذلك الظن، لأنه ما كان ينبغي من مثله و كما هو معلوم حسنات الأبرار سيئات المقربين، وربما كان استغفاره لأن انقطاعه للعبادة يوما كاملا عن أمته، و اختلاؤه بنفسه ذلك اليوم كله، يؤدي حتما تركه النظر في ذلك اليوم في أمر رعيته و أمته التي استودعه لله عز و جل رعاية مصالحها، فجاءه مثال من حاجتها إليه في كل وقت ليقوم بإصلاح ذات بينها، و إقرار التراحم و التآخي بين أفرادها حتى يكونوا على هدى من ربهم، كما يدل على ذلك قول الخصمين له «و اهدنا إلى سواء الصراط» ثم بين الله تعالى لداود عليه السلام مهمته في هذه الحياة الدنيا، باعتباره ملكا على بني إسرائيل، و نبيا مرسلا، إذ الملك يقتضي خلافته لله تعالى في الأرض بالنظر في مصالح رعيته و الحكم بينهم بالعدل، و فصل قضاياهم بما يرفع الظلم و البغي عن ضعفائهم، إذا حاوله كبارؤهم و أقوياؤهم (1)، و ذلك لا يتم على الوجه المطلوب إلا إذا وضع نفسه قريبا منهم في كل آن، قال تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (2)، فأخبره أنه جعله خليفة في الأرض و أمره بالحكم بين الناس و الفصل في قضاياهم بالحق، و النبوة تعود الملك و تحرسه عن أن تندبه مطالب الدنيا عن سبيل الحق و العدل، و تسلك به مسالك الطهر و التزام الهدى (3).

على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الخطأ الذي وقع من داود أنه سمع

ص: 42

1- جاء في بعض الآثار «السلطان ظل الله في أرضه»، و قال الخليفة عثمان بن عفان: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» البداية و النهاية: 10/2.

2- سورة ص آية: 26.

3- عويد المطرفي المرجع السابق ص: 53-54.

أحد الخصمين وهو صاحب النعجة الواحدة، ولم يسمع حجة الخصم الآخر وهو صاحب التسع والتسعين نعجة، وتسرع من أجل ذلك في الحكم دون أن يمعن النظر ويرى حجة الخصم الآخر، ومن أجل ذلك استغفر ربه من هذا الخطأ الذي وقع فيه نتيجة السهو، وهو خطأ لا يتنافى مع العصمة (1)، ولعل عذر داود عليه السلام، أن القضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل، ومن ثم اندفع داود يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم «قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»، ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان فقد كانا ملكين جاء للامتحان امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل، ولتبيين الحق قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضوا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة، ولكن القاضي عليه ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقضا، وعند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء، «و ظن داود إنما فتناه»، وهنا أدركته طبيعته إنه أواب «فاستغفر ربه و خر راكعا و أناب» (2).

على أن بعض كتب التفسير قد خاضت مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوفا كبيرا تنتزه عنه طبيعة النبوة، ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا، وهي لا

ص: 43

1- محمد الطيب النجار المرجع السابق ص: 39.

2- في ظلال القرآن: 3018 / 5.

تصلح للنظر من الأساس، ولا تتفق مع قول الله تعالى: وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ، كما أن التعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس وعدم اتباع الهوى، واتباع الهوى، فيما يختص بنبي، هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التريث والتثبت والتبني مما ينتهي إلى الاستطراد فيه إلى الضلال، أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله، وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب (1).

على أن بعض المفسرين والمؤرخين قد أسرفوا على أنفسهم، فذهبوا إلى أن هذين الخصمين اللذين تسوّرا المحراب على داود عليه السلام، إنما هما ملكان أرسلهما الله تعالى إليه لينتبه إلى خطئه من محاولة ضم امرأة «أوريا» إليه، وعنده تسع وتسعون امرأة، ومن ثم فهم يرون أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فتزوجها إذا أعجبت، و كان لهم عادة في المواساة بذلك، و كان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أن داود عليه السلام وقعت عينه على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها، فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها، وهي أم سليمان، فقبل له إنك، مع عظم منزلتك وكثرة نسائك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها لك، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به، على أن رواية

ص: 44

أخرى تذهب إلى أوريا خطب تلك المرأة، ثم خطبها داود، فأثره أهلها، فكانت زلتة أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه (1)، على أن هناك رواية ثالثة تذهب إلى أن خطبه داود كانت أنه لما بلغه حسن امرأة أوريا، فتمنى أن تكون له حلالا، فاتفق أن أوريا سار إلى الجهاد فقتل، فلم يجد له من الهم ما وجده لغيره (2).

على أن هناك رواية رابعة اندفعت في هذه الحماقة، جريا وراء إسرائيليات باطلة، وقد نسي أصحابها ما في هذا الصنيع من إصااق تهمة شنيعة برسول كريم، و نبي جليل، تقول هذه الرواية أنه بينما كان داود عليه السلام في خلوة عباده، جاءه الشيطان وقد تمثل في صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجله و هو يصلي، فمدّ يده ليأخذه فتنحى فتبعه، فتباعد حتى وقع في كوة، فذهب ليأخذه فطار من الكوة، فنظر أين يقع فبيعت في أثره، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقا، فحانت منها التفاتة فأبصرته، فألقت شعرها فاستترت به، فزاده ذلك فيها رغبة (و في رواية أخرى، فما زال يتبع الحمامة حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خلقها و حسنها، فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها فزاده ذلك أيضا إعجابا بها، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجا غائبا بمسلحة كذا و كذا، فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعث أوريا (أهريا) إلى عدو كذا و كذا، فبعثه ففتح له، ثم بعثه إلى أخرى حتى قتل في الثالثة، و تزوج داود امرأته (3)، فلما دخلت عليه لم تلبث عنده إلا يسيرا حتى بعث الله ملكين في).

ص: 45

1- تفسير النسفي 37/4 - 38، تفسير البيضاوي 17/5 - 19.

2- الكامل لابن الأثير 126/1.

3- قال مقاتل بلغنا أنها أم سليمان (تاريخ الطبري 482/1) وقال ابن كثير: و كانت لداود مائة امرأة، منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة (البداية و النهاية 15/2).

صورة إنسيين، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلوا عليه، فتسوّرا عليه المحراب، ففزع منهما فقالا: لا تخف خصمان بغي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، قال قصا على قصتكما، فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فهو يريد أن يأخذها ليكمل بها نعاجه مائة، فقال للآخر ما تقول، فقال إن لي تسعا وتسعين نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي مائة، قال: وهو كاره، قال وهو كاره، قال: إذا لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: إن ذهبت تروم ذلك ضربنا مئات هذا وهذا (الأنف والجبهة) فقال يا داود، أنت حق أن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل، وتزوجت امرأته، قال فنظر فلم ير شيئا، فعرف ما وقع فيه، وما ابتلى به، فخر ساجدا فبكى، فمكث يبكي ساجدا أربعين يوما، لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، حتى أوحى الله إليه بعد أربعين يوما، يا داود: ارفع رأسك فقد غفرت لك...» (1).

وقريب من هذا ما رواه السيوطي في الدر المنثور، و خلاصته أن داود عليه السلام أمر في يوم عبادته ألا يدخل عليه أحد، وبينما هو يقرأ في الزبور، إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون الطير من كل لون، ولما حاول داود عليه السلام الإمساك به طار منه على كوة المحراب، ولما أراد مرة ثانية الإمساك به طار خارج الحجرة، فنظر داود ليراه أي ذهب فإذا به يرى امرأة تستحم عارية، فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت كل جسدها، فأرسل إليها وعند ما جاءت علم منها أنها امرأة رجل محارب يدعى أوريا، فأرسل إلى قائد الجيش أن يجعل أوريا من حملة التابوت، الذين كانوا في مقدمة

ص: 46

---

1- في تاريخ الطبري 1/ 479-481، وانظر روايات أخرى في: تاريخ الطبري 1/ 481-484، الكامل لابن الأثير 1/ 125-126، تاريخ اليعقوبي 1/ 52-53.

الجيش، وكان من يوضع أمامه لا يرجع حتى يقتل، ولما قتل زوجها وانقضت عدتها خطبها داود لنفسه، ولكنها اشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده، وكتبت بذلك كتاباً أشهدت عليه خمسة من بني إسرائيل، وقد أنجبت له سليمان، فإنما شبّ تسوّر عليه الملكان المحراب، فكان شأنهما ما قص الله في كتابه، وخر داود ساجداً، فغفر الله له وتاب عليه (1).

وهكذا تابع بعض المؤرخين والمفسرين رواية توراة اليهود المتداولة اليوم، إلى حد ما، حين صورت النبي الأواب الذي آتاه الله الحكمة و فصل الخطاب، وهو يتمشى فوق سطح قصره، فيرى امرأة رائعة الجمال، وهي تستحم عارية، فيسأل عنها بعضاً من بطانته، ويعرف أنها «بتشيع» امرأة أوريا الحثي، فيرسل إليها من يأتيه بها، ثم ينال منها وطره، وهي مطهرة من طمثها، وسرعان ما تحبل المرأة من فورها، و حين تتأكد من حملها تخبر داود بالأمر، فيرسل إلى زوجها يستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل بعد ذلك على المرأة ظن الناس أنه من زوجها، غير أن أوريا يابى أن يدخل على امراته، ويصر على العودة إلى ميدان القتال، و من ثم يأمر داود بأن يوضع أوريا في وجه العدو، وأن له مثلاً برجل يملك نعجة واحدة، و آخر يملك غنماً وبقراً كثيراً، ثم جاء للغني ضيف فأخذ نعجة الرجل الفقير، و هيأ منها طعاماً لضيفه، فحكم داود بأن يقتل الرجل الفاعل ذلك، و يرد النعجة أربعة أضعاف فقال ناثن لداود: أنت هو الرجل (2).

وهكذا تنتهي رواية العهد القديم الكذوب عند هذا الحد المحزن، فهل كان النبي الأواب كذلك؟ و هل هذا الاتهام يتجسم مع ما هو معروف عن

ص: 47

1- الدر المنثور في التفسير بالمأثور 5/300-306.

2- صموئيل الثاني 1/11-27، و انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/203-205.



داود عليه السلام، من خلق كريم منذ حداثة سنه؟ وهل من البر أن يخون الإنسان، أي إنسان، رجلاً في أعراضهم في وقت تدق فيه الحرب طبولها، إنه التناقض إذن، وهو لحن يميز اليهود عن سائر البشر، ولا بأس على الذين يقتلون الأنبياء بغير حق (1)، أن يدمروا سمعه من لم يقتلوهم أيضاً بغير حق، وكم من حوادث رهيبه تسجلها التوراة من هذا النوع دون تعقيب عليها، مع أن أحداثها تدور في بيوت الأنبياء (2).

و من عجب أننا نقرأ في سفر صموئيل الثاني، نفس السفر الذي روي القصة الكذوب، نقرأ على لسان داود عليه السلام «يكافئني الرب حسب بري، حسب طهارة يدي، يرد علي، لأنني حفظت طرق الرب، ولم أعصي إلهي، لأن جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحمدها، وأكون كاملاً لديه، وأتحفظ من إثمي، فيرد الرب علي كبري، وكطهارتي أمام عينيه» (3). هذا فضلاً عن نصوص أخرى من التوراة نفسها تصف داود عليه السلام، وكأنه يعمل المستقيم في عيني الرب، وأنه الأسوة الحسنة لغيره (4)، وأنه كان «يجري قضاء و عدلاً لكل شعبة» (5)، وأن الرب كان معه حيث توجه (6)، لأنه

ص: 48

---

1- انظر: سورة البقرة: آية 61، 87، 91، آل عمران: آية 112، المائدة: آية 70، وانظر: تفسير الطبري 2/139-142، 323-324، 350-354، 7/116-118، 10/447، تفسير ابن كثير 1/145-147، 175-179، 2/77-86، 3/148، تفسير المنار 1/273-276، 311، 317-318.

2- تكوين 12/14-20، 19/30-38، 1/20-18، 1/26-11، 1/34-30، 22/35، 38/306، صموئيل ثان 13/1-39، 15/1-23، 16/23، وانظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الكتاب الثالث - التوراة والأنبياء ص 162-218.

3- صموئيل ثان 22/21-25.

4- ملوك أول 11/38، 15/3، ملوك ثان 18/3، هوشع 3/5.

5- صموئيل ثان 8/15.

6- ملوك أول 3/3-6.

كان يسير أمام الرب بأمانة وبر واستقامة، وأنه كان يحفظ فرائضه وصاياه ويسلك طريقه (1)، وأنه كان الناقل لشريعة الرب لشعبه إسرائيل (2)، هذا إلى أن التوراة إنما تشير بوضوح إلى أن الرب إنما قد اصطفى من شعبه إسرائيل سبط يهودا، ومن سبط يهودا بيت داود، ثم اصطفى من بيت داود، داود نفسه، ومن أولاد داود ولده سليمان (3)، هذا إلى أن داود عليه السلام إنما هو صاحب المزامير المشهورة في التوراة، وأخيراً فهو، في مقام النبوة عند بني إسرائيل، إنما يأتي مباشرة بعد إبراهيم وموسى عليهما السلام (4).

و أما في القرآن الكريم، فقد وصف داود عليه السلام بأنه نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (5)، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ (6)، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (7)، وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (8) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (9)، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (10)، وفي هذه

ص: 49

- 
- 1- ملوك أول 14/3.
  - 2- إشعياء 3/55-6.
  - 3- أخبار أيام أول 28/4-5.
  - 4- محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/203-210.
  - 5- سورة ص: آية 30.
  - 6- سورة البقرة: آية 251. وانظر: تفسير الطبري 5/371-372، تفسير المنار 2/392-393، تفسير روح المعاني 2/173-174، الدر المنثور 1/319، تفسير الطبرسي 2/291-292، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 1/230، تفسير ابن كثير 1/447، تفسير الكشاف 1/296.
  - 7- سورة النساء: آية 163.
  - 8- سورة النمل: آية 15.
  - 9- سورة سبأ: آية 10-11.
  - 10- سورة ص: آية 17.

الآية يذكر الله تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيدٍ، والأيد: القوة في العلم والعمل، قال ابن عباس: الأيد القوة، وقال مجاهد: الأيد القوة في الطاعة، وقال قتادة: أعطى داود عليه السلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه السلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، و كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»، وإنه كان أواباً، وهو الرجاء إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤنه (1).

وانطلاقاً من كل هذا، فالقصة التوراتية وما سار على نهجها من قصص، عن علاقة داود عليه السلام، بزوجة «أوريا» الحشبي، لا يتصور صدق وقائعها من رجل عادي ذي خلق، وفضلاً عن نبي كريم ورسول جليل، ومن هنا فقد أخطأ بعض المفسرين خطأ كبيراً، إذ فسروا ما جاء في سورة ص عن الخصمين اللذين اختصما إليه على نحو قريب مما جاء في التوراة (2)، مع أن العبارة التي ذكرت بها القصة في القرآن لا تدل على شيء من ذلك، ومن هنا فقد ختمت هذه الآيات الكريمة بقوله تعالى: وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ، وبدهي أنه لا يمكن أن تكون الزلْفى وحسن المآب للزناة القتلة، ومن هنا رأينا السدي يروي عن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه في الجنة، أنه قال: «لو سمعت رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً لجلدته ستين ومائة»، لأن حد قاذف الناس ثمانون، وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة، وفي رواية النسفي

ص: 50

1- تفسير ابن كثير 4/ 45-46، تفسير النسفي 4/ 36.

2- انظر: تفسير مقاتل 3/ 1266-1268.

قال الإمام علي «من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين»، وهو حد الفرية على الأنبياء، بل إن ابن العربي يرى أن من قال إن نبياً زنى فقد كفر (1)، كما أنكرت جمهرة المفسرين هذه التهمة الكذوب بالإجماع، كما أن أحداً على الإطلاق لم يقل بأن النبي المعصوم قد قارف من تلك المرأة محرماً (2).

وروى النسفي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترها على نبيها، فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر:

لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، وقال النسفي:

و الذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح لكونهما أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة (3).

ص: 51

---

1- تفسير القرطبي ص 5625-5626، على عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام- القاهرة 1964 ص 43-44.

2- انظر: تفسير ابن كثير 4/47-50، تفسير البحر المحيط 7/393، تفسير القاسمي 14/5089-5090، تفسير البيضاوي 2/107-110، تفسير الفخر الرازي 26/188-198، تفسير القرطبي 15/166، الدر المنثور 5/300-306، الإكليل للسيوطي ص 185، ابن خرم: المرجع السابق 4/18، تفسير النسفي 4/37-39.

3- تفسير النسفي 4/38.



1- داود فيما قبل الملكية:

تروي التوراة أن داود كان حامل سلاح شاول (طالوت)، كما كان طلق اللسان فصيحاً، خفيف الروح، شجاعاً بل مقاتلاً جباراً، و داود بن يس من سبط يهوذا، موطنه بيت لحم، ونسبه ينتهي إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد أرسله الله حين غضب على شاول ليكون ملكاً على إسرائيل، مختاراً إياه من بين أولاد يس الستة على رأي، والسبعة على رأي آخر، بل والثلاثة عشر، فيما تروي المصادر العربية، وكان أشقر مع حلاوة العينين، وحسن المنظر، وفي المصادر العربية عن وهب بن منبه كان قصيراً أزرق قليل الشعر، طاهر القلب نقيّه (1)، وكان قبل اشتراكه في الحرب ضد جالوت وقومه مكلفاً بالعناية بأغنام أبيه، وقد أظهر في القيام بهذه المهمة إخلاصاً نادراً، وشجاعة فائقة فقد قتل أسداً و دباً هاجماً القطيع (2)، وقد جاء في تاريخ الطبري أنه أتى أباه ذات يوم فقال يا أبتاه: ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرمته، قال أبشر يا بني إن الله جعل رزقك

ص: 53

---

1- صموئيل أول 16/1 - 12/17، أخبار أيام أول 15/2، تاريخ الطبري 1/472، 476، ابن كثير: البداية و النهاية 10/2، الكامل لابن الأثير 1/123.

2- صموئيل أول 17/34 - 36.

في قذافتك، ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدا رابضا فركبت عليه و أخذت بأذنيه فلم يهجنني، فقال أبشريا بني، فإن هذا خير يعطيكه الله، و كان داود راعيا، و كان أبوه خلفه يأتي إلى أبيه و إلى أخوته بالطعام (1).

وقد بدأ نجم داود يسطع بين قبائل بني إسرائيل منذ أن قتل جالوت، فقترت به عين الملك، و وعده بأن يزوجه، ابنته الكبرى «ميرب» ولكنه زوجها إلى «عدريئيل المحولي» و لما أحبته أختها «ميكال» وعده بها على أن يمهره إياها مائة غلفة من الفلسطينيين (2)، و لكن يبدو أن الشعبية التي اكتسبها داود قد جعلت الملك يعدل عن الإصهار إليه، و إن كانت الرواية العربية تذهب إلى أن طالوت رجع فأنكح داود ابنته، و أجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود و أحبوه (3)، و من ثم فقد بدأ طالوت يخاف داود «و صار شاول (طالوت) عدوا لداود لكل الأيام» (4) بل «و كلم، شارل يوناثان ابنه و جميع عبيده أن يقتلوا داود»، و لكنه سرعان ما يعفو عنه نتيجة توسلات ولده يوناثان، صديق داود، غير أنه سرعان ما يغير رأيه مرة أخرى و يفكر في قتل داود، فيطعنه بالرمح و لكنه يخطئه، فيفر داود من أمامه، فيزداد غضب طالوت، و تتأجج نار الغيرة في صدره فيرسل إلى داود من يقتله في بيته «فأخبرت داود ميكال امرأته قائلة إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غدا، فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا و نجا»، و وضعت في مكانه على الفراش الترافيم و لبدة المغربي و غطته بثوب (5)، و في الرواية

ص: 54

1- تاريخ الطبري 472/1، تاريخ ابن الأثير 1/123.

2- صموئيل أول 7/18-29.

3- تاريخ الطبري 473/1، تاريخ ابن الأثير 1/124.

4- صموئيل أول 29/18.

5- صموئيل أول 19/1-17.

العربية أن داود لما علم أن طالوت يريد قتله، جعل في مضجعه زقّ خمر و سجاه، ودخل طالوت إلى منام داود، وقد هرب داود، فضرب الزقّ ضربة خرقه فوقعت قطرة من الخمر في فيه فقال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه الخمر (1)، فلما أصبح طالوت علم أنه لم يصنع شيئاً، فخاف داود أن يغتاله فشدّ حجابيه و حراسه، ثم إن داود أتاه من المقابلة في بيته و هو نائم، فوضع سهمين عند رأسه و عند رجله، فلما استيقظ طالوت بصر السهام فقال: يرحم الله داود هو خير مني، ظفرت به و أردت قتله و ظفر بي فكف عني، و أذكى عليه العيون فلم يظفروا به، و ركب طالوت يوماً فرأى داود فركض في إثره، فهرب داود منه و اختفى في غار في الجبل (2).

و هكذا اضطر داود للفرار من مكان إلى آخر، معرضاً حياته للخطر، و مع ذلك فلم يذهب إلى موطنه في بيت لحم (5 أميال جنوب القدس) و إنما ذهب إلى صموئيل النبي في الرامة (رامة الله) و من هناك إلى «نوب» (مدينة الكهنة) حيث يعيش «أخيمالك» الكاهن، الذي دفع حياته، و كذا مدينته بما فيها من رجال و نساء و أطفال و ماشية، ثمناً لإيوائه داود (3)، و هكذا ضيق طالوت الخناق على داود، حتى اضطره أن يودع أباه و أمه عند ملك مؤاب، و أن يلجأ هو إلى ملك «جت» الفلسطيني، و حين لم يأمن مكره، لجأ هو، إلى مغارة «عدلام» حيث جمع هناك من حوله أربعمائة رجل من مريديّة (4).

ص: 55

1- تاريخ الطبري 473/1، تاريخ ابن الأثير 124/1.

2- تاريخ الطبري 473/1، تاريخ ابن الأثير 124/1.

3- صموئيل أول 18/19-23/22، قارن: تاريخ الطبري 273/1، تاريخ ابن الأثير 124/1.

4- صموئيل أول 10/21-15، 22/1-5، و انظر: محمد بيرمي مهران: إسرائيل 697/2-701.



## 2- اختيار داود ملكا على يهوذا:

سرت الأبناء من كل أرجاء البلاد، كما تسري النار في الهشيم، بأن طالوت قد مات، وأن أولاده الثلاثة (يوناثان وأبيناداب وملكيشوع) لقوا نفس المصير، وأن الإسرائيليين قد هزموا شر هزيمة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام 1000 ق. م) وأن البلاد قد عادت مرة أخرى تحت النير الفلسطيني (1)، وقد أدى ذلك إلى قيام صراع مرير بين القبائل الإسرائيلية على السلطة، خاصة وأن صموئيل النبي كان قد مسح داود أثناء حياته خليفة لطالوت، وإن لم يناد به ملكا على إسرائيل، وفي نفس الوقت كان «إيشبعل» بن شاول (طالوت) قد اعتبر نفسه الخليفة الشرعي لأبيه بعد وفاته، فضلا عن وفاة إخوته الكبار، و كان يسانده في ذلك «أبئير» قائد جيش أبيه، وأحد أمراء بيته، و من ثم فقد نودي به ملكا في «محنيم» (شمالي عجلون بميلين) عاصمة منطقة أفرام في أرض جلعاد، جنوب يوق، حيث ذكرى أعمال أبيه شاول الجرئية منذ سنوات مضت ما تزال باقية هناك، وعلى أية حال، فقد شملت ملكية إيشبعل مناطق غير محددة لقبائل الجبال في شرق الأردن وفي الجليل والسامرة، وقد أطلق إيشبعل على نفسه، كما فعل أبوه من قبل، لقب، «ملك إسرائيل» و ادعى أنه يحكم كل القبائل الإسرائيلية، ولكن بما أن القبائل الجنوبية قد انفصلت (تحت حكم داود) عن القبائل الأخرى، فإن التصور السياسي لإسرائيل تحت حكم «إيشبعل» إنما كان يشمل فقط الجزء الأكبر من القبائل فحسب (2).

وفي نفس الوقت كانت يهوذا قد مسحت داود ملكا على بيت يهوذا في

ص: 56

---

1- . . p. tic- po. . 1965. . III. HAC 426. p، 1963. . H 359. R. H 359. p، 1963. . III. HAC 426. p، 1965. . . p. tic- po. . -1

177- 180. M htoN. و كذا

2- . 181- 184. M htoN. p. tic- po. . -2

حبرون (مدينة الخليل) أو ممرا (1)، وليس هناك من شك في أن شخصية داود نفسه كان لها دور كبير في إغراء القبائل الجنوبية لاتخاذ هذه الخطوة، فقد كان لتأثيره الشخصي أثر كبير، ما في ذلك ريب، كما أنه كحامل لدرع طالوت قد جعل منه شخصا محبوبا لكل من حوله، و هو بالنسبة للقبائل الجنوبية رجل من دائرتهم، وقد برهن بنفسه، بعد انفصاله عن طالوت، أنه بالتأكيد رجل من القبائل الجنوبية، وإن كان النظام الملكي قد انتهى سريعا، فإن طالوت هو الملام لفشله، وقد ساهم المركز الخاص والثابت للقبائل الجنوبية بدور أساسي في الموقف دون شك، وقد استغل داود هذا الموقف لصالحه، كما كانت شخصية داود وعلاقاته وحاشيته الحربية، هي الأساس في تنصيبه ملكا على كل بيت يهودا، هذا فضلا عن أن رجال الدين كانوا موالين له، كما أن اختيار النبي صموئيل له من قبل، قد لاقى قبولا حسنا من غالبية القوم (2).

و أما الفلسطينيين، أعداء بني إسرائيل، فكانوا يرقبون الموقف عن كثب، وكان يهمهم في الدرجة الأولى أن تظل فلسطين تحت سيادتهم تماما، وربما رأوا في قيام مملكتين إسرائيليتين منفصلتين مما يحقق أراضهم، بل ربما كان الفلسطينيون من وراء قيام هاتين المملكتين، الواحدة في حبرون، وعلى رأسها داود، والأخرى في الشمال، وعلى رأسها «إيشبعل» وربما كانت هذه المملكة الشمالية تحت السيادة الفلسطينية، وفي كل الحالات فإن الوضع الجديد كان في مصلحة الفلسطينيين الذين ما كانوا أبدا بكارهين أن يروا أعداءهم الإسرائيليين ضعافا عن طريق الانقسام الداخلي (3).

ص: 57

1- صموئيل ثان 4/2.

2- , 1965 . p. 427. R. H. HAC, III. egdirbmaC, و كذا. M 183- 182. N. M 183- 182. p, tic- po, htoN.

3- , 1970 . p. 240. M. K 240. noyneK. aidedpolcycnE hsiweJ ehT 452. كذا. .dnoL, dnaL yloH eht ni ygoloeahcrA, 1903 .p.

و الذي يقضي بالتأكيد على تحالف القبائل الاثني عشر، كوحدة سياسية وحرية، خاصة و أن داود، و من ورائه القبائل الجنوبية كانوا يعملون على استمرار هذا التحالف، و من هنا فقد سكت الفلسطينيون مؤقتاً على ما يجري من أحداث، لأنهم لم يجدوا سبباً لمساعدة طرف على آخر، كما كانوا قانعين بترك مواليهم من بني إسرائيل يحطم بعضهم البعض الآخر (1).

### 3- داود و توحيد إسرائيل:

كان طموح داود أعظم و أكبر من أن تكفيه منطقة ضئيلة في أقصى جنوب فلسطين، كالتي اعترفت بسلطانه، فبدأ يرنو بناظرية إلى الشمال، الذي استقل تحت حكم إيشبعل الضعيف، و كان الصدام بين الحزبين المتنافسين أمراً لا مفر منه، و هكذا بدأ داود يعد عدته سياسياً و عسكرياً لاستعادة وحدة إسرائيل، و من ثم فإنه لا يكتفي بعلاقاته الودية مع القبائل الجنوبية، و لكنه يمدّها إلى شرق الأردن، و من ثم فقد تزوج من ابنة ملك «جشور» الآرامي، لأن مملكته كانت مجاورة ليايش جلعاد، حيث لجأ إيشبعل و تحصن هناك، كما أنه دخل في حلف مع ملك عمون، ليطبق كماشته على إيشبعل، و نقرأ في التوراة أن داود بدأ يتفاوض مع رجال عدوه و يدفعهم إلى الانضمام إليه، و قد أجابه كثيرون، و هكذا أصبح الموقف العام في يهوذا ضد إسرائيل، بل و بدأت يهوذا تستغل مشاكل إسرائيل لمصلحتها (2).

ثم سرعان ما لبثت يهوذا و إسرائيل، تحت حكم داود و إيشبعل، أن

ص: 58

1- . P. tic- pO, llaH. R. H 427. و كذا. . p, tic- pO, htoN. M 183 .

2- صموئيل ثان 8/2، محمد بيومي مهران: إسرائيل 706/2-710، إسماعيل راجي الفاروقي: أصول الصهيونية في الدين اليهودي- القاهرة 1964 ص 44-45، و كذا، 1931. p، 373. A. S 373. II, HAC, kooC.

غزوتنا في اشتباكات عسكرية في منطقة الحدود، وعند ما قرر «جبنير» قائد جيش إيشبعل، غزو مملكة داود الصغيرة، وضمها لمملكة إسرائيل، فقد هزم في «جبعون» على يد «يوآب» قائد جيش داود (1)، وقد كشفت البعثات الأمريكية عام 1956 م أسوار مدينة «جبعون» (7 أميال شمالي القدس)، كما اكتشفت كذلك مشهد المعركة الدموية في تلك الأيام الخوالي من بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وطبقا لرواية التوراة، فلقد حدث قتال عنيف في هذه البقعة يدا بيد بين أعوان المتنافسين (2)، وسرعان ما قتل إيشبعل، وخلص حكم بني إسرائيل لداود وحده، ودانت له الأسباط جميعا (3) وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك، إلى حبرون، فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب، ومسحوا داود ملكا على إسرائيل، وكان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا (4)، وقد أشرنا من قبل إلى الآراء المختلفة التي دارت حول تحديد الفترة التي حكم فيها داود عليه السلام، وارتضينا أن نأخذ بما ذهب إليه «وليم أولبرايت» من أنها في الفترة (100-960 ق. م) (5).

#### 4- داود و الفلسطينيين:

لم يتقبل الفلسطينيون عن رضى اتحاد قوى اليهودية وإسرائيل في دولة

ص: 59

1- .P, tic-pO, relleK. W 188 .

2- صموئيل ثان 13/2-32، و كذا، tic-p. . p. 1957. 21. . p. 1956، 19، BMU. 26-3، AB, drahtirP. B. J 75-62. p،

relleK. W 188 .pO, و كذا

3- صموئيل ثان 13/2-12/4، و كذا. aideapolcycnE hsiweJ ehT 461. p. 4، و كذا، p, tic-po, htoN. M 186

4- صموئيل ثان 3/5.

5- .p. tic-pO. thgirellA. F. W 122-120 .

واحدة، تحت زعامة داود، البطل الجديد، و من ثم فقد بدءوا يفكرون في مقاومة هذه الوحدة، التي كانت، دونما ريب، تمثل تهديدا خطيرا لسيطرتهم على فلسطين (1)، و نقرأ في التوراة «و سماع الفلسطينيين أنهم مسحوا داود ملكا على إسرائيل، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود، و احتلوا وادي الرفائين» (2) (وادي البقاع جنوب غربي القدس على الأرجح) ذلك لأن منطقة القدس هي التي تفصل المناطق التي تحتلها إسرائيل عن تلك التي تحتلها يهوذا، و بهذا قطعوا اتصال داود بالأسباط الشماليين أو على الأقبل عملوا على منع تجميع جيوش المملكتين.

و شرع داود يستعد بفرقته من الجنود المحترفين، و ربما قام بهجوم مفاجئ قرب وادي جبعون، نجح فيه في قهر الفلسطينيين تماما، و هزيمتهم باستخدام أسلوبهم الحربي، فلم يواجههم، كما فعل طالوت، بالجانب الأكبر من قواته، و إنما بفرقة من المحترفين التي ربما كانت قد عززت و تطورت أثناء حكم داود في يهوذا (3)، و كان لديهم الفهم المحترف لفن «.

ص: 60

1- .. M 187 .p. tic- po, htoN.

2- صموئيل ثان 17/5-18.

3- كان جيش إسرائيل على أيام داود يتكون من عنصرين هما: (1) السبا (abaS) أي أفراد الحرس الملكي، و هم جماعة من رجال القبائل الأقوياء يستدعون بصوت النفير، و برفع الأعلام أو إشعال النار على التلال، و هي قوات بدون زي موحد كان تجميعها و وضعها تحت السلاح يعتمد على الإرادة الفردية الجيدة، و كان داود يستخدمهم ضد الشعوب المجاورة في شرق الأردن، و كانوا يحملون مع التابوت إلى أرض المعركة، و من الواضح أن داود كان ينظر إلى التابوت بأهمية كبيرة، فهو إلى جانب قيمته الدينية، إنما كان يمثل تحالف القبائل الإسرائيلية جميعا. (2) الجبوريم (mirobbiG) و هي القوات الدائمة و قد تكونت نواتها الأولى من ستمائة مقاتل كانوا قد تجمعوا حول داود عند ما هرب عن طالوت، و كانوا يسمعون «رجال داود الأقوياء» و إن لم يكونوا جميعا من بني إسرائيل، بل إن معظمهم من شعوب أجنبية (و منهم أوريا الحشي) و كانوا ينتمون إلى داود شخصا، و ليس إلى القبائل الإسرائيلية، و كانوا سلاحه في خطواته الأولى نحو عرش إسرائيل، و قد أحرز بهم انتصارات هامة، كانتصاره على الفلسطينيين و كاحتلاله «دولة المدينة أورشليم».

الحرب، وهكذا هزم داود الفلسطينيين بهذا الجهاز السريع الحركة، وبمهارته المتقطعة النظير (1)، ولكن سرعان ما قام الفلسطينيون بمحاولة ثانية، بعد أن قدّروا، نتيجة للجولة السابقة، القوة والمهارة الحربية لداود، ولم يعدوا كل قوتهم لمواجهته، ومن ثم فسرعان ما ظهروا في وادي رفائيم، وهزمهم داود مرة أخرى في مكان تصفه التوراة بأنه «مقابل أشجار البكا» (2)، وربما أطبق داود بقواتهم عليهم من الشمال، من جانب دولة إسرائيل، فجأة، كحدث من قبل، وعلى أية حال، فطبقا لرواية التوراة، فلقد قام داود «بضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر» وإن ذهبت رواية أخرى إلى أنه ضربهم» من جبعون إلى جازر، مقتفيا أثرهم حتى حدود بلادهم (3).

وهكذا كتب لداود النصر المبين على أقوى أعدائه، وأكثرهم أهمية، كما كتب له نجما بعيد المدى في طردهم من المناطق الإسرائيلية بل إننا لنسمع عن حرب دقت طبولها عند «جت»، إحدى المدن الخمسة الرئيسية في الاتحاد الفلسطيني، بل وقد أصبحت مدينة «جت» فيما بعد مدينة إسرائيلية تحت حكم داود (4).

غير أن تلك الانتصارات التي حققها داود ضد الفلسطينيين، كما جاءت في التوراة، لم تجعل الفلسطينيين تابعين لداود سياسيا، صحيح أنها أجبرتهم على الاعتراف بسيادة داود على الجزء الأكبر من فلسطين، ولكنه صحيح كذلك أنهم بقوا في إقليمهم الصغير على ساحل البحر المتوسط، القوة

ص: 61

---

1- .. 187- 188 M. N. H. O. P. T. I. C.

2- صموئيل ثان 23/5.

3- صموئيل ثان 25/5، أخبار أيام أول 16/14، وكذا: 188- 189 M. N. H. O. P. T. I. C.

4- .. 360 L. A. S. D. O. P. T. I. C.

الوحيدة التي لم يقدر لداود أن يخضعها، ولعل السبب في ذلك فيما يرى بعض الباحثين، أن مصر، رغم أنها كانت تمر بفترة ضعف في تلك الآونة، قد أعطت الفلسطينيين من تأييدها، ما يمنع داود من ضمهم إلى نفوذه، بل إن السهل الساحلي الفلسطيني لم يصبح أبدا جزءا من الأملاك الإسرائيلية، هذا فضلا عن أن الفلسطينيين سرعان ما يظهرون مرة أخرى كجماعة مستقلة في القرن الثامن و السابع قبل الميلاد (1).

## 5- داود و مؤاب و عمون و آرام و أدوم:

كانت مؤاب أول قوة، من أعداء إسرائيل القدامى، هوجمت و هزمت و أصبحت ولاية تابعة لداود عليه السلام، و طبقا لرواية التوراة، فلقد «أصبح المؤابيون عبيدا لداود يقدمون هدايا»، و إن استمر النظام الملكي فيها قائما كما كان من قبل، مع الاعتراف بالتبعية لداود عليه السلام (2).

و كانت عمون هي القوة التالية التي ضربها داود، و لعل السبب المباشر للصدام بين داود و بنحمون إنما هو إساءة العمونيين لرسول داود الذين كانوا في مهمة ودية بمناسبة تغيير السلطة في عمون، حيث قام «حانون» ملك عمون الجديد «فأخذ عبيد داود و حلق أنصاف لحاهم و قص ثيابهم من الوسط إلى أستاذهم، ثم أطلقهم» (3)، و من ثم فقد أدرك العمونيون، بعد فعلتهم هذه، أن الحرب مع بني إسرائيل أصبحت أمرا لا مفر منه، و من هنا فقد بدءوا يطلبون معونة جيرانهم الآراميين في «أرام بيت رحوب» و آرام «صوبة» و في معكة و طوب (4)، و أتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال و المعدات لمساعدة

ص: 62

1- صموئيل ثان 17/5-25 و كذا. p, tic- pO, noyneK. M. K 244. و كذا. p, tic- pO, htoN. M 194.

2- صموئيل ثان 2/8، و كذا. p, tic- pO, htoN. M 194. و كذا. p, tic- pO, llaH. R. H 430.

3- صموئيل ثان 1/10-5.

4- انظر عن هذه الولايات الآرامية في شرق الأردن (محمد بيومي مهران: إسرائيل 539/2-542).

العمونيين ضد الهجوم الإسرائيلي المرتقب، وقد نجحت قوات داود بقيادة «يؤاب» في هزيمة هؤلاء الآراميين، ثم «رجع يؤاب عن بني عمون وأتى إلى أورشليم» (1).

و يعلم «هدد عزره ملك صوبة بذلك، فيستدعي «أرام الذي في عبر النهر» إلى «حيلام» (ربما كانت عليم أو علمه في سهل حوران) و يتقدم قائده «شوبك» لملاقاة بني إسرائيل، و ينجح داود، الذي كان على رأس جيشه هذه المرة، في إحراز النصر، و في العام التالي يأمر داود قائده «يؤاب» بالاتجاه نحو عمون، و سرعان ما يحاصر يؤاب «ربة» (ربه عمون) (2)، غير أنه لا يستطيع إخضاعها، و من ثم يطلب نجدة من داود، الذي يسرع لإنقاذ قائده بنفسه، فيستولي على قلعة المدينة، و يعاقب العمونيين بقسوة، و طبقا لرواية التوراة، فإن داود أمر بحرق المغلوبين، و سلخ جلودهم و وشرهم بالمنشار، بعد أن وضعهم تحت نوارج و فئوس من حديد (و بدهي أن ذلك من تحريفات التوراة، فما كان النبي الأواب يفعل ذلك أبدا)، ثم وضع التاج العموني، بما فيه من ذهب و أحجار كريمة، على رأسه، و بعبارة أخرى، فلقد أصبح داود ملكا على عمون (3).

ثم اتجه جيش داود بعد ذلك إلى أدوم، و طبقا لرواية التوراة، «فإن يؤاب و كل إسرائيل أقاموا في أدوم ستة أشهر، حتى أفنوا كل ذكر في أدوم»، و هكذا هزمت قوات إسرائيل أدوم، و قتل «حداد الثاني»، و هو الملك الثامن

ص: 63

---

1- صموئيل ثان 6/1-14 و كذا، 1965، p. 195، M. htoN، ehT، yrotsiH fo learsI، nodnoL.

2- ربة أوربة عمون: هي عاصمة العمونيين، و قد سميت في العصر الإغريقي «فيلادلفيا، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلادلفيوس» (284-246 ق. م)، و هي في موقع تشغله حاليا عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية «عمان» حيث يوجد في اسمها جزء من اسم العموريتين (محمد بيومي مهران) إسرائيل 2/557).

3- صموئيل ثان 12/26-31، و كذا، 195، M. htoN، tic-p، p.



من سلسلة ملوك أدوم، ولكن ولده «هدد»، والذي ربما كانت أمه مصرية، قد استطاع الهروب إلى مصر، حيث تزوج هناك من أميرة مصرية «أخت تخفيس الملكة»، وعاش ضيفا على فرعون إلى أن مات داود عليه السلام، حيث بدأ الأمل يعاوده في استعادة حقه الشرعي في عرش أدوم (1).

وقد نجح داود إلى حد بعيد في تنظيم أدوم، كولاية تحت إمرته، ورغم أنها كانت بعيدة نسبيا عن دولته، إلا أنها كانت مهمة بالنسبة إليه، فهي تمكنه من الوصول إلى خليج العقبة، ومن ثم إلى البحر الأحمر، هذا فضلا عن أنها كانت تحتوي على كثير من الرواسب المعدنية على حدود وادي العربية، ومن هنا كانت أدوم ذات أهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة إلى داود، ذلك لأن الصحراء العربية والتي تمتد من نهاية جنوب البحر الميت وحتى خليج العقبة إنما كانت غنية بمعدني النحاس والحديد، وقد استغل داود ذلك أفضل استغلال، «وهيأ داود حديدا كثيرا للمسامير لمصاريح الأبواب والوصل، ونحاسا كثيرا بلا وزن» (2).

## 6- دولة داود ومدى اتساعها:

لا ريب في أن داود عليه السلام قد كتب له نجاحا بعيد المدى في أن يخلص قومه الإسرائيليين من النير الفلسطيني، وفي أن يحقق لهم الاستقلال التام، بل وأن يوجد لنفسه نفوذا في مؤاب وأدوم وعمون، وفي أن تقدم له الهدايا- وليس الجزية- من أرامي دمشق، وفي أن يقيم علاقات المودة مع «توعي» ملك حماة، ضد عدوهما المشترك «هدد عزر» ملك الآراميين في صوبة، ومع ذلك فعلينا ألا نبالغ كثيرا في تقدير سعة مملكة داود عليه

ص: 64

1- صموئيل ثان 13/8، ملوك أول 14/11 - 22، وكذا، p, tic- pO, llaH. R. H 431. nodnoL, learsI dna tpygE, eirteP. F. M. W 65. p, 1925.

2- أخبار أيام أول 4/22، وكذا. p, tic- pO, htoN. M 196. وكذا. p, tic- pO, relleK. W 188.

السلام، فنطلق عليها وصف «إمبراطورية»، كما أراد أن يصفها بعض المؤرخين المحدثين (1)، أو نبالغ في حدودها كما فعل بعض الكتاب المصريين المحدثين، فجعلها تمتد من نهر الفرات إلى البحر المتوسط، و من دمشق إلى الخليج العربي (2)، بل إن هناك من زعم، دونما أي دليل، أن داود و سليمان عليهما السلام قد أقاما دولة تشمل الشام كله، و الجزيرة العربية كلها (3)، الأمر الذي يدعونا إلى مناقشته بشيء من التفصيل عند الحديث عن دولة سليمان عليه السلام.

و على أية حال، فربما كان تحديد الدكتور الحاخام «أبشتين» أقل مبالغة من غيره، فقد ذهب إلى أن دولة داود كانت تمتد من فينيقيا (لبنان) في الغرب، إلى حدود الصحراء العربية في الشرق، و من نهر العاص (الأورنت) في الشمال إلى خليج العقبة في الجنوب (4)، و أما التوراة فقد ذهبت إلى أن مملكة إسرائيل كانت في أقصى اتساع لها «من دان إلى بئر سبع» (5)، و من ثم فالتوراة التي اشتهرت بمبالغاتها فيما يتصل بمملكة إسرائيل، إنما تحدد لها من الشمال مدينة «دان» و تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي حيث منابع الأردن على مبعدة ثلاثة أميال غربي بانياس (6)، و من الجنوب «بئر سبع» الحالية، و لم تشر التوراة إلى حدود لإسرائيل من الغرب أو الشرق، هذا أو قد ذهب المسعودي إلى أن ملك داود

ص: 65

---

1- , 1975 . p. 583. O 583. egdirbmaC, 2, traP, II, HAC ni, modgniK werbeH ehT, tdlefssiE.

2- علي إمام عطية: الصهيونية العالمية و أرض الميعاد ص 63.

3- جمال عبد الهادي و وفاء رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام و بيت المقدس - الرياض 1986 ص 255-256، 259، 270.

4- , 1970 . p. 35. msiaduJ, nietspE, I

5- قضاة 1/20، صموئيل أول 20/3، صموئيل ثان 15/24 أخبار أيام أول 2/21، و كذا. F. M 236. p, tic- pO, regnU.

6- قاموس الكتاب المقدس 356/1-357.

إنما كان على فلسطين و الأردن، كما جاء في مروج الذهب (70/1).

ولعل من الجدير بالإشارة أن فينيقيا كانت- وخاصة على أيام «حيرام» (980-936 ق. م) الذي عاصر داود وسليمان و كان ذا نشاط كبير في الاقتصاد و الفن و العمارة في إسرائيل- دولة مستقلة، و ليست هناك أية إشارة في التوراة أو الوثائق التاريخية إلى أن حيرام كان خاضعا لداود، كما أن هناك ما يشير إلى محاولة داود توطيد علاقاته بحماة من أقصى الشمال، فضلا عن الفلسطينيين في الغرب، و أن السيطرة الإسرائيلية على أيام داود لم تكتمل بالاستيلاء على كل فلسطين، و حتى الجزية، فيما يبدو، لم تكن ترسل إلى القدس، أضف إلى ذلك أن الفلسطينيين الجنوبيين قد وضعوا أنفسهم، راغبين لا مكرهين، تحت حماية فراعين مصر الشماليين في تانيس، و الذين كانوا يتبعون سياسة نشطة في فلسطين في تلك الأيام، حتى إن «شيشنق، مؤسس الأسرة الثانية و العشرين، عند ما غزا يهوذا بعد موت سليمان عليه السلام، لم يذكر المدن الفلسطينية، مما يدل على أنها كانت تحت الحكم المصري من قبل» (1).

و من ثم يذهب «هربرت ويلز» إلى أن أرض الميعاد (المزعومة) لم تقع يوما- و لن تقع، في قبضة العبرانيين، هذا فضلا عن أن ما وطد ملك داود، و هيا له شيئا من الاتساع، أن أمور مصر كانت في عهده مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين و بلاد الشام، و كانت أمور آشور مرتبكة كذلك، و قد منح هذا كله لداود عليه السلام شيئا من الحرية و النشاط و ممارسة السيادة (2).

ص: 66

1- ج. كونتو: الحضارة الفينيقية- ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ص 71، و كذا. p, tic- pO, llaH. R. H 431.

2- , 1965 p. 279. G. H 279. p. 1965, yrotsiH fo eniltuo eht, slleW. G. H 279. p. 1965, nodnoL.

وأيا ما كان الأمر، فإن حكم داود- وكذا سليمان، عليهما السلام، إنما يمثل فترة الرخاء الوحيدة التي قدّر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مرّ الدهور، وهي تقوم على مخالفة وثيقة الأواصر مع مدينة «صور» الفينيقية التي يلوح أن ملكها «حيرام» كان رجلا قد أوتي نصيبا كبيرا من الذكاء والقدرة على المغامرة، وكان ينبغي أن يكفل للتجار في البحر الأحمر طريقا آمنا عبر منطقة التلال العبرانية، وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر، بيد أن مصر كانت في تلك الفترة تمر بحالة من الفوضى، هذا وقد أنشأ حيرام أوثق العلاقات مع داود و سليمان عليهما السلام، وقد أنشئت بمساعدة حيرام أسوار أورشليم وقصرها ومعبدتها، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيّرها فيه، وأخذ سيل جسيم من التجارة يتدفق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب (1)، بخاصة وأن داود عليه السلام قد سيطر تماما على طرق لقوافل القادمة من بلاد العرب الجنوبية والتي كانت تمر في مملكته عند النهاية الشمالية لخليج العقبة على الجانب الشرقي لوادي عربة، وحتى غوطة دمشق، ثم ترتبط بالطرق المؤدية إلى شمال سورية فآسيا الصغرى، وتلك التي كانت تمر بالصحراء الغربية إلى «ميزوباتاميا»، مما كان له أكبر الأثر في حالة دولة داود الاقتصادية، بل إن هناك من يذهب إلى أن حروب داود إنما كانت لهذا الغرض، على الرغم من أن المصادر المتبقية من عهده لا تعطي أهمية لذلك (2)، وهذا ما نرفضه تماما، ذلك أن داود، وإن كان ملك اليهود القديم، فهو قبل ذلك وبعده نبي الله ورسوله، وما كان الأنبياء أبدا يحاربون من أجل أسباب اقتصادية، وإنما كانت حروبهم كلها جهادا في سبيل الله ونشر كلمة «لا إله إلا الله».

ص: 67

1- G. H 76 . dlroW eht fo yrotsiH trohsA, slleW .p,

2- O 583 . pO, tic- pO, tdlfssiE .p,

لم تكن هناك قاعدة عامة قد وضعت بعد لخلافة العرش في دولة إسرائيل الجديدة، ولكن مما لا شك فيه أن الابن الأكبر كان صاحب الحق في ذلك، إلا أن مكانة الأم ورغبة الملك واختيار الشعب و الموافقات الدينية قد تكون سببا في اختيار أحد أخوته الصغار (1).

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه ربما كانت فكرة داود عليه السلام عند ما طلب «ميكال» ابنة طالوت (شاؤل) لتكون زوجة له، إنما كان ينبغي من وراء ذلك أن الابن الأكبر من هذا الزواج، تكون له الأفضلية على بقية إخوته من علات ميكال، وربما يستطيع هذا الابن المرتقب أن يجذب إليه عواطف هؤلاء الذين كانوا يؤيدون بيت شاؤل، بصفته حفيدا لشاؤل، ولكن «لم يكن لميكال بنت شاؤل ولد إلى يوم موتها» (2)، وهكذا ضاع الأمل في أن يكون خليفته داود هو في نفس الوقت حفيد شاؤل (طالوت)، وأما بالنسبة لبقية أبناء داود فطبقا للقانون الإسرائيلي - كما قررتة التوراة في سفر التثنية (3)، فإن للابن الأكبر نصيب الأسد في ميراث أبيه، بصرف النظر عن مكانة الأم بين علاتها من زوجات الأب، ومن هنا كان من الطبيعي أن يخلف داود على عرش إسرائيل أكبر ولده، ولكن هنا في حالة داود عليه السلام، مؤسس الملكية و البيت المالک، فإن الابن الأكبر، الذي ولد بعد اعتلائه العرش مباشرة، ربما كانت له أفضلية خاصة، ولكن أبناء داود أنفسهم ما كانوا

ص: 68

1- . A 364 . p, tic- pO, sdoL.

2- صموئيل ثان 6/23.

3- تثنية 5/17-21، وانظر عن «البكورية» عند بني إسرائيل (تكوين 31/25، تثنية 17/21، خروج 29/22، قاموس الكتاب المقدس 187/1، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/189-192).

يعيرون المظهر الأخير أية أهمية خاصة، وإنما كانوا يعتبرون أنفسهم جميعا خلفاء محتملين للعرش، طبقا لترتيب أعمارهم (1).

وهناك في التوراة قائمة بستة أبناء ولدوا في حبرون، أثناء فترة ملكية داود على يهوذا وهم «وكان بكره أمنون من أخينوعم اليزرعيلية، وثانية كيلاب من أبيجايل، والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور، والرابع أدونيا بن جحيث، والخامس شفتيا بن أيطال، والسادس يثر عام من عجلة» (2)، ولكن نظرا لأن داود كانت له زوجتان، على الأقل، تعتبران أقدم من الأخريات (أخينوعم وأبيحايل)، وطبقا لرواية التوراة في صموئيل الأول (43-42/25) فربما كان البعض من هؤلاء الأبناء أكبر قليلا من الآخرين، وأن القائمة السابقة كانت إضافة لإحصاء أبناء داود الذين ولدوا في أورشليم (3)، وهم طبقا لرواية صموئيل الثاني (16-13/5): شموع و شوباب و ناثن و سليمان و بيجار و اليسوع و نافج و يافيع و البشمع و البداع و اليفلطا).

هذا و يوصف «أمنون» صراحة في سفر صموئيل الثاني (2/3) بأنه ابن داود البكر، و من ثم فقد اعتبر نفسه، كما اعتبره إخوته كذلك، وليا للعهد أو الملك القادم، غير أنه لم يكن حكيما بما فيه الكفاية، كما لم يكن كريما و لا عفيفا، و طبقا لرواية التوراة في صموئيل الثاني (إصحاح 13-14) فقد اعتدى على أخته غير الشقيقة، مما دفع أبشالوم إلى أن يثأر لعرض شقيقته «تامار» فيقتله، ثم هرب عند أخواله في جشور، و بقي هناك ثلاث سنوات (4)، و من ثم فقد أصبح كيلاب الابن الثاني لداود وليا للعهد، و لكنه).

ص: 69

1- . M 200 . p, tic- pO, htoN.

2- صموئيل ثان 2/3-5.

3- . M 200 . p, tic- pO, htoN.

4- انظر عن قصة أمنون و أخته تامار (صموئيل ثان 1/13-39، محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/211-213).

سرعان ما يختفي لسبب لا ندره على وجه اليقين، و من ثم فقد أصبح أبشالوم الابن الثالث لداود وليا للعهد، ولكنه بدوره سرعان ما يختفي في ثورة دامية، كما سنرى، و من ثم تصبح ولاية العهد من حق الابن الرابع «أدونيا»، ولكنه لم يصل إلى العرش أبدا، حيث سيكون ذلك من نصيب سليمان، الابن العاشر كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

## 8- ثورة أبشالوم:

بدأ أبشالوم يعدّ العدة لاعتلاء عرش أبيه، و كان أول ما فعله أن حصل - بمساعدة يواب - على عفو أبيه المطلق عن جريمته بقتل أخيه أمنون، و من ثم فقد عاد أبشالوم من جشور إلى أورشليم، و بدأ ييث الدعوة لنفسه بين المقربين إليه، ثم سرعان ما نجح في اكتساب عطف و تأييد القبائل الإسرائيلية و خاصة يهوذا قبيلة أبيه، و حين استوثق من النجاح ذهب إلى حبرون بإذن من أبيه، بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره إبان إقامته في «جشور»، و هناك في حبرون أعلن عصيانه و نادى بنفسه ملكا على إسرائيل، و من أسف أن القوم سرعان ما انضموا إليه ضد داود، بل إن ثورة أبشالوم سرعان ما ضمت إليها «أخيتوفل» و هو واحد من مستشاري داود المقربين (1).

و تعلق بعض المصادر الإسلامية بسرعة استجابة اليهود لأبشالوم، بأن قصة امرأة أوريا الحثي كانت سببا في إزالة طاعة داود عن بني إسرائيل و استخفوا بأمره و وثب عليه ابن يقال له «إيشا» و أمه ابنة طالوت، فدعى إلى نفسه، فكثرت أتباعه من أهل الزيبغ من بني إسرائيل، فلما تاب الله على داود اجتمع إليه طائفة من الناس، فحارب ابنه حتى هزمه، و وجه إليه بعض قواده

ص: 70

---

1- صموئيل ثان 29/13، 1/14 - 3، 7/15 - 10، ماير: حياة داود ص 362 (مترجم)، و انظر: تاريخ اليعقوبي 1/ 53.

و أمره بالرفق به و التلطف لعله يأسره و لا يقتله، و طلبه القائد و هو منهزم فاضطره إلى شجرة فقتله، فحزن عليه داود حزنا شديدا و تنكر لذلك القائد (1).

و يذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن القبائل الإسرائيلية ربما كانت غير راضية عن اتساع أملاك داود التي بدأت تمتد إلى ما وراء مناطقها، ذلك لأن ضم إسرائيل لعديد من المدن المستقلة ذات المستوى الحضاري المتقدم، و التي تمتلك صناعات هامة، فضلا عن سيطرتها على أراض كبيرة و غنية تمر خلالها طرق القوافل، كل ذلك أدى إلى رخاء مفاجئ في إسرائيل، تمتعت به طبقة خاصة صغيرة من رجال البلاط و كبار الموظفين و قادة الجيش و التجار، بينما لا يتمتع العامة من القوم ممن كانوا يعملون جنودا عاديين في الجيش بمثل هذا الرخاء، مما جعلهم غير راضين عن الوضع الجديد المفاجئ و يتقبلون دعاوي أبشالوم ضد أبيه (2)، أضف إلى ذلك، فيما يرى البعض، التوتر القائم بين يهوذا و إسرائيل، و الذي ظل قائما أبدا، و رغم أنه لم يكن السبب الرئيسي للثورة، إلا أنه لعب دورا هاما فيها، بخاصة و أن يهوذا حيث قامت الثورة في حبرون، بدأت تحس أن داود بدأ يفضل إسرائيل عليها (3)، و أخيرا فلعل من أسباب الثورة ذلك الاتجاه العدائي من القبائل الإسرائيلية، التي اعتادت النظام القبلي، ضد سياسة المركزية التي بدأت تسير عليها مملكة داود (4).

و مع ذلك فإن أسباب ثورة أبشالوم ما زالت تنتظر مزيدا من الوضوح،

ص: 71

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/ 127، و انظر: تاريخ الطبري 1/ 484.

2- .A . tIA . S eiD gnudiulnetaatS ni nitilearsI red ,anitsalaP ,nehc .ruM , F 1 585- 586 O . dlefssiE . p, tic- pO . 1953، p. 56.

3- . 586 . tdlfssiE pO, tic- p.

4- . W 158 . thgirblA . ygoloeahcrA dna noigileR fo learsI .p,



ذلك لأن حركة السخط التي قام بها «شبع بن بكري» من سبط بنيامين (1) (سبط طالوت) ضد داود، بعد انتصاره على ولده أبشالوم، إنما قد استمدت قوتها من المعارضة الدائمة بين قبائل الشمال والجنوب، ورغم أن داود عليه السلام قد كتب له نجاحا بعيد المدى في القضاء على كليهما، وأن القضاء على ثورة شبع كان أسرع من القضاء على ثورة أبشالوم، فالذي لا شك فيه أن الأمور في إسرائيل ربما كانت سوف تتغير كثيرا بسبب هاتين الثورتين، لولا وجود شخصية داود القوية (2)، ذلك لأن التنافس بين قبائل الشمال والجنوب كان أقوى عوامل هدم مملكة إسرائيل، وهو تنافس لم يقض عليه أبدا، بل هو نفسه الذي قضى على الدولة (3).

وأيما كان الأمر، فإن ثورة أبشالوم إنما كانت جد خطيرة، حتى إن داود عليه السلام لم يجد بجواره غير حرسه الخاص و حتى اضطر إلى أن يعبر الأردن إلى «مخانيم» تحت حماية التابوت مع رجاله، حتى لا يفاجأ بأبشالوم وأتباعه في العاصمة أورشليم (4)، بل إن بعض المصادر العربية جعلته يلحق بأطراف الشام، بل إن الخيال ذهب بهم إلى أن يصلوا به إلى خيبر و ما إليها من بلاد الحجاز (5)، بينما ذهب آخرون إلى أن داود هرب ماشيا على رجليه حتى صعد عقبة طور سيناء، وبلغ منه الجوع حتى لحقه رجل معه خبز و زيت فأكل منه، و دخل أبشالوم مدينة أبيه، و صار إلى داره و أخذ سراري أبيه فوطأهن و قال: ملكني الله على بني إسرائيل، و خرج معه اثنا عشر ألفا فطلب داود ليقتله، فهرب داود حتى جاز نهر الأردن (6)، و هكذا يبدو واضحا مدى).

ص: 72

- 1- صموئيل ثان 20 / 1-22.
- 2- .p, tic- pO, tdlefssiE. O 586 .
- 3- سبتينو موسكاتي: المرجع السابق ص 141.
- 4- صموئيل 14/16-14115.
- 5- تاريخ ابن خلدون 111 / 2 (بيروت 1981).
- 6- تاريخ يعقوبي 53 / 1 (بيروت 1980).

اضطراب الروايات في تحديد المكان الذي لجأ إليه داود عليه السلام، فهو في رواية لجأ إلى محانيم في عبر الأردن، و هو في رواية ثانية إنما يلجأ إلى خيبر في شمال غرب الجزيرة العربية، و في رواية ثالثة صعد إلى عقبة طور سيناء، بل إن نفس الرواية سرعان ما تعكس الاتجاه و تذهب به إلى الشرق، فتعبر به الأردن، و بدهي أن اضطراب هذه الروايات إنما يقلل من قيمتها التاريخية، و يجعلها في مظان الشك و هواتف الريبة، فضلاً عن الشك في القصة من أساس، و هذا ما نميل إليه و نرجحه.

و على أية حال، فإن أبشالوم، طبقاً لرواية التوراة، قد استطاع أن يستولى على أورشليم، و أن يغتصب عرش أبيه بل إنه حتى لم يتورع عن أن ينتهك عرض أبيه بمشورة أختوفل على مرأى من الناس «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، و دخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل» (1)، غير أن بني إسرائيل بدءوا بعد ذلك يعودون إلى داود و الانضمام إلى جيشه تدريجياً، ربما نتيجة لما بذله بعض المخلصين له من جبرون، و ربما نتيجة لغرور أبشالوم و أخطائه الكثيرة، و إصغائه للحمقى من المقربين إليه، و ما ترك ذلك من آثار سيئة في نفوس الناس.

و أياً ما كان السبب، فإن أبشالوم قد حاول بكل ما وسعته المحاولة من أن يمنع عودة أبيه إلى أورشليم، و من ثم فقد جمع أنصاره قبل تفاقم الأمر، و زحف بهم إلى شرق الأردن، حيث كان أبوه في جلعاد، و قد اجتمع إليه عدد كبير من الأنصار، و هكذا بدأ القتال في «وعر أفرام» قرب محانيم على الأرجح، و أثبت رجال داود أنهم أعلى كعباً من رجال القبائل الإسرائيلية الذين التفوا حول أبشالوم، و دارت الدائرة على أبشالوم الذي أمر الملك بعدم قتله، «و كانت هناك مقتلة عظيمة في ذلك اليوم، قتل عشرون ألفاً،

ص: 73

وكان القتال هناك منتشرًا على وجه كل الأرض، وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب على الذين أكلهم السيف في ذلك اليوم»، وقاتل أبشالوم أثناء هروبه، على الرغم من أوامر الملك الصريحة على ملأ من الشعب بعدم قتله، وكما يقول الطبري: وجه داود في طلبه قائدًا من قواده (يؤاب) وتقدم إليه أن يتوقى حتفه، ويتطلف لأسره، فطلبه القائد وهو منهزم، فاضطره إلى شجرة فركض فيها، وكان ذا جمّة، فتعلق بعض أغصان الشجرة بشعره فحبسه، ولحقه القائد فقتله مخالفاً لأمر داود، فحزن عليه داود حزناً شديداً، وتكرّر للقائد، وربما طبقاً لرواية التوراة أن رجلاً رأى أبشالوم معلقاً من رأسه في شجرة كبيرة ملتفة الأغصان فأخبر القائد يؤاب الذي أمره بقتل أبشالوم على أن يعطيه عشرة من الفضة و منطقة، لكن الرجل رفض أن يقتل ابن الملك، بعد أن سمع الملك يوصي بعدم قتله، ولو أعطاه ألفاً من الفضة، ومن ثم فقد تقدم يؤاب «وأخذ ثلاثة سهام بيده ونسبها في قلب أبشالوم، وهو بعد حي في قلب البطمة، وأحاط بها عشرة غلمان حاملوا سلاح يؤاب و ضربوا أبشالوم وأماتوه»، وقد أدى ذلك كله إلى حزن داود المرير على ولده، حتى «صعد إلى عليّة الباب وكان يبكي ويقول، وهو يتمشى، يا ابني يا أبشالوم يا ابني يا ابني أبشالوم، يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابني يا ابني»، وهكذا لم يعد أمام القبائل الإسرائيلية سوى المناداة بداود ملكاً عليها مرة ثانية (1).

## 9- التعداد العام و نتائج:

تروي التوراة أن رب إسرائيل غضب على شعبه إسرائيل «فأهاج عليهم داود قائلاً: امض واحص إسرائيل ويهوذا، فقال الملك ليؤاب رئيس الجيش الذي عنده: طف في جميع أسباط إسرائيل من دان إلى بئر سبع

ص: 74

---

1- صموئيل ثان 1/18 - 41/19، تاريخ الطبري 484/1، تاريخ ابن خلدون 111/1، تاريخ اليعقوبي 53/1، الكامل لابن الأثير 1/127.

وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب»، و يقوم يوأب بالمهمة التي تستغرق ستة أشهر وعشرين يوماً. «و كان إسرائيل ثمان مائة ألف بأس مستل السيف، ورجال يهوذا خمس مائة ألف رجل»، غير أن رب إسرائيل سرعان ما يرسل جاد النبي ليخبر داود بين «سبع سني جوع في أرضك، أم تهرب ثلاثة أشهر بين أعدائك، أم يكون ثلاثة أيام وباء في أرضك»، و يترك داود الخيرة لربه «الذي يجعل وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع، سبعون ألف رجل، و بسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الرب (1) عن الشر، و قال للملاك المهلك للشعب كفى، الآن رويدك» (2).

و من عجب أن التوراة لم تقدم لنا هنا سبباً مقنعاً لغضب يهوه على شعبه، و إن أشارت أن ذلك إنما كان بسبب خطايا داود، و من ثم فهو يقول، ملتسماً عفوره ورحمته بشعبه «ها أنا أخطأت، و أنا أذنبت، و أما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك على و على بيت أبي»، ثم تعود مرة أخرى فتروي نفس الرواية، و لكنها تقدم أرقاماً للإحصاء تختلف عن المرة الأولى «فإسرائيل كان ألف و مائة ألف رجل مستلى السيف، و يهوذا أربع مائة و سبعين ألف رجل مستلى السيف»، هذا بخلاف سبطي لاوي و بنيامين (3)، و التعارض هنا بين نصوص التوراة ليس أمراً جديداً علينا فنظائره كثيرة.

ص: 75

- 
- 1- من المؤلم أن توراة اليهود، و ليست توراة موسى، كثيراً ما تصور يهوه (الله) ليس معصوماً، و أنه كثيراً ما يقع في الخطأ ثم يندم على خطئه، حدث ذلك عند ما فكر في إهلاك اليهود عن بكرة أبيهم، مما اضطر موسى إلى أن ينصحه فينتصح، ثم هناك ندمه على اختيار شاول (طالبوت) ملكاً، غير أن أشنع أخطائه خلقه الإنسان، ثم ندم على ذلك (انظر: تكوين 6/6، خروج 14/12، 10/32، صموئيل أول 15/11، إرميا 7/18-10، عاموس 1/7-6، يونان 3/9-10، محمد بيومي مهران: إسرائيل 4/12-14).
  - 2- صموئيل ثان 1/24-17.
  - 3- أخبار أيام أول 5/21-6، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/738-740.

و على أي حال، فإن التوراة تجعل التعداد الذي قام به داود، بأمر من رب إسرائيل، سببا من البلايا التي أنزلها رب إسرائيل بإسرائيل، وإن كنا لا ندري لم يغضب رب إسرائيل من قيام ملك إسرائيل بهذا التعداد، الذي تقوم به شعوب كثيرة (1)، حتى يفرض عليه واحدة من بلايا ثلاثة: أقلها و بء يروح ضحيته سبعون ألف رجل، غير أن الإمام الطبري يروي عن «وهب بن منبه» أن سبب غضب الرب أن داود فعل ذلك دون أمر من ربه، فعتب الله عليه ذلك وقال: قد علمت أنني وعدت إبراهيم أن أبارك فيه وفي ذريته حتى أجعلهم كعدد نجوم السماء، و أجعلهم لا يحصى عددهم، فأردت أن تعلم عدد ما قلت، إنه لا يحصى عددهم، فاختاروا بين أن أبتليكم بالجوع ثلاث سنين أو أسلط عليكم العد ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام، فاستشار داود في ذلك بني إسرائيل فقالوا: ما لنا بالجوع ثلاث سنين صبورا، و لا بالعدو ثلاثة أشهر، فليس لهم بقية، فإذا كان لا بد فالموت بيده لا بيد غيره، فذكر و هب أنه مات منهم في ساعة من نهار ألوف كثيرة، لا يدري ما عددهم، فلما رأى داود ذلك شق عليه ما بلغه من كثرة الموت، فقتل إلى الله و دعاه فقال: يا رب أنا آكل الحماض (أي ما في جوف الأترجة) و بنو إسرائيل يضرسون، أنا طلبت ذلك فأمرت به بني إسرائيل، فما كان من شيء في، و اعف عن بني إسرائيل، فاستجاب الله لهم و رفع عنهم الموت» (2).

و الغريب في هذه الرواية أنها تناقض رواية التوراة في أمور، منها أن التعداد هنا كان بأمر داود، مع أن رواية التوراة صريحة في أن الذي أمر

ص: 76

1- لعل أول شعوب العالم التي قامت بعمل تعداد عام إنما هم المصريون، و قد قام به الملك «دن» (و ديمو) رابع ملوك الأسرة الأولى الفرعونية، و ذلك قبل عام 3000 ق. م، و لأول مرة في التاريخ، و بالمناسبة فإن آخر تعداد تم في مصر كان في نوفمبر عام 1986، و بلغ سكان مصر أكثر من 50 مليون.

2- تاريخ الطبري 485/1، و انظر تاريخ اليعقوبي 55/1-56، تاريخ ابن خلدون 111/1.

بالتعداد إنما هو رب داود، وليس داود، ومنها أن بني إسرائيل هنا هم الذين اختاروا الموت عقاباً لهم، وفي رواية التوراة أن داود ترك الخيرة لأمر ربه، فاختار لهم الموت، ومنها أن عدد القتلى هنا غير معروف وإن كان ألوفاً كثيرة، مع أنه في رواية التوراة قد حدد بسبعين ألفاً، ومنها أن داود اعتذر هنا بأنه يأكل الحمض وبنو إسرائيل يضرسون، وفي رواية التوراة اعتراف صريح «ها أنا أخطأت وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا» والأعجب أننا ما ندري لو هب بن منبه مصدراً في روايته هذه غير التوراة، ولم يقل لنا الإمام الطبري، أو هب بن منبه، عن مصدر آخر غير التوراة اعتمد عليه في روايته هذه، فما بالك والتوراة نفسها موضع شك كبير.

## 10- وفاة داود عليه السلام:

وتنتهي أيام داود، النبي الأواب، في هذه الدنيا، وينتقل عليه السلام إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه من ربه الكريم، «واضطجع داود مع آبائه ودفن في مدينة داود»، وفي الواقع فإن دفن النبي الأواب في مدينة أورشليم (1) (مدينة داود) لأمر غريب، ذلك لأن هناك عبارة طالما تكررت في التوراة، وهي أن فلاناً قد انضم إلى قومه» أو «انضم إلى آبائه» (2)، وربما لا تعدو أن تكون إشارة إلى عقيدة القوم في أن الموتى من أسرة ما، يجب أن يدفنوا في مكان واحد، ليقفوا كما كانوا على قيد الحياة (3)، ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يدفن داود في مقابر أسرته في «بيت لحم»، وهو الحريص على التقاليد، والتي يستطيع قارئ التوراة أن يقدم الكثير من الأدلة عليها، بل إن داود لينقل عظام شاؤل، وكذا ولديه، من يابيش

ص: 77

1- يذهب ابن خلدون في تاريخه (1/112) إلى أن داود دفن في بيت لحم.

2- تكوين 8/25، قضاة 1/2.

3- SENJ, nipieY. S 30. p, 1948, 7, -3.

جلعاد، ليدفنوا» في أرض بنيامين في صيلع في قبر قيس أبيه» (1)، و مع في ذلك فإن داود نفسه الذي كان مخلصا للعداات و التقاليد إلى هذا الحد، لم يدفن في مقبرة أسلافه في بيت لحم، وإنما في مقبرة جديدة في القدس (مدينة داود)، وقد يقال إن ذلك تم بدون رغبة منه أو أنه لم يترك تعليمات فيما يختص بمكان دفنه، و لكن هناك عبارات في التوراة يفهم منها أن الرجل المحتضر كان يوصي أقرباءه بدفنه في مقبرة الأسرة (2)، و أن داود الذي أعطى تعليماته النهائية لولده و خليفته سليمان فيما يختص بأعدائه لم ينس بطبيعة الحال التعليمات الخاصة بمكان دفنه (3).

و يذهب بعض الباحثين إلى أن السبب في دفن داود في القدس، و ليس في بيت اللحم. و الأمر كذلك بالنسبة إلى خلفائه المباشرين الاثني عشر، هو تقليد الملك داود لجيرانه من الملوك، ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر، و حتى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد على الأقل كان العرف السائد في كل حوض شرق البحر المتوسط هو أن يدفن الملوك في قصورهم، أو على مقربة منها، و ليس داخل أسوار مدنهم فحسب (4)، و إني لأظن، و ليس كل الظن إثما، أن المؤرخين قد أخطئوا كثيرا في تفسير الأحداث الخاصة بداود عليه السلام، فهم يتعاملون معه على أنه ملك إسرائيل فحسب، و نسوا، أو تناسوا، أنه قبل ذلك و بعده نبى الله و رسوله، و طبقا لهذه الحقيقة التي يتغافل عنها البعض، يمكننا تفسير مكان دفن داود عليه السلام في القدس، و ليس في بيت لحم، اعتمادا على ما روي عن سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم من أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، فلقد حدث أبو بكر الصديق أنه

ص: 78

1-قضاة 8/32، صموئيل ثان 19/37-38، 21/11-14.

2- تكوين 49/29-33. (7)، 1948، p. 31. SENJ ,divaD fo esuoH eht fo sgniK eht fo srehlupeS ehT ,nivieY .

3- 36 .. 38- nivieY . S tic- p.

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، وفي رواية «ما مات نبي إلا دفن حيث قبض».

هذا وكان عمر داود عليه السلام، فيما وردت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة سنة (1)، فقد جاء من الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره، فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام، ورأى فيهم رجلا يزهر فقال أي رب من هذا، قال ابنك داود، قال أي رب كم عمره، قال ستون عاما، قال رب زد في عمره، قال لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عاما، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال بقي من عمري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود، فأتمها الله لآدم ألف سنة، و لداود مائة سنة» (رواه الإمام أحمد عن ابن عباس، والترمذي عن أبي هريرة وصححه، وابن خزيمة وابن حبان، ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم) (2)، وقال الطبري: وأما بعض أهل الكتاب فإنه زعم أن عمره كان سبعا وسبعين سنة (3)؛ و أما رواية التوراة فتجعل عمره سبعين عاما «كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، و ملك أربعين سنة» (4) وبدهي أن رواية التوراة، وكذا رواية بعض أهل الكتاب كما نقلها الطبري وغيره، غير صحيحة، أو كما يقول ابن كثير فهذا غلط مردود عليهم، وأما مدة ملكه، وهي أربعون سنة (5)، فقد يقبل منهم، لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه (6).

ص: 79

1- تاريخ الطبري 485/1.

2- ابن كثير. البداية و النهاية 87/1 - 88، 16/2.

3- تاريخ الطبري 485/1، وانظر: تاريخ اليعقوبي حيث يذهب إلى أن داود عليه السلام مات و له مائة و عشرون سنة، و كان ملكه أربعين سنة (تاريخ اليعقوبي 56/1).

4- صموئيل ثان 4/5.

5- صموئيل ثان 4/5 - 6، أخبار أيام أول 26/29 - 27.

6- ابن كثير: البداية و النهاية 16/2، الكامل لابن الأثير 128/1، تاريخ المسعودي 70/1، تاريخ الطبري 485/1.





## الفصل الرابع داود بين آي الذكر الحكيم و روايات التوراة

داود عليه السلام، نبي الله ورسوله إلى بني إسرائيل، وأحد الدوحة الطاهرة من ذرية أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، التي جعل الله فيها النبوة والكتاب، قال تعالى: **وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ (1)**، وقال تعالى:

**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ (2)**، فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء: بعد إبراهيم، فمن ذريته وشيعته (3)، وكان من هذه الكتب «الزبور» الذي أنزل على داود عليه السلام، وكما أن داود: من ذرية إبراهيم، فهو كذلك واحد من فروع تلك الشجرة المباركة التي ينتسب إليها المسيح عليه السلام (4)، فضلا عن أن داود هو والد سليمان، نبي الله ورسوله، صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.

و من أجل هذا وغيره، فإن القرآن الكريم إنما يصف سيدنا داود عليه السلام بقوله تعالى: **وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (5)**،

ص: 81

1- سورة الأنعام: آية 84.

2- سورة الحديد: آية 26.

3- ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ 1/ 167 (بيروت 1965).

4- متى 1/ 1-16، لوقا 3/ 23-28.

5- سورة ص: آية 30، وانظر: تفسير ابن كثير 4/ 51 (بيروت 1986)، تفسير النسفي 4/ 40، تفسير القرطبي ص 5636-5637.

وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ (1)، وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (2)، وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا، وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (3)، وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَ قَدَّرْ فِي السَّرْدِ وَ أَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)، وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (5)، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ وَ حَبِيبَهُ مَوْلَانَا وَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَنْ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَ أَذْكَرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ، وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ، وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلْنَا الْخِطَابَ (6).

هذا هو رأي الإسلام في داود عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم، و ليس هناك من ريب في أنه ليس لمسلم بعد رأي الإسلام رأي.

ص: 82

- 
- 1- سورة البقرة: آية 251، و انظر: تفسير النسفي 1/126، تفسير الطبري 5/371-372، تفسير الكشاف 1/296، تفسير المنار 2/392-393، تفسير روح المعاني 2/173-174، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي 1/319، تفسير الطبرسي 2/291-292، الجواهر في تفسير القرآن الكريم 1/230، تفسير القرطبي ص 1064-1066، تفسير ابن كثير 1/453.
- 2- سورة النساء: آية 163، و انظر، تفسير الألويسي 4/16-17، في ظلال القرآن 6/24، تفسير الطبرسي 6/399-402، تفسير النسفي 1/263، تفسير القرطبي ص 2013، تفسير ابن كثير 2/421-422، (القاهرة 1970) تفسير المنارة 5/57.
- 3- سورة النمل: آية 15، و انظر: تفسير النسفي 3/204، تفسير ابن كثير، 3/572-573 (بيروت 1986)، الدر المنثور 5/103، تفسير الطبري 19/87، صفوة التفاسير 2/404.
- 4- سورة سبأ: آية 10-11، و انظر تفسير القرطبي ص 5346-5350، تفسير النسفي 3/319-320، تفسير ابن كثير 3/838-839، تفسير الفخر الرازي 25/245، زاد المسير لابن الجوزي 6/436، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين 3/294.
- 5- سورة الإسراء: آية 55، تفسير النسفي 2/317، تفسير ابن كثير 3/76-77.
- 6- ص: آية 17-20، و انظر تفسير النسفي 4/36-37، تفسير ابن كثير 4/45-47، تفسير القرطبي ص 5602-5608.

ولكن: ما هو رأي التوراة في داود عليه السلام؟

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة، بادئ ذي بدء، إلى أن التوراة تنظر إلى داود، على أنه ملك اليهود القدير، قبل أن يكون نبي الله ورسوله الكريم، ومن ثم فإنها لم ترتفع إلى مستوى داود النبي، الأمر الذي صوّره القرآن في جلاء ووضوح، وإن حاولت في بعض الأحيان أن تتخلص من السقوط المريع الذي وصلت إليه بشأن النبي الأواب، فوصفته بما يتفق إلى حد ما و مكان النبوة السامي، كما نرى في بعض آيات من أسفار صموئيل الثاني (8/15، 22/21-25) و الملوك الأول (3/16، 14، 11/38، 15/3) و الملوك الثاني (18/3) و أخبار الأيام الأول (28/4-5) و إشعيا (3/5، 55/3-6) و هوشع (3/5) وغيرها.

و على أية حال، فليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما، كالصورة التي تقدمها التوراة عن داود عليه السلام، ملك اليهود القدير، فهو الشجاع قاتل جالوت (جليات) الجبار بمقلعه دون سيف في يده (1)، و بدأ يصبح مطاردا من الفلسطينيين يوما ما، و لكنه سرعان ما يشترك معهم في حروبهم ضد عدوهم يوما آخر، بل و يضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيه اليهود (2)، و هو يعمل حامل سيف طالوت (شاؤل) الإسرائيلي يوما ما، ثم حارسا للملك الفلسطيني «أخيش» يوما آخر، (3)، و هو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين، ثم أنهاه و قد قضى على نفوذهم في المناطق الإسرائيلية تماما، و هو عدو شاؤل (طالوت) اللدود، ثم هو في نفس الوقت زوج ابنته، و حبيب ولده «يوناثان»، و كثير من فتيان و فتيات

ص: 83

1- صموئيل أول 50/17.

2- صموئيل أول 29/2-12.

3- صموئيل أول 28/1-2.

إسرائيل (1)، وهو يعمل مغنيا في بلاط شاؤل لأنه يجيد العزف على القيثارة، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، ولكنه في نفس الوقت الفارس المغوار، حامل سلاح الملك وقاتل أعدائه (2).

وهو قاس غليظ القلب، كما كان الناس في وقته، وكما كانت قبيلته، وهي صورة مستحبة في أذهان اليهود، خلعوا على إلههم «يهوه» من بين ما خلعوا عليه من صفات، ولكنه في نفس الوقت كان مستعدا لأن يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح، وكان يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين، بل إنه حتى ليبالغ في القسوة حين يأمر بحرق المغلوبين، و سلخ جلودهم، وشرهم بالمنشار (3)، وعند ما يطلب منه شاؤل مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لابنته ميكال، إذ به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين و يقدم غلقتهم مهرا لابنة شاؤل هذه (4)، وحين يوصي ولده سليمان، وهو على فراش الموت، بأن يجدر بالدم إلى الهاوية شبية شمعي بن جبر، الذي لعنه منذ سنين طويلة (5).

وهو يأخذ النساء من أزواجهن غصبا، مستغلا في ذلك جاهه و سلطانه، فهو يشترط لمقابلة «أنير»، قائد جيوش شاؤل، أن يأتي بابتة شاؤل ميكال، و التي كان قد خطبها من أبيها، و دفع مهرا رءوس مائتين من الفلسطينيين من زوجها «فلطييل بن لايش» الذي أدمى قلبه فراقها، ثم سار وراءها، وهو يبكي، حتى «بحوريم»، ولم يرجع من ورائها إلا بتهديد من

ص: 84

1- صموئيل أول 18 / 1-7.

2- صموئيل أول 16 / 21-23.

3- صموئيل ثان 12 / 29-31.

4- صموئيل أول 18 / 25-28.

5- ملوك ثان 2 / 9.

«أبئير و خوف منه (1)» ثم هو يأخذ «بتشبع» امرأة قائده» أوريا الحثي» من زوجها، و يأتي بها إلى نساءه، فيضطجع معها، و هي مطهرة من طمئتها، و حين تحس المرأة أن ثمرة اللقاء بدأت تتحرك في بطنها، يرسل إلى زوجها فيستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل ظن الناس أنه من زوجها، و لما رفض الرجل أن يدخل إلى فراش زوجته الدافئ، بينما أخوة له يقتلون و يقتلون في ساحة الوغى، و أصر على أن ينام على عتبة بيت الملك مع النائمين، و ألا يضاجع امرأته أبدا، حتى يقتضي الله أمرا كان مفعولا، فإذا بداود يرسل به إلى الصف الأول، مع أمر واضح صريح، أن «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت»، و حين يتم له ذلك يضم المرأة إلى حريمه، ثم هو يقبل بعد ذلك زجر «ناثان» على فعلته، و لكنه مع ذلك يحتفظ بالمرأة في حريمه (2).

و هو يعفو عن «طالوت» (شاول) عدة مرات، و لا يسلبه إلا درعه، في نفس الوقت الذي كان في مقدوره أن يسلبه حياته، و هو يعفو عن «مفيبوشت»، حفيد طالوت، و قد يكون من المطالبين بالعرش، عرش عمه و جده من قبل، بل و يعينه على أمره (3)، و هو يعفو عن ولده «أبشالوم»، أن قبض عليه بعد قتله أخيه أمنون، ثم بعد قيامه بثورة مسلحة، و بعد أن دنس عرضه على ملاء من القوم، و بعد أن طارده حتى شرق الأردن، لو لا أن يوآب قتله، رغم أوامر داود الصريحة بعدم قتله (4)، بل إنه ليعفو عن «شاول» الذي

ص: 85

---

1- صموئيل ثان 12/3-16، ثم قارن: صموئيل أول 11/19-17، حيث يروي كيف أن ميكال هي التي أنقذت زوجها داود من مؤامرات أبيها شاول، و أنها أخرجته من كوة في الدار، ليفر بنفسه من أبيها و رجاله، و قد وضعت في مكانه في الفراش الترافيم، كما أشرنا من قبل، و بدهي أن هذا نوع من تناقضات التوراة و تعارض نصوصها لبعضها البعض.

2- صموئيل ثان 11/2-29، 12/1-12.

3- صموئيل ثان 4/4-5.

4- صموئيل ثان 16/32، 18/33.

كان يسعى لقتله، بعد أن تمكن منه مرات، وفي أمان مطلق، و مناعة تامة (1)، و من ثم يذهب «ول ديورانت» طبقاً لأوصاف التوراة هذه لداود، إلى أن ذلك وصف رجل حقيقي، لا رجل خيالي، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة، ينطوي على جميع بقايا الهمجية، و على كل مقومات الحضارة (2).

و بدهي أن هذا ليس رأينا، و لم ولن يكون، فحاشا للنبي الأواب أن يكون هكذا، و لكنه رأى توراة اليهود المتداولة اليوم، ذلك لأن داود عليه السلام، فيما نعتقد و نؤمن به الإيمان كل الإيمان، هو نبيّ الله و رسوله الكريم، قبل أن يكون ملك اليهود القدير، و من ثم فنحن لا نرضى للنبيّ الكريم، إلا- ما ارتضاه له رب العزة و الجلال في كتابه الكريم، و قد أشرنا إليه من قبل، و لكننا نقدم هذه الصورة ليعرف القارئ الكريم، رأى التوراة، كتاب اليهود المقدس، حتى في أنبياء بني إسرائيل و ملوكهم، و لأننا ندرس حياة داود الملك النبي ذلك لأننا نقدم هنا دراسة تاريخية دينية، و ليس من شك في أن الجانب التاريخي، و ليس الديني، إنما يعتمد على التوراة، كواحد من مصادر تاريخ الملك داود، و ليس النبي داود، و مع ذلك، فإننا إن اتفقنا معها في بعض الأمور، فإننا نختلف معها في الكثير من هذه الأمور، و بخاصة فيما يتعلق بالأنبياء و عصمتهم، تلك الصفوة المختارة من عباد الله الذين بعثوا بأمر من ربهم هداة راشدين، و اختارهم الله سبحانه و تعالى، مبشرين و منذرين، و اصطفاهم من خلقه، و صدق الله حيث يقول: **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (3)**، هذا فضلا عن اختلافنا مع توراة يهود فيما

ص: 86

1- صموئيل أول 24 / 2- 22.

2- ول ديورانت: قصة الحضارة 2 / 331-332 (القاهرة 1961)، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص 362-373، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2 / 693-697.

3- سورة الأنعام: آية 124.

يتصل بالحقائق التاريخية، ذلك لأن من كتبوا التوراة (1)، كانوا بشرا مثلنا، وهم كمؤرخين، لا يختلفون عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق القديم، وبدهي أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه.

ص: 87

---

1- انظر عن كتابة التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 18/3 - 106).









1- وراثه سليمان داود:

جاء ذكر سيدنا سليمان عليه السلام في كثير من آي الذكر الحكيم (1)، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، شأنه في ذلك شأن أبيه داود عليه السلام، فلقد كان سليمان، كما كان أبوه داود، عليهما السلام، نبيا ملكا، فقد جمع الله لكل منهما النبوة و الملك، وأعطاه خيرى الدنيا والآخرة، فكان نبيا ملكا، قال تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ (2)، قال ابن كثير: أي في الملك و النبوة، و ليس المراد وراثه المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة، و لكن المراد بذلك وراثه الملك و النبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم في قوله الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة» (3)، و قال النسفي: ورث النبوة و الملك دون سائر بنيه، و كانوا تسعة عشر، قالوا أوتى النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه، و إلا فالنبوة لا تورث (4)، و قد

ص: 91

1- انظر: سورة البقرة (102) و النساء (163) و الأنعام (84) و الأنبياء (78-82) و النمل (15-44) و سبأ (12-14) و ص (30-40).

2- سورة النمل: آية 16.

3- تفسير ابن كثير 3/ 573 (ط بيروت 1986)، صحيح البخاري 8/ 185، صحيح مسلم 5/ 153، مسند الإمام أحمد 1/ 4.

4- تفسير النسفي 3/ 204.

أشرنا من قبل أن النبوة لا تكون بالإرث، فولد النبي لا يكون نبياً بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي والاصطفاء الرباني (1)، ويقول صاحب الظلال: أن داود أوتى الملك مع النبوة والعلم، ولكن الملك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان، إنما يذكر العلم، لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال، ومن ثم فالمفهوم في الوراثة أنها وراثة العلم، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر (2)، ويقول الطبري أن سليمان ورث أباه داود في العلم الذي كان آتاه الله في حياته، والملك الذي كان خصه به على سائر قومه، فجعله له بعد أبيه، دون سائر ولد أبيه (3).

ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير: أما قوله تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ فقد اختلفوا فيه، فقال الحسن البصري: المال، لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث، وقال غيره: بل النبوة، وقال آخرون: بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمنا، ولا يرث إذا كان كافرا أو قاتلا، ولكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة، لأن الموت لا يكون سببا لنبوة الله، فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته، ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصل فقال: وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله «وقال يا أيها الناس علمنا منطلق الطير» معنى، وإذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن

ص: 92

1- محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص 10، محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ص 71-77.

2- في ظلال القرآن 5/ 2634.

3- تفسير الطبري 19/ 141.

ذلك، لأن تعليم منطق الطير يكون داخلا في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى: «وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَأَنْ وَاثَ الْمَلِكِ يَجْمَعُ ذَلِكَ، وَ وَاثَ الْمَالِ لَا يَجْمَعُهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ لَا يَلِيقُ أَيْضًا إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا دُونَ الْمَالِ الَّذِي قَدْ يَحْصُلُ لِلْكَامِلِ وَ النَّاقِصِ، وَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ جُنُودِ سَلِيمَانَ بَعْدَهُ، لَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَاهُ، فَبَطُلَ بِمَا ذَكَرْنَا قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَرِثْ إِلَّا الْمَالِ، فَأَمَّا إِذَا قِيلَ: وَ وَاثَ الْمَالِ وَ الْمَلِكِ مَعًا، فَهَذَا لَا يَبْطُلُ بِالْوَجْهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، بَلْ بظَاهِرِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوْرَثُ مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ» (1).

وَ قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ وَاثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَ وَاثَ نَبُوْتِهِ وَ مَلِكِهِ وَ عِلْمِهِ، وَ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي حَقِّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ (251) وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عِلْمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَ يَدْخُلُ فِي هَذَا أَيْضًا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي سُورَةِ النَّمْلِ (15) مِمَّا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ الْكَرِيمَيْنِ مِنْ عَظِيمِ الْمَنْحِ، وَ جَزِيلِ الْفَضْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا، وَ هَذَا يَشْمَلُ عَلَيَّ مَا شَرَفَهُمَا اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبُوْتِ وَ الرِّسَالَةِ وَ مَا يَسِرُّ لِكُلِّ مِنْهُمَا مِنْ عِلْمِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ (2)، أَوْ هُوَ، كَمَا يَقُولُ الطَّبْرِيُّ، عِلْمُ كَلَامِ الطَّيْرِ وَ الدُّوَابِّ، وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ» (3)، وَ قَالَوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَيَّ كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»، يَقُولُ النَّسْفِيُّ: وَ الْكَثِيرُ الْمَفْضَلُ عَلَيْهِ مِنْ لَمْ يُوْتِ عِلْمًا أَوْ مِنْ لَمْ يُوْتِ مِثْلَ عِلْمِهِمَا، وَ فِيهِ أَنْهُمَا فَضْلًا عَلَيَّ كَثِيرًا، وَ فَضْلًا عَلَيْهِمَا كَثِيرًا، وَ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَيَّ شَرَفِ الْعِلْمِ وَ تَقَدُّمِ حَمَلْتِهِ وَ أَهْلِهِ وَ أَنَّ نِعْمَةَ الْعِلْمِ مِنْ أَجْلِ النِّعَمِ، وَ أَنَّ مِنْ أَوْتِيهِ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَ فَضْلًا عَلَيَّ كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ، وَ مَا سَمَّاهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَرِثَةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا لِمَدَانَاتِهِمْ لَهُمْ

ص: 93

1- تفسير الفخر الرازي 186/24.

2- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 64.

3- تفسير الطبري 140/19.

في الشرف و المنزلة لأنهم القوامون بما بعثوا من أجله، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمّدوا الله على ما أوتوه، و أن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير، فقد فضل عليه مثلهم (1). و يقول الفخر الرازي: و أما قوله تعالى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، ففيها أبحاث، أحدها: أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما مثل علمهما، و فيه أنهما فضلا على كثير، و فضل عليهما كثير، و ثانيهما: في الآية دليل على علو مرتبة العلم، لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما، فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم، و ثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل و ذلك يدل على حسن التواضع، و رابعها: أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله و بصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على العلم، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين، فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله و بصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات، و لا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان، و لا ساعة من الساعات (2).

## 2- من أحكام سليمان:

يذهب كثير من المؤرخين و المفسرين إلى أن سليمان عليه السلام قد تولى الملك صبيا لما ييفع، و من ثم فقد ذهب فريق منهم إلى أنه كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة (3)، عند ما خلف أباه في الحكم، و مع ذلك، فقد

ص: 94

1- تفسير النسفي 204/3.

2- تفسير الفخر الرازي 185/24-186.

3- تاريخ يعقوبي 56/1، المسعودي 71/1، تاريخ ابن الأثير 128/1، ثم قارن ابن خلدون: حيث يذهب إلى أنه كان في الثانية و العشرين من عمره حين ولي الحكم (تاريخ ابن خلدون 112/2).

كان، مع حداثة سنه، من ذوي الفطنة والذكاء، وقد أعطاه الله الحكمة وحسن القضاء منذ الصغر، وقد ذكر القرآن الكريم طرفاً من ذلك النبوغ والذكاء الذي كان عند سليمان، وذلك في الفتوى التي عرضت على أبيه داود، فأفتى فيها كل منهما بوجه يختلف عن الآخر، وكانت فتوى سليمان أضمن للحق وأقرب إلى الصواب، كما قال تعالى: **وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا،** فقوله تعالى: **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** يدل على أن ما أفتى به سليمان كان أقرب إلى الصواب، وقوله تعالى: **وَ كُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا** يدل على أن داود وسليمان كانا على جانب عظيم من الحكمة والعلم (1)، وقال أبو حيان: والظاهر أن كلا من داود وسليمان حكم بما ظهر له، وهو متوجه عنده، فحكمهما باجتهاد، وهو قول الجمهور (2).

و خلاصة القصة، كما يقدمها لنا أصحاب التفسير، أن زرعا دخلت فيه غنم لقوم لبلاد فأكلته وأفسدته، فجاء المتخاصمون لداود، وعنده سليمان، وقصوا عليه القصة، فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً، فقال سليمان: غير هذا أرفق، تدفع الغنم لصاحب الزرع فينتفع بألبانها وأولادها وأشعارها، وتدفع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كما كان، ثم يترادان بعد ذلك، فيعود لأهل الغنم غنمهم، ولأهل الحرث حرثهم، فقال داود: قد أصبت القضاء فيما قضيت (3)، ثم أمضى حكم سليمان لما فيه من حفظ أصول المال).

ص: 95

1- سورة الأنبياء: آية 78-79، محمد علي الصابوني: المرجع السابق 283.

2- انظر: تفسير البحر المحيط 6/330، تفسير النسفي 3/85، تفسير أبي السعود 6/78-80.

3- جاء في تفسير النسفي والفخر الرازي: قال الحسن البصري هذه الآية محكمة، والقضاه بذلك يقضون إلى يوم القيامة، غير أن النسفي يذهب إلى أن هذا كان في شريعتهم، فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه بالليل أو بالنهار، إلا أن يكون مع البهيمه سائق أو قائد، وعند الشافعي. لا ضمان بالنهار لأن لصاحب الماشية تسيب ماشيته بالنهار، وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه، وإن كان ليلاً يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه، وقال الجصاص إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها ونسخ الضمان بقوله صلى الله عليه وسلم: «جرح العجماء جبار، واحتج الشافعي بما روي عن البراء بن عازب أنه قال: كانت ناقة ضارية فدخلت حائطاً فأفسدته، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل»، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود كان حكماً، والصلح خير» (تفسير النسفي 3/85، تفسير الفخر الرازي 22/199).



لصاحبيهما، ويقول صاحب الظلال: كان حكم داود و حكم سليمان اجتهادا منهما في القضية، و كان الله حاضرا حكمهما، فألهم سليمان حكما أحكم، و فهمه ذلك الوجه و هو أصوب، و لقد اتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث، و هذا عدل فحسب، و لكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء و التعمير، و جعل العدل دافعا إلى البناء و التعمير، و هذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة، و هو فتح من الله و إلهام يهبه من يشاء، و لقد أوتى داود و سليمان كلاهما الحكمة و العلم» و كلا آتينا حكما و علما، و ليس في قضاء داود من خطأ، و لكن قضاء سليمان كان أصوب، لأنه من نبع الإلهام.

و قريب من هذه القصة التي جاءت في القرآن الكريم، ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى:

يرحمك الله هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى» (1). و هناك قصة أخرى أوردتها الحافظ ابن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه بسنده

ص: 96

---

1- الحديث أخرجه أيضا البخاري و مسلم في صحيحهما، و بوب له النسائي في كتاب القضاء، و انظر: تفسير ابن كثير 299/3، تاريخ الطبري 486/1-487.

عن ابن عباس ملخصها: «أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلبا لها قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله، فانتصبت حاكما و تزييا أربعة منهم بزى أولئك، و آخر بزى المرأة، و شهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبا، فقال سليمان، فرقوا بينهم، فسأل أولهم ما كان لون الكلب، فقال أسود، فعزله، و استدعى الآخر فسأله عن لونه، فقال أحمر، و قال الآخر أغبش، و قال الآخر أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكى ذلك لداود عليه السلام، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم» (1).

### 3- من معجزات سليمان:

منح الله سبحانه و تعالى عبده و رسوله سليمان عليه السلام كثيرا من المعجزات، منها (أولا) أن الله تعالى علمه منطق الطير، و سائر لغات الحيوان، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، و ربما تحدث معها، كما كان الأمر مع الهدد و النمل و غيرها، روي ابن عساكر قال: مرّ سليمان بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه أ تدرّون ما يقول، قالوا و ما يقول يا نبي الله، قال يخطبها إلى نفسه و يقول: زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد، و لكن كل خاطب كذاب» (2).

و روى النسفي و أبو السعود: يحكي أن سليمان مرّ على بلبل في شجرة

ص: 97

1- تفسير ابن كثير 3/ 299.

2- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 18-19.

يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه: أ تدرّون ما يقول، قالوا الله و نبيّه أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء، وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاوس فقال يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين وصاحت رخمة فقال تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى وقال: الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس (1).

وقال تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (2)، يذيعها سليمان عليه السلام في الناس تحدثا بنعمة الله وإظهار الفضلة، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله، وكذلك لا يؤتى أحدا من كل شيء، بهذا التعميم، إلا الله، ومن المعروف أن للطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم، هي لغاتها ومنطقها، فيما بينها، والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»، ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها، وذلك ملحوظ في أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات، ويجهت علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن، لا عن الجزم واليقين، فأما ما وهبه الله لسليمان عليه السلام، فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر، لا على طريق المحاولة منه، والاجتهاد لتفهم وسائل

ص: 98

1- تفسير أبي السعود 276/6-277، تفسير النسفي 205/3.

2- سورة النمل: آية 16.

الطير وغيره في التفاهم على طريق الحدس، كما هو حال العلماء اليوم (1).

وقال تعالى: حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سَيِّدَائِكُمْ وَجُنُودُهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمُوا ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا (2)، ولا شك أن فهمه عليه السلام لكلام النمل إعجازاً اختصه الله عز وجل به، إظهاراً لما أكرمه الله به من شرف النبوة والرسالة (3)، ونحن هنا، كما يقول صاحب الظلال، أمام خارقتين، لا خارقة واحدة، خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها، وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان و جنوده، فأما الأولى، فهي مما علمه الله لسليمان، وسليمان إنسان و نبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة، فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه، وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة، أما أن تدرك النملة أن هذه الشخصوس هي سليمان و جنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المؤلف، و تحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال (4).

ومنها (ثانياً) أن جند سليمان عليه السلام إنما كان مؤلفاً من الإنس و الجن و الطير، و قد نظم لهم أعمالهم و رتب لهم شئونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل، يحيط به الجند و الخدم من كل جانب، فالإنس و الجن يسرون معه، و الطير تظللله بأجنحتها من الحر (5)، قال تعالى: وَ حَشِرَ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِّنَ الْجِنِّ وَ الْإِنسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (6)، و الجدير

ص: 99

1- في ظلال القرآن 5/ 2634.

2- سورة النمل: آية 18-19.

3- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 68.

4- في ظلال القرآن 5/ 2637.

5- الصابوني: المرجع السابق ص 288.

6- سورة النمل: آية 17.

بالإشارة هنا أن الله سخر لسليمان طائفة من الجن و طائفة من الطير، كما سخر له طائفة من الإنس، و كما أنه لم، يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان، إذ إن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين و لبنان و سورية و العراق إلى ضفة الفرات، فكذلك لم يكن جميع الجن، و لا جميع الطير مسخرين له، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء و نستدل في مسألة الجن إلى أن إبليس و ذريته من الجن كما قال القرآن: **إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ وَقَالَ: الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، وَهُؤُلَاءِ كَانُوا يَزُولُونَ الْإِغْرَاءَ وَالشَّرَّ وَالْوَسْوَسَةَ لِلْبَشَرِ فِي عَهْدِ سَلِيمَانَ، وَ مَا كَانُوا لِيَزُولُونَ هَذَا، وَ هُمْ مَسْخَرُونَ لَهُ مَقِيدُونَ بِأَمْرِهِ، وَ هُوَ نَبِيٌّ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى، فَالْمَفْهُومُ إِذْنُ أَنْ طَائِفَةٌ مِنَ الْجِنِّ هِيَ الَّتِي كَانَتْ مَسْخَرَةً لَهُ، وَ نَسْتَدِلُّ فِي مَسْأَلَةِ الطَّيْرِ إِلَى أَنَّ سَلِيمَانَ حِينَ تَقْقُدُ الطَّيْرَ عِلْمَ بَغِيْبَةِ الْهَدَاهِدِ، وَ لَوْ كَانَتْ جَمِيعُ الطَّيُورِ مَسْخَرَةً لَهُ، مَحْشُورَةً فِي مَوْكِبِهِ، وَ مِنْهَا جَمِيعُ الْهَدَاهِدِ، مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَبَيَّنَ غِيْبَةَ هَدَاهِدِ وَاحِدٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الْهَدَاهِدِ، هَذَا فَضْلاً عَنِ بَلَائِكِ الطَّيْرِ، وَ لَمَا قَالَ: مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَاهِدَ، فَهُوَ إِذْنُ هَدَاهِدِ خَاصٍ بِشَخْصِهِ وَ ذَاتِهِ، وَ قَدْ يَكُونُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لِسَلِيمَانَ مِنْ أُمَّةِ الْهَدَاهِدِ، أَوْ يَكُونُ صَاحِبَ النَّوْبَةِ فِي ذَلِكَ الْمَوْكِبِ مِنَ الْمَجْمُوعَةِ الْمَحْدُودَةِ الْعَدَدِ مِنْ جِنْسِهِ، وَ يَعْينُ عَلَى هَذَا مَا ظَهَرَ مِنْ أَنَّ هَذَا الْهَدَاهِدَ مَوْهُوبٌ إِدْرَاكاً خَاصاً لَيْسَ مِنْ نَوْعِ إِدْرَاكِ الْهَدَاهِدِ، وَ لَا الطَّيْرِ بِصِفَةِ عَامَةٍ، وَ لَا بَدَأَ أَنَّ هَذِهِ الْهَبَةَ كَانَتْ لِلطَّائِفَةِ الْخَاصَةِ الَّتِي سَخَّرَتْ لِسَلِيمَانَ، لَا لِجَمِيعِ الْهَدَاهِدِ وَ جَمِيعِ الطَّيُورِ، فَإِنَّ نَوْعَ الْإِدْرَاكِ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ الْهَدَاهِدِ الْخَاصِ فِي مَسْتَوَى يَعَادِلُ مَسْتَوَى الْعُقْلَاءِ الْأَذْكِيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ مِنَ النَّاسِ (1).**

و منها (ثالثاً) تسخير الريح له، قال تعالى: **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً**

ص: 100

1- في ظلال القرآن 5/ 2635-2636.

عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ» (1)، وقال تعالى: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (2)، وقال تعالى: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (3)، وهكذا كان من معجزات سليمان عليه السلام تسخير الريح عاصفة قوية لتحمله و تحمل جنوده و ما معهم من الأثقال، و تقوم بأداء ما يريد من سخر الله له فيه، و هي تجري بأمره إلى الأرض التي بارك الله فيها، معجزة قاهرة أكرم الله بها، و أجراها على يديه إظهاراً لنبوته و تأييداً لرسالته (4)، و يقول الفخر الرازي: المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة، لا هذه الرياح، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات و يدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح (5)، و يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب، طيب الله ثراه، و تخير الرياح لسليمان تتكاثر حوله الروايات (6)، و تبدو ظلال الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات، و إن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها، و التخرج من الخوض في تلك الروايات أولى، و الاكتفاء بالنص القرآني أسلم، مع الوقوف عند ظاهر النص لا تتعداه، و منه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان، و جعل غدوها، أي توجهها غادية إلى بقعة معينة (هي الأرض المقدسة في آية الأنبياء 81) يستغرق شهراً، و رواحها، أي انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك، وفق مصلحة تحصل من غدوها و رواحها، يدركها سليمان عليه السلام، و يحققها بأمر الله، و لا نملك أن

ص: 101

1- سورة سبأ: آية 12.

2- سورة ص: آية 36.

3- سورة الأنبياء: آية 81.

4- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 77-78.

5- انظر: تفسير الطبري 17/55-56، 22/68-69، 23/160، تفسير النسفي 3/320 تفسير ابن كثير 3/300، 840.

نزید هذا إیضاحا حتی لا ندخل فی أساطیر لا ضابط لها ولا تحقیق (1).

و منها (رابعا) أن الله تعالى سخر لسليمان طائفة من الجن و مرده الشياطين يعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر، كبناء الصروح الضخمة و القصور العالية و القدور الراسيات، و الجفان التي تشبه الأحواض، كما قال تعالى:

وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَ مَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانَ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلًا مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ (2)، هذا و المحارِب، كما هو معروف، من أماكن العبادة، و التماثيل الصور من نحاس و خشب و غيره، و الجواب جمع جابية و هي الحوض الكبير الذي يجبي فيه الماء، و قد كانت الجن يصنعون لسليمان جفانا كبيرة للطعام تشبه الجوابي، قيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس، كما كانت تصنع له قدروا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها، لا تنقل لكبرها، وإنما يغرف منها في تلك الجفان، و هذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله، و كلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها، إلا بأنها خارقة من صنع الله، و هذا هو تفسيرها الواضح الوحيد (3). و قال تعالى:

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُغْوِصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ، و هذا العمل فيه احتمال قوي أن يكون من قبيل المعجزات، بل هو معجزة، ذلك لأن التحكم في جماعات الشياطين و استخدامها في الغوص، و عمل الأعمال التي دون الغوص، و حفظ الله تعالى لهم، ليكونوا تحت أمره عليه السلام خاصة، إنما هو أمر ظاهر في الإعجاز (4).

ص: 102

1- في ظلال القرآن 2898/5.

2- سورة سبأ: آية 12-13.

3- في ظلال القرآن 2899/5. و انظر: تفسير الفخر الرازي 248/25.

4- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 78.

و منها (خامسا) أن الله تعالى جعل لسليمان عليه السلام سلطة على طائفة من الجن (1)، يسخر من يشاء منهم في الأعمال الشاقة، و يقيد من يشاء في الأغلال ليكف شرهم عن الناس، كما قال تعالى: وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، و لم يكن هذا التسخير لأحد من الأنبياء غير سليمان عليه السلام، و ذلك غاية العظمة و نهاية الملك و السلطان لملوك الدنيا، فلم ينل أحد من الملوك ما ناله سليمان عليه السلام، نبي الله و رسوله، روي البخاري و مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «إن عفريتاً من الجن تقلت على البارحة ليقطع على صلاتي، فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان «رب اغفر لي و هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد بعدى» فرددته خاسئاً» (2)، و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه كان في مكنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يربط العفريت، كما هو واضح من لفظ الحديث الشريف، و كما في حديث أبي الدرداء عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال: «ثم أردت أن آخذه، و الله لو لا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة» (3)، و كما في حديث أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال: «لو

ص: 103

1- يقول الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله: «فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» أن الآية (سبأ: آية 14) تبين أن الجن لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي، و قوله: «ما لبثوا في العذاب المهين» دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين (تفسير الفخر الرازي 25/250).

2- انظر: صحيح البخاري 4/197، صحيح مسلم 1/384، و انظر رواية أخرى للحديث الشريف عن أبي الدرداء (صحيح مسلم 2/72، سنن النسائي 3/13) و ثالثة للإمام أحمد في المسند (3/83) عن أبي سعيد الخدري (انظر تفسير ابن كثير 4/56-57 ط بيروت 1986).

3- صحيح مسلم 2/72.





أي مكان آخر في العالم القديم، على ما يضاهاهي معامل تنقية النحاس في عصيون جابر و لعل أفضل هذه المعامل من جهة الإعداد و البناء ما وجد في الطبقة (ط) التي تحوي مخلفات أقدم للفترات الخمسة الرئيسية لعمران هذا الموقع (1).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك بعضا من آي الذكر الحكيم التي تتصل بسيدنا سليمان عليه السلام، قد أسرف المفسرون على أنفسهم و على الناس في تفسيرها، فيها قوله تعالى: وَ هَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ، رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (2)، و في قصة الخيل هذه أو الصفات الجياد، و هي الخيل الكريمة، روايتان، تقول الأولى: إن سليمان عليه السلام، استعرض خيلا له بالعشي، ففاتته صلاة كان يصلها قبل الغروب، فقال ردوها علي فجعل يضرب أعناقها و سيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه، و رواية أخرى إنما جعل يمسح سوقها و أعناقها إكراما لها لأنها كانت خيلا في سبيل الله، و كلا الروايتين، فيما يرى صاحب الظلال، لا دليل عليها و يصعب الجزم بشي ء عنها، و في تفسير ابن كثير و غيره أن هذه الخيل التي شغلت سليمان عليه السلام كانت عشرين ألف فرس فعقروها (3).

ص: 105

1- وليم أولبرايت: آثار فلسطين - القاهرة 1971 ص 128 (مترجم) و كذا.. 198- 199. K. W. p, tic- po, relle.

2- سورة ص: آية 30- 33.

3- في ظلال القرآن 3020/5، تفسير ابن كثير 51/4 - 52، تفسير الطبري 153/23 - 156، تفسير الفخر الرازي 203/26 - 206، تفسير النسفي 40/4 - 41.

هذا وقد ذكر غير واحد من السلف و المفسرين أن سليمان اشتغل بعرض الصافنات الجياد حتى فات وقت صلاة العصر، و الذي يقطع به أنه لم يتركها عمدا، بل نسيانا، كما اشتغل النبي صلى الله عليه و سلم يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب، و يحتمل أنه كان سائغا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو و القتال، و الأول أقرب، لأنه قال بعدها «ردوها على فطفق مسحاً بالسوق و الأعناق»، قال الحسن البصري: لا، قال: و الله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، و كذا قال قتادة، و قال السدي: ضرب أعناقها و عراقيبها بالسيوف، و لهذا عوضه الله عز و جل ما هو خير منها، و هي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر و رواحها شهر، فهذا أسرع و خير من الخيل (1).

و هكذا يوصم سليمان عليه السلام بأنه تلهى عن ذكر الله، و يوصم كذلك بأنه قتل الخيول البريئة المعدة للجهاد، دون سبب أو مسوغ معقول (2)، و من ثم فقد رد حذاق العلماء هذا القول بأنه عقوبة لما لا يستحق العقوبة، و بأنه إفساد للمال في غير منفعة المسلمين، و يقول الفخر الرازي أن هذا بعيد (أي عقر سليمان للخيل) و يدل عليه و جوه (الأول) أنه لو كان مسح السوق و الأعناق قطعها لكان معنى قوله تعالى: «وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ قَطْعَهَا، و هذا مما لا يقوله عاقل، بل لو قيل مسح رأسه بالسيوف فربما فهم منه ضرب العنق، أما إذا لم يذكر لقط السيف لم يفهم البتة من المسح العقر و الذبح، و (الثاني) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة، فأولها: ترك الصلاة، و ثانيها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة و الإنابة البتة، و رابعها: أنه خاطب رب العالمين بقوله: «ردوها علي» و هذه الكلمة لا يذكرها الرجل

ص: 106

1- تفسير ابن كثير 4/ 51-52 (ط بيروت 1986).

2- محمد الطيب النجار: المرجع السابق ص 40.

الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، و خامسها: أنه تبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها، وروي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه: «نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة»، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها (1).

على أن هناك اتجاه آخر في القصة، فلقد روي الطبري عن ابن عباس، كما روي القرطبي عنه و عن قتادة و الحسن و الزهري و ابن كيسان أن المراد بمسح سوق الخيل و أعناقها في هذه الآية الكريمة هو مسح حبالها و كشفها للغبار عنها، و قال الإمام الطبري في التفسير: و هذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس (أي جعله يمسح أعراف الخيل و عراقبيها حبالها) أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله صلى الله عليه و سلم لم يكن إن شاء الله ليعذب حيوانا بالعرقبة، و يهلك مالا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، و لا ذنب لها باشتغالها بالنظر إليها (2)، و من ثم يذهب الفخر الرازي إلى أن الصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد صلى الله عليه و سلم، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغز و فجلس و أمر بإحضار الخيل و بإجرائها، و ذكر أنني لا أحبها لأجل الدنيا و نصيب النفس، و إنما أحبها لأمر الله و طلب تقوية دينه، و هو المراد في قوله: «عن ذكر ربي»، ثم إنه بإعدادها و تسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق

ص: 107

1- تفسير الفخر الرازي 205/26-206.

2- تفسير الطبري 156/23، ثم قارن تفسير ابن كثير 52/4، حيث يقول: و هذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر، لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، و لا سيما إذا كان غضبا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، و لهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله عز و جل ما هو خير منها و هو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر و رواحها شهر، فهذا أسرع و خير من الخيل.

يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور، الأول: تشريفا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، والثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضح إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، والثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها و عيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، فهذا التفسير الذي ذكرنا، ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات (1).

هذا فضلا عن أن حب الخيل من سنن الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، روي النسائي وأبو داود وأحمد عن أبي وهب الجشمي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها» (2)، وروي البخاري ومسلم وأصحاب السنن ومالك وأحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (3)، وروي الطحاوي في مشكل الآثار بسنده عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، وامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة» (4)، هذا إلى أن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح، فكذلك في التوراة ممدوح (5)، وقد روت التوراة أن سليمان عليه السلام كان شغوبا بالخيل (6)، وأنه كان يقول:

ص: 108

- 
- 1- تفسير الفخر الرازي 26/206.
  - 2- سنن النسائي 6/218، سنن أبي داود 3/24، مسند الإمام أحمد 6/282.
  - 3- صحيح البخاري 4/34، صحيح مسلم 3/493، سنن الدارمي 2/212، سنن ابن ماجه 2/47، سنن أبي داود 3/22، سنن الترمذي 4/202، سنن النسائي 6/215، موطأ مالك ص 279، مسند الإمام أحمد 6/282.
  - 4- مشكل الآثار 1/132 (حيدرآباد 1333 هـ).
  - 5- تفسير الفخر الرازي 26/204.
  - 6- ملوك أول 10/26-29، أخبار أيام ثان 1/14-17.

«الفرس معدة ليوم الحرب»، وإن «كانت النصره من الرب» (1)، هذا وقد أثبتت الحفريات الأثرية أن سليمان عليه السلام قد أقام حظائر للخيل في أماكن متعددة من مملكته، وقد أُلقت بعثات الحفائر الأمريكية في مدينة «مجدو» القديمة، الضوء على هذه الحظائر، فلقد عثر المكتشفون، كما سنوضح ذلك في مكانة من هذه الدراسة، هناك على بقايا إسطبلات الخيول، والتي كانت دائما تنتظم حول فناء دائري مبلط ببلاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل إسطبل ممر عرضه عشرة أقدام، وقد وصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب، وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، وما يزال الكثير من هذه الإسطبلات محتفظا بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقي ظاهرة، كما تدل فخامة الإسطبلات والعناية الشديدة التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات على أن الخيل كانت مرغوبا فيها في تلك الأيام، وعند ما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدر بعض الباحثين لكل إسطبل 450 حصانا، و لكل حظيرة 150 عربة (2)، هذا وقد كشفت نظائر لإسطبلات محدد هذه في بيت شان و حاصور و تعنك و القدس (3).

و هناك كذلك آية الفتنة و الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان، يقول عز من قال: **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** (4)، فلقد

ص: 109

1- سفر الأمثال 21 / 31.

2- 591 . و كذا. F. W 124، tic- po، thgirilla. F. W 87، F، negniztaW. C 87، D، relamkneP، I، L، gezieF، 1933، p. 67.

3- مجدو: تل المتسلم، على مبعده 20 ميلا جنوب شرق حيفا، و حاصور: على مبعده 5 كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة و تسمى الآن تل قدح، و تعنك: على مبعده 8 كيلا جنوب شرق مجدو.

4- سورة ص: آية 34.

روي بعض المفسرين والمحدثين عدة روايات عن فتنة سليمان، وعن الجسد الذي ألقى على كرسيه، كثير منها تقدح في النبوة، وتتنافى مع العصمة التي أوجبها الله للأنبياء، والتي عرفت من الدين بالضرورة إجماعاً، فضلاً عن أنها تحط من مقام الاصطفاء الإلهي للنبوة والرسالة، وكلها قصص وروايات باطلة وفسادة عقلاً ونقلاً (1).

ولعل من أغرب وأنكر تلك الروايات، ما رواه ابن أبي حاتم (2) من أن سليمان عليه السلام، أراد أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمة، وكانت أحب نسائه إليه، فجاءها الشيطان بصورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي، فظنته سليمان، فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، وزادت بعض الروايات أنه تسلط حتى على نسائه (3)، وذهبت رواية ثالثة إلى أن الفتنة إنما كانت بسبب أن امرأته جرادة كانت تبكي على أبيها الذي قتله سليمان، فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته، وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواريتها يسجدن لها، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة (4)، ثم خرج

ص: 110

1- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 116.

2- مختصر تفسير ابن كثير 3/ 203 (هامش / 2).

3- تفسير الفخر الرازي 26/ 208، الدر المنثور 5/ 312، تاريخ الطبري 1/ 499، ثم قارن: تفسير الطبري (23/ 158) حيث يقول وسلط الشيطان على ملك سليمان كله غير نسائه، وفي تفسير ابن كثير (4/ 55) أن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفاً وتكريماً لنبيه عليه السلام.

4- هذه الأسطورة لا ريب أنها منقولة عن توراة اليهود المتداولة اليوم، والتي تزعم كذباً أن سليمان عليه السلام قد ضم إلى حريمه مئات سبعة من الزوجات، ومئات ثلاث من السراري، وأنه كان طوع أمرهن، حتى إنه أقام رغبة في مرضاتهن هياكل صغيرة، ودورا لعبادة الآلهة الوثنية، تقول التوراة «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساء أملمن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب أبيه داود، فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين وملكوم إله العمونيين، وعمل سليمان الشرفي عيني الرب، وبنى مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغربيات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»؛ وهكذا تصور توراة يهود، النبي الكريم، وهو يختم حياته، وغضب الرب، والعياذ بالله، قد حلّ به، لأن قلبه مال عن الرب ولم يحفظ وصاياه، (انظر: سفر الملوك الأول 11/ 1-13، محمد بيومي مهران. إسرائيل 3/ 213-218)، وانطلاقاً من كل هذا، فإن هذه الروايات التي ذكرها بعض المفسرين والمؤرخين، شأنها شأن ما جاء بتوراة يهود، إنما هي أكاذيب ضد النبي الكريم عليه السلام.

وحده إلى فلاء، وفرش الرماد فجلس عليه تائبا إلى الله، ورواية رابعة تذهب إلى أن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تقتنون الناس؟ فقال أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسية أربعين يوما، عدد ما عبد الوثن في بيته، ثم أعطاه أحد الصيادين سمكة فبقر بطنها، فإذا هو بالخاتم فتختم به، ووقع ساجدا لله، ورجع إليه ملكه، ثم أخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر (1).

هذا وقد أظهر حذاق العلماء، كابن كثير وابن حزم وابن العربي والفخر الرازي والنسفي والزمخشري وأبي حيان وغيرهم (2) زيف هذه الأساطير، يقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير: واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من

ص: 111

- 
- 1- انظر: تفسير الفخر الرازي 207/26-208، تفسير الطبري 157/23-158، تفسير ابن كثير 53/4-55، تاريخ الطبري 496/1-497، الكامل لابن الأثير 133/1-135، تاريخ يعقوبي 59/1-60.
  - 2- انظر: تفسير ابن كثير 55/4، تفسير البحر المحيط 397/7، تفسير الكشاف 375/3، تفسير الفخر الرازي 208/26-209، تفسير النسفي 42/4، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل - القاهرة 1964 - الجزء الثالث ص 20، ابن العربي: أحكام القرآن 4/1638 (فاس 1376 هـ)، محمد محمد أبو شهبه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير - القاهرة 1393 هـ ص 380.



الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رأهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام، ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية، و(الثاني) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة، لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع الأنبياء والزهاد، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى، و(الثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح، و(الرابع) لو قلنا أن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟.

وأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء الأول أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن، فقالت الشياطين إن عاش صار متسلطا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان ذلك فكان يريبه في السحاب فبينما هو مشغول في مهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتا على كرسية فتنبه على خطئه في أنه لم يتوكل فيه على الله، فاستغفر ربه وأتاب، و(الثاني) روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسية فوضع في حجره، فوالذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرسانا أجمعون»، فذلك قوله تعالى: **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**، و(الثالث) ولقد فتنا سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، وألقينا على كرسية منه جسدا وذلك لشدة المرض، و(الرابع) لا- يبعد أن يقال إنه ابتلاء الله تعالى بتسليط خوف وتوقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد

الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم أزال الله عنه ذلك الخوف و أعاده إلى ما كان عليه من القوة و طيب القلب (1).

وأيما كان الأمر، فإن العلماء المحققين إنما يذهبون إلى أن يكون بيان الفتنة في قول سليمان عليه السلام و هو ما يتصل أيضا بالخيل اتصالا- قريبا، فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع و تسعين (2) كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، و الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون» (3)، و المراد بشق رجل، تفسره رواية أخرى عند البخاري أيضا في كتاب الأنبياء بلفظ «إلا واحدا ساقطا أحد شقيه» أي مشلولا فاقتدا لكثير من مظاهر الرجولة، و لما رأى سليمان عليه السلام حرمانه مما تمنى من الولد للجهاد بهم في سبيل الله، لأنه لم يقل إن شاء الله، علم أنه ابتلى فأسرع إلى الإنابة إلى الله تعالى و الرجوع إليه بالتوبة من عدم استثنائه في طلبه و استعانتة بمشيئة الله تعالى ثم استغفر ربه، متذلا خاشعا راجيا عفوه و مغفرته و فضله فقال: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ

ص: 113

1- تفسير الفخر الرازي 26/208-209.

2- كانت زوجات سليمان يبلغن المائة أو أقل، كما جاء في روايات الحديث المتعددة عند البخاري (صحيح البخاري 4/27، 197، 7/50، 8/162، 9/169) ثم قارن ذلك برواية التوراة التي جعلتهن لفا «سبع مائة من النساء السيدات، و ثلاث مائة من السراري (ملوك أول 1/11-4) و كذا قارنه بما جاء في كتب المفسرين و المؤرخين التي وافقت رواية التوراة (تاريخ ابن خلدون 1/113، الكامل لابن الأثير 1/129) و في رواية يعقوبي 1/59) أنهن سبعمائة، و في تفسير الطبري (23/162-163) عن ابن عباس قال: كان سليمان في ظهره ماء مائة رجل بان له ثلاث مائة امرأة، و تسع مائة سرية».

3- صحيح البخاري 4/27، و انظر: تفسير القرطبي ص 5645-5646.

بَعْدِي (1) ليستعين بذلك الملك على الجهاد في سبيل الله، ناشرا لدين الله، مقيما لأحكام شرعه، فيحقق به من النصر على أعدائه أكثر مما كان يؤمله فيما فاتته من إنجاب مائة ولد.

ص: 114

---

1- سورة ص: آية 35، وانظر: تفسير القرطبي ص 5648-5649.

المسجد الأقصى أو بيت المقدس، موطن العديد من الأنبياء والمرسلين، ابتداء من أبيهم إبراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، و ثاني مسجد وضع في الأرض بعد الكعبة البيت الحرام (1) وأولى القبلتين (2)، وثالث الحرمين الشريفين (3)، و مسرى النبي الأعظم سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و صدق الله العظيم حيث يقول: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (4)، و ليس هناك من شك في أن هذا الإسراء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف إنما هي رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد صلى الله عليه و سلم رسول الله و خاتم النبيين،

ص: 115

- 
- 1- صحيح البخاري 4/177، صحيح مسلم 1/370، 2/153-154، مسند الإمام أحمد 5/150، 167، تفسير القرطبي ص 1379، تفسير المنار 4/6-7.
  - 2- انظر: سورة البقرة: آية 142-144، صحيح البخاري 6/25-27، صحيح مسلم 2/160-162، مسند الإمام أحمد 5/246-247، مجمع الزوائد للهيثمى 2/13.
  - 3- انظر: صحيح مسلم 1/541 (القاهرة 1971)، الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد ص 287.
  - 4- سورة الإسراء: آية، و انظر: تفسير القرطبي ص 3819-3828، تفسير ابن كثير 3/5-41، فتح الباري 7/159-173، صحيح البخاري 5/66-69/140.

و تربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، و كأنما أريد بهذه الرحلة المباركة إعلان وراثته النبي الخاتم محمد صلى الله عليه و سلم لمقدسات الرسل قبله، و اشتغال رسالته على هذه المقدسات، و ارتباط رسالته بها جميعاً، و لهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلهم و دارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، و الرئيس المقدم، صلوات الله و سلامة عليهم أجمعين، و من ثم فقد كانت رحلة الإسراء ترمز إلى أبعد من حدود الزمان و المكان، و تشمل آمادا و آفاقا أوسع من الزمان و المكان، و تتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى (1).

و لعل سائلا يتساءل: من هذا الذي نال شرف بناء المسجد الأقصى؟

أخرج الإمام أحمد و ابن ماجة و ابن خزيمة و ابن حبان و الحاكم و النسائي (و اللفظ له) بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: إن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز و جل خلا لا ثلاثة، سأل الله عز و جل حكما يصادف حكمه فأوتيته، و سأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، و سأل الله عز و جل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج من خطيبته كيوم ولدته أمه» (2).

و روى البخاري و مسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول، قال المسجد الحرام، قلت ثم أي، قال المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما، قال أربعون سنة، ثم أينما أدركت الصلاة

ص: 116

1- في ظلال القرآن 2212/4، تفسير ابن كثير 5/3.

2- سنن النسائي 43/2، سنن ابن ماجة 1/451، انظر: جامع الأصول ج 9 حديث 6307، صحيح الجامع الصغير: حديث 2086، البداية و النهاية 2/26، تفسير ابن كثير 4/58.

بعده فصله، فإن الفضل فيه» (1)، وفي رواية عن أبي ذر أيضا قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول، قال المسجد الحرام ثم قلت أي، قال المسجد الأقصى، قلت كم بينها، قال أربعون سنة، وإنما أدركت الصلاة فصل فهو مسجد» (2). هذا وقد أثار هذان الحديثان الشريفان جدلا بين العلماء، على أساس أن إبراهيم عليه السلام هو باني البيت الحرام، وأن سليمان عليه السلام هو باني المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام (3)، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوي بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بنائهما، فيحتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد ذلك (4)، ولعل قريبا من هذا ما ذهب إليه ابن الجوزي والقرطبي بأنه ليس المراد أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس بناء الكعبة المشرفة (5)، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بيت المقدس، وإنما هما جددا ما كان قد

ص: 117

1- صحيح البخاري 177/4، صحيح مسلم 370/1.

2- صحيح مسلم 153/2 - 154 (القاهرة 1971)، مسند الإمام أحمد 150/5، 167، تفسير الطبري 22/7، تفسير ابن كثير 63/2، تفسير القرطبي ص 1379، تفسير المنار 6/4 - 7.

3- الواقع أن الفترة بين وفاة إبراهيم وولادة سليمان عليهما السلام، لا تصل أبدا إلى ألف عام، فإبراهيم عاش في الفترة (1940 - 1765 ق.م) وسليمان عاش في الفترة (973 - 922 ق.م).

4- صحيح مسلم 153/2 (هامش/2).

5- الرأي عندي أن الكعبة المشرفة ترجع في بنائها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمن إبراهيم (ابن كثير: البداية والنهاية 1/163، 2/298، تفسير المنار 1/466-467، الكشاف 1/446، تفسير الطبري 3/70، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية في القرآن الكريم 1/183-185).

أسسه غيرهما (1)، كما ذهب برهان الدين الزركشي إلى أن سليمان عليه السلام، إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه (2) على أن الأستاذ رشيد رضا يذهب إلى أن هذا التفسير ضعيف لأنه سماه بيتا، ولو جعل المكان مسجدا ولم يبين فيه لما سمي بيتا، بل مسجد أو قبلة، ثم إن ذلك مبنى على القول بأن إبراهيم هو الذي بنى أول مسجد للعبادة في أرض بيت المقدس، وذلك معقول، وإن لم يكن عندنا نص صريح (3).

هذا ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن الذي أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام، وأن سليمان كان مجددا له، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضا، حيث يقول: وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى (4)، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله، وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث (يعني حديث أبي ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء (5) كما ذهب إلى نفس الرأي

ص: 118

1- فتح الباري 6/408، تفسير القرطبي 4/138.

2- الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد ص 30.

3- تفسير المنار 7/4 (القاهرة 1973).

4- يذهب أهل الكتاب، كما جاء في العهد القديم، إلى أن داود عليه السلام، كان أول من فكر في بناء المسجد الأقصى، بل وقد اشترى مكانه من رجل ييوسى يدعى «أرنان» (أرونا أو أرونة) كان قد اتخذه جونا أو بيدرا، وكان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل، فرفض داود واشتراه منه، وكذا بقرا ليقدمه محرقة للرب، بخمسين شاقلا من الفضة، وتذهب الرواية إلى داود قد منع من بناء البيت، لأن ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان، ولكنها قد سجلت معاونة داود الفعالة لولده سليمان في إقامة البيت، وذلك بتجهيز المواد اللازمة للبناء، فضلا عن كميات من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها (صموئيل ثان 24/16-25، أخبار أيام ثان 22/1-19، محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/843-844، تاريخ ابن خلدون 2/111-112) ثم قارن: تفسير ابن كثير 4/58 (ط بيروت 1986).

5- ابن كثير: البداية والنهاية 1/163، 2/298.

الزركشي في إعلام الساجد (1)، و الحميري في الروض المعطار (2)، و أخيراً فلقد ربط البعض بناء المسجد الأقصى، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل، بالملائكة، و ربطه آخرون بآدم عليه السلام، بل إن فريقاً رابعا ربطه بسام بن نوح عليه السلام (3)، و جاء في تفسير القرطبي أن آدم هو الذي بنى المسجد الأقصى، بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاماً، و أن يعقوب قد أقام قواعده و جدده فقط، بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق (4).

و يذهب الدكتور عويد المطرفي إلى أن أقرب الروايات إلى المعقول أن الذي بنى المسجد الأقصى تأسيساً، إنما هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة، و رجوعه إلى مستقرة بالشام (5)، كما استظهر ذلك أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (6)، من أن إبراهيم عليه السلام، كما وضع الكعبة، وضع بيت المقدس (7).

و في الواقع فإن كثيراً من المفسرين و المؤرخين إنما يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى بيت المقدس، ففي تفسير أبي السعود أن سليمان لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج، و هناك في مكة كان يذبح كل

ص: 119

- 
- 1- الزركشي: المرجع السابق ص 30.
  - 2- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1975 ص 556.
  - 3- مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل النجف 1388 هـ، الجزء الأول ص 8، فتح الباري 6/ 409، الزركشي: المرجع السابق ص 30.
  - 4- تفسير القرطبي 4/ 138، فتح الباري 6/ 408-409.
  - 5- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 149.
  - 6- سورة آل عمران: آية 96.
  - 7- تفسير البحر المحيط 6/ 3.



يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاه (1)، ويقول الحافظ السهيلي: وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكماله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه إيلياء، و تفسيره العربية: بيت الله (2)، ذكره البكري، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضا في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام (3)، ويقول الطبري في التاريخ:

و أصاب بني إسرائيل في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله و يسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدا، وكان ذلك فيما قيل، لإحدى سنة مضت من ملكه، و توفي قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان. باستتمامه، و قتل القائد الذي قتل أخاه (يعني يوأب الذي قتل أبشالوم كما ذكرنا من قبل) فلما دفنه سليمان نفذ لأمره في القائد و قتله و استتم بناء المسجد، ثم يتحدث الإمام الطبري بعد ذلك عن التعداد الذي قام به داود في بني إسرائيل، و البلايا التي حاقت بالقوم بسببه، كما أشرنا من قبل، و أن داود استغفر ربه و طلب العفو عن بني إسرائيل، فاستجاب الله لهم و رفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم يغمدونها، يرتقون في سلم من ذهب عن الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه مسجد، فأراد داود أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، و أنك قد صبغت يديك في الدماء، فلست بانية، و لكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان

ص: 120

1- تفسير أبي السعود 278/6، و انظر تاريخ ابن خلدون 2/113.

2- قارن: (محمد بيومي مهران: إسرائيل الجزء الثاني ص 1155-1158، الإسكندرية 1979).

3- مختصر تفسير ابن كثير 2/354، هامش 1.

أسلمه من الدماء، فلما ملك سليمان بناه و شرفه (1): و يتفق ابن الأثير في روايته مع الطبري تماما (2).

و يقول المسعودي: و ابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس، و هو المسجد الأقصى، الذي بارك الله عز و جل حوله (3)، و يقول اليعقوبي: و ابتدأ سليمان في بيت المقدس و قال: إن الله أمر أبي داود أن يبنى بيتا، و إن داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمي، فأرسل سليمان في حمل خشب الصنوبر و خشب السرو، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة، فأحكمه و لبسه الخشب من الداخل، و جعل الخشب منقوشا، و جعل له هيكلًا مذهبا، و فيه آلة الذهب ثم أصعد تابوت السكينة فجعله في الهيكل، و كان في التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى (4)، و يقول ابن خلدون: و لأربع سنين من ملكه (أي سليمان) شرع في بناء بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، و قد تم بناء الهيكل في سبع سنين (5).

هذا و قد أشرنا من قبل إلى الحديث الشريف الذي يقول فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن سليمان عليه الصلاة و السلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز و جل خلا لا- ثلاثا، سأل الله عز و جل حكما يصادف حكمه فأوتيه، و سأل الله عز و جل ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، و سأل الله عز و جل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه» (6)، و عن رافع بن عمير قال سمعت رسول

ص: 121

1- تاريخ الطبري 484/1-485، ثم قارن: صموئيل ثان 1/7-17، 24/16-24.

2- الكامل لابن الأثير 1/127-128.

3- مروج الذهب للمسعودي 1/70، و انظر 1/69.

4- تاريخ اليعقوبي 1/58.

5- تاريخ ابن خلدون 2/111-113، ثم قارن ملوك أول 6/1-25/9.

6- سنن النسائي 2/43، سنن ابن ماجه 1/451، تفسير ابن كثير 4/58.

اللّٰه صلي اللّٰه عليه و سلم يقول: قال اللّٰه عز و جل لداود عليه الصلّٰة و السلام ابن لي بيتا في الأرض، فبنى داود بيتا لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى اللّٰه إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتي، قال يا رب هكذا قضيت من ملك استأثر، ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور سقط ثلاثا فشكا ذلك إلى اللّٰه عز و جل، فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتا قال و لم يا رب، قال لما جرى على يديك من الدماء، قال يا رب أو ما كان ذلك في هواك و محبتك، قال بلى و لكنهم عبادي و أنا أرحمهم، فشق ذلك عليه فأوحى اللّٰه إليه لا تحزن فإني سأقضي ببناءه على يدي ابنك سليمان، فلما مات داود أخذ سليمان في بناءه، و لما تم قرب القرابين و ذبح الذبائح و جمع بني إسرائيل، فأوحى اللّٰه إليه قد أرى سرورك ببنيان بيتي، فسألني أعطك، قال أسألك ثلاث: خصال، حكما يصادف حكمك، و ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، و من أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلّٰة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال رسول اللّٰه صلي اللّٰه عليه و سلم: أما الثنتان فقد أعطيهما، و أنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة» (1).

و انطلاقا من كل هذا، فإنني أميل، حدسا عن غير يقين، إلى أن إبراهيم عليه السلام، هو الذي وضع الأسس للمسجد الأقصى، على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، و ليس أول بيت، و هي العقبة التي احتج بها صاحب تفسير المنار، و على أساس ما جاء في الأحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذي بنى بيت المقدس، و على أساس ما ذهب إليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الأقصى بعهد أبيه إليه بذلك، و على أساس أن إبراهيم عليه السلام، طبقا لرواية العهد القديم (2)، إنما قد زار القدس، و أنه قد أقام المحاريب لله في فلسطين،

ص: 122

1- تفسير ابن كثير 58/1 (ط بيروت 1986).

2- تكوين 6/12-9، 14/19-20.

و خاصة في شكيم و بيت إيل و بلوطات ممرا، و من ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الأنبياء قد فعل الشيء نفسه في القدس، هذا فضلا عن أنه إذا ما كان صحيحا ما ذهبنا إليه في هذه الدراسة وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش في الفترة (1765-1940 ق.م) و أنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالي عام 1824 قبل الميلاد(1)، و من ثم فإن بناءه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاما، أي حوالي عام 1784 قبل الميلاد، يكون أمرا مقبولا، و أن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لأنه طبقا لما جاء في هذه الدراسة، و كما أشار العهد القديم(2)، فإن الخليل عليه السلام قد رزق بولده إسحاق عليه السلام، و قد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق بإسماعيل و هو في السادسة و الثمانين من عمره) و قد عاش إسحاق 180 عاما، و من ثم فهو كان يعيش في الفترة (1660-1840 ق.م)، و أن يعقوب كان يعيش في الفترة (1633-1780 ق.م) على أساس أنه ولد لأبيه إسحاق، و هو في الستين من عمره، و أنه عاش 147 سنة، و أن بنى إسرائيل قد دخلوا مصر حوالي عام 1650 قبل الميلاد، حين كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره(3)، و أما سليمان فهو الذي بدأ بناء المسجد الأقصى، الذي وضع إبراهيم أسسه، في عام حكمه الرابع، حوالي عام 957 قبل الميلاد(4).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز إلى رواية العهد القديم

ص: 123

- 
- 1- انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم 1/183-197).
  - 2- تكوين 17/17، 26/25، 28/35، 9/47، 28.
  - 3- انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/80-82، دراسات تاريخية من القرآن الكريم 1/194-195.
  - 4- انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/840-860.

عن بناء المسجد الأقصى، والذي تدعوه بيت الرب، حيث تذهب إلى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا في بيدر أرونة اليبوسي، فاشتره منه داود و معه بقر للقرابين بخمسين شاقلا من الفضة (1)، هذا و تشير الرواية بوضوح إلى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر في إقامة بيت للرب، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولا حسنا من رب إسرائيل، الذي كان يدخر هذا العمل لولده سليمان (2)، و مع ذلك فإن داود عليه السلام، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، راضيا مرضيا عنه، أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان في إقامة بيت الرب، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، و كان القوم في عصره ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، و سنرى أن الاعتماد على الفينيقيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود و سليمان حتى يرتفع هيكل الرب، و تقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجميع الأجانب الذين في أرض إسرائيل فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، و هيا داود حديدا كثيرا للمسامير لمصاريع الأبواب و الأوصال، و نحاسا كثيرا بلا وزن، و خشب أرز لم يحدد له عدد»، هذا فضلا عن كميات كبيرة من الذهب و الفضة و النحاس و الحديد و الخشب (3).

و هكذا، و في ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالي عام

ص: 124

---

1- من عجب أن بعض الروايات العربية التي تنسب إلى أبي بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي، و ليس يوسيا كنعانيا، و أن داود أراد أن يغتصبه منه، فنهاه ربه عن ذلك، و من ثم فقد اشتره بتسعة قناطير من الذهب (السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى 1/ 343 ط القاهرة 1320 هـ) و الثمن جهد مغالا فيه، بل إن رواية التوراة جعلت ثمنه هو و البقر، خمسين شاقلا من الفضة صموئيل ثان 24/24).

2- صموئيل ثان 1/ 17-17، 24-26/24، ملوك جول 2/2، و انظر: تفسير ابن كثير 1/ 58، تاريخ اليعقوبي 1/ 58، تاريخ ابن خلدون 1/ 111، ابن الأثير 1/ 127-128.

3- أخبار أيام أول 2/22-16، أخبار أيام ثان 2/17-18.

957 ق. م) وضع الحجر الأساسي لبناء بيت المقدس الذي استمر العمل فيه قائماً على قدم و ساق سبعة أعوام، ثم واصل مهرة الصنّاع و الفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان و نساؤه (1).

هذا و لم يقدم لنا موقع المعبد أي دليل الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، و من هنا فإن أية محاولة في هذه المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد (2)، غير أن المعلومات التي يوفرها سفر حزقيال (40-44) للمعبد الجديد، ربما تجعل من الإمكان استعادة تخطيطه، كما يمكن قول شيء عن شكله الخارجي و تنظيمه الداخلي (3)، و من ناحية أخرى فإن المعلومات التي جاءت في سفر الملوك الأول (1/6-38) إنما تشير بوضوح إلى التأثير المصري و العراقي، رغم الإشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية و بضخامة الإنفاق (4).

و نقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الأقصى، دعا إليه شيوخ إسرائيل و كل رؤوس الأسباط «لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، و أن الجميع، و على رأسهم سليمان، قد اجتمعوا أمام التابوت «يذبحون من الغنم و البقر ما لا يحصى و لا يعد من الكثرة، و أدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت، في قدس الأقداس، و هنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن الكهنة، ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، و يعلن سليمان أن الرب إنما يسكن في الضباب (5)، و نقرأ في سفر الملوك الأول (8/22-53)

ص: 125

- 
- 1- ملوك أول 1/6-2، 37-38، 2/7، و انظر: تاريخ ابن خلدون 2/112-113.
  - 2- J. L. M. seryM ,gnitcurtsnoceR 'nomoloS dna elpmeT ,trA fo skroW dna sgnidluB rehto dna QEP, و كذا، p. 14 F 1948. 80 F, AB, elpmeT 'nomoloS gnitcurtsnoceR, reilraG. L. P 2. p, 1951، 14
  - 3- . O 598 . tic-po, tldfssiE.
  - 4- أندريه إيمار و جانين أو بوايه: المرجع السابق ص 267.
  - 5- ملوك أول 8/1-13.



على التل الشرقي أو الغربي من المدينة المقدسة (1).

وفي عام 135 م استولى الروم على القدس، ثم أمر الامبراطور «هدريان» (117-138 م) بتدمير المدينة تماما وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «إيليا كاييتولينا» (anilotipaC aileA) وأبدل المعبد القديم بمعبد آخر كرس للإله الوثني «جوبتر كاييتولينس» (sunilotipaC) ثم قام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين، كدولة و قومية، و انتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسيا و سكانيا و دينيا (2).

ص: 127

---

1- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1150/2 - 1155، و كذا. C 107- 103، p, tic- po, htoR. C 107- 103، و كذا، yrotsiH sa elbiB ehT, 1967. relleK. W 388. p،

2- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1155/2 - 1158، و كذا 23، 1927، p، 92. H 92. p، 1927، و كذا، F, VPDZ, و كذا، F, BJ P, nnamhtartS. H 92. p، 1927، و كذا، netluhcS. A 180. p، 1933، 56، p, tic- po, htoN. M 454- 453.





جاءت قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ في التوراة (1) و الإنجيل (2) و القرآن العظيم (3)، و إن اختلفت الكتب الثلاثة في سردها للقصة تبعاً للهدف من القصة لكل منها، غير أنها جميعاً لم تذكر اسم ملكة سبأ، أو الأرض التي كانت تقيم فيها، إلا إذا كان المراد بكلمة سبأ هنا، تلك الدولة التي قامت في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (4).

و من عجب أن يذهب بعض النقاد ممن تعرضوا لقصاص التوراة بالنقد، إلى أن قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام، إنما هي أسطورة من الأساطير دونها كتبة التوراة لبيان عظمة سليمان و حكمته (5)، و لو تريت هؤلاء البعض من النقاد بعض الشيء، و لما وقعوا في هذا المنزلق الخطير، و ربما خيل لهؤلاء المتحذلقين من أدياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله في الإنكار، أنه خبر يسهل إنكاره بغير حجة، و كأن المنكر لا يطالب بحجة، و لا

ص: 129

1- ملوك أول 10 / 1-13، أخبار أيام ثان 9 / 1-9.

2- إنجيل متى 12 / 42.

3- سورة النمل: آية 20-44.

4- قدم المؤلف دراسة مفصلة عن تاريخ دولة سبأ في أدوارها الأربعة (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم- الرياض 1977 ص 261-368).

5- J 843. p. 1936, -5, sgnitsaH. A, elbiB eht fo yranoitciD A, grubnidE.

يعاب على النفي الجزاف، و الحق أن إنكارنا لأمر تجمع عليه التوراة والإنجيل و القرآن العظيم، لا يتفق و منهج البحث العلمي، فضلا عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء بإجماع، أضف إلى ذلك إنه ليس في زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام أمرا مستحيلا، أو تصرفا شاذا يستوجب الاستنكار، كما يجنح إلى ذلك بعض الباحثين (1)، و خاصة إذا كان هؤلاء الباحثون لهم دراية بقصص القرآن.

على أن هناك فريقا آخر من الباحثين إنما يذهب إلى أن هذه القصة لا يمكن فهمها جيدا، إلا إذا قدرنا أن السبئيين إنما كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب (2)، و لعل أصحاب هذا الرأي ممن يذهبون إلى أن السبئيين إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمال بلاد العرب، في بلاد الجوف أو قريبا منها، و ليس في جنوبها (3)، و أن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في جنوب بلاد العرب، إلا حوالي عام 800 قبل الميلاد (4)، أي بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرن و نصف القرن من الزمان، و من ثم فإن هذه الملكة التي زارت سليمان عليه السلام، لم تكن ملكة سبأ الشهيرة في اليمن، وإنما كانت ملكة على مملكة

ص: 130

---

1- محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم- بيروت 1969 ص 162-163.

2- فريتز هومل: التاريخ العربي القديم ص 63 (مترجم).

3- انظر عن: السبئيين و الآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص 265-270).

4- يرى بعض الباحثين أن عصر مملكة سبأ إنما يبدأ حوالي عام 750 ق. م و يرى آخرون أنه كان حوالي عام 800 ق. م، و يذهب فريق ثالث إلى أنه كان في القرن التاسع قبل الميلاد، و الرأي عندي أنه كان في القرن العاشر، أو قبله بقرن، اعتمادا على علاقة ملكة سبأ بسليمان عليه السلام، و الذي كان، فيما يجمع المؤرخون، يعيش في القرن العاشر قبل الميلاد (انظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 271-273، جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 2/269، و كذا، 173، 1955، ROSAB 38. p، و كذا، aibarA، 1958، R 37. p، dna newoB .W thgirblA ,lacigoloeahcrA htuoS ni seirevocsiD ,neihnuM، 1963، G. A 122. p، nnamhor.

صغيرة في أعالي شبه الجزيرة الغربية، كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال، أو هي ملكة على الحكومات المحلية في منطقة معان و العلاء و التي ورثها السبئيون عن المعينيين (1)، و يستدلون على ذلك بأدلة منها (أولا) العثور على أسماء ملكات عربيات مثل زبيبة و شمس (2) و يثعي (ياتي) و تلخونو (تلخونو) و تاربو (بتوءة) (3) و بانلة (بايلو) و غيرهن في النصوص الآشورية، في حين أن العلماء لم يعثروا حتى الآن على اسم أبة ملكة في النصوص العربية الجنوبية، غير أن هذا السبب في حاجة إلى إعادة نظر، ذلك لأن هؤلاء الملكات اللائي ذكرن أنفا إنما عشن في فترة متأخرة زمنيا عن عصر سليمان عليه السلام، كما أن عدم العثور حتى الآن على أسماء ملكات في اليمن لا يعني بالضرورة عدم وجود ملكات في تاريخ سبأ، كما أنه من المعروف أنه لم تجر حتى الآن حفريات كافية تثبت عدم وجود ملكات في سبأ، و من يدري فقد تكشف لنا الحفريات في وقت قريب أو بعيد عن أسماء

ص: 131

- 1- كثيرا ما تخلط الوثائق الآشورية بين ملك معين أو سبأ في جنوب غرب بلاد العرب، و بين الوالي المقيم في العلاء و معان نائبا عن ملك معين أو سبأ، و من ثم فقد كان الآشوريون يذكرون هذا الوالي كما لو كان هو الملك الجنوبي، و هذا يفسر لنا الإشارات التي ترد في الوثائق السريانية و العبرية عن المعينيين و السبئيين و تذكرهم كما لو كانوا يقيمون في الجنوب الشرقي للبحر الميت، و قد أدى هذا الخلط إلى أن يظن البعض أن الملكين الآشوريين سرجون الثاني و سنحريب قد وصل نفوذهما إلى سبأ نفسها، و مع أن المراد في النصوص الجاليات المعينية و السبئية في العلاء- و معان، و إن أطلق الآشوريون على حكامها لقب ملك (محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص 275-278 و كذا، P. B. J. ylluh. ehT, dnuorgkcaB fo malsI . 141. p, 1926. . lisuM. A 295. p، و كذا. F 580. H. lemno, G. ssirdnurp)
- 2- TENA, LSJA, sneuQ cimaisI- erP, tobbA. N 4. p، 1941، 58، و كذا، p، tic- pO, lisuM. A 477 . 1966، 288. p، niehcnepPO. L. A
- 3- atreseD aibarA, p، tic- pO, miehneppO. L. A 291. و كذا. II, BARA, lliulnekcuL. D. D 518. p، 1927، و كذا. .lisuM. A 480. p، 1938

ملكات في اليمن، فعلم ذلك عند علام الغيوب.

ومنها (ثانيا) صعوبة تصور زيارة ملكة عربية جنوبية لسليمان عليه السلام، وتعجبها من بلاطه وحاشيته وعظمة ملكه، مع أن بلاط أورشليم (القدس) يجب ألا يكون شيئا بالنسبة إلى بلاط ملوك سبأ، ومن ثم يجب ألا تكون هذه الملكة التي زارت سليمان، في نظر هذه الجماعة من علماء التوراة وبعض العلماء المحدثين (1)، إلا ملكة عربية صغيرة، لم تكن بعيدة عن عاصمة دولة سليمان في فلسطين، فقد تكون في جبل شمر، وتقع بين الحافة الجنوبية للنقود الكبير، وفي وادي الرمة، وتتكون من سلسلتي جبال أجا وسلمى، وقد تكون في نجد أو في الحجاز (2).

والرأي عندي، أن من لجأوا إلى المقارنة بين بلاط سليمان عليه السلام، وبلاط ملكة سبأ، للوصول إلى رأي بشأن ملكة سبأ، وهل هي ملكة عربية جنوبية أو شمالية، إنما قد أخطئوا الطريق، فالمقارنة هنا لا تجدي نفعا ولا تحل المشكلة، كما أنها لا تعدها، بل إن المقارنة لا تصح هنا أصلا بحال من الأحوال، وذلك لأن بلاط سليمان، فيما نرى ونؤمن به الإيمان كل الإيمان، إنما يمثل معجزة نبي، وليس عظمة ملك من الملوك، فالحديث هنا عن سليمان النبي عليه السلام، وليس سليمان الملك، والذي يقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن القصة، كما جاءت في سورة النمل،

ص: 132

- 
- 1- انظر عن هذه الآراء: و كذا. p, tic- po, htoN. M 206 و كذا. p, tic- po, sdoL. A 375-21. p, tic- po, htoR. C 23-21. P, tic- po, slleW G. H 77-76 و كذا. SENJ, tamalaM. A 16-13، 9-48., on 21. p، 1963، 22، كذا، P، 368 و كذا، H. J. 529. tpygE fo yrotsih A, detsaerB.
- 2- جواد علي: المرجع السابق 1 / 636، 2 / 262، عبد الفتاح شحاتة: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ص 83-89 و كذا، 1934. J 181. p، yremogtnoM. A, yremogtnoM. J 181. p، 1934. aihpledalihP, elbiB eht dna aibarA، كذا، siraP, malsIL tnava airyS ne sebarA و كذا، 1907. R 10. p، seL, duassuD. و كذا. P, euqilbiB euveR, mrohD E 105.

و التي سنوردها هنا بنصها كاملاً فيما بعد، ليعرف تماماً أن الملك سليمان ما كان في استطاعته مثلاً أن يفعل بعرشها ما فعل، وإنما الذي يستطيع ذلك، بإذن الله، إنما هو سليمان النبي، ذلك لأن ما حديث إنما كان يمثل معجزة للنبي الكريم، سيدنا سليمان عليه السلام، و صدق الله العظيم حيث يقول تعالى، على لسان سليمان، فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (1).

أضف إلى ذلك أن سليمان عليه السلام، كما رأينا من قبل، قد منحه الله تعالى كثيراً من المعجزات، فقد علمه الله منطق الطير و سائر لغات الحيوان، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، وربما تحدث معها، كما كان الأمر مع الهمد و النمل، كما كان جند سليمان عليه السلام مؤلفاً من الإنس و الجن و الطير، و قد نظم لهم أعمالهم و رتب لهم شئونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل يحيط به الجند و الخدم من كل جانب، فالإنس و الجن يسيرون معه، و الطير تطلّله بأجنحتها من الحر، هذا فضلاً عن تسخير الريح له، بل و تسخير طائفة من الجن و مردة الشياطين يعملون له من الأعمال ما يعجز عنها البشر، كبناء الصروح الضخمة و القصور العالية و القدور الراسيات و الجفان التي تشبه الأحواض، و أخيراً، و ليس آخراً، فكما الآن الله الحديد لداود أبيه، فقد أسال له عين القطر (2)، و كل تلك أمور من معجزات النبي سليمان عليه السلام، و ما كان و لن يكون أبداً لملكة سبأ، أيا كانت، شيء من ذلك، و من ثم فالمقارنة بين البلاطين غير ذي موضوع.

ص: 133

1- سورة النمل: آية 38-40.

2- انظر سورة الأنبياء: آية 81-82، النمل: آية 15-31، سبأ: آية 12-13، ص: آية 30-40.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا نستطيع أن نقدم، من أي الذكر الحكيم و من دراستنا لتاريخ العرب القديم، كثيرا من الأدلة التي تشير بوضوح إلى أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام، إنما كانت ملكة عربية جنوبية، و أنها كانت تجلس على عرش مملكة سبأ المشهورة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية و التي منها (أولا) أن الذي يفهم صراحة من القصة القرآنية أن سليمان عليه السلام، لم يكن يعرف شيئا عن هذه الملكة سواء من ناحية دولتها أو ديانتها (1)، و من هنا نراه يقول للهدهد، بعد أن أعلمه خبرها قال: سَدَّ نَظْرُ أَ صَدَقَتْ أُمَّ كُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (2)، و ليس من المقبول أن يكون سليمان، و هو الملك العظيم، كما هو النبي الكريم، لا يعرف شيئا عن ملكة سبئية تقيم في مجاورات فلسطين، و على تخوم دولته، خاصة و أن هناك علاقات تجارية بين سبأ و فلسطين، تتولى أمرها الجالية السبئية في العلا و معان، كما أن فلسطين مقر دولة سليمان، إنما تقع في نهاية طريق القوافل التي تشرف عليهما الجالية السبئية في واحة «ديدان» (العلا) و معون (معان)، هذا فضلا عن أن «عصيون جابر» (تل الخليفة على الطرف الشمالي لخليج العقبة) و كانت نقطة بداية تحرك أسطول سليمان التجاري، إنما كانت تمثل محطة هامة في طريق القوافل التجارية القادمة من جنوب بلاد العرب إلى وادي عربة و شرق الأردن حتى سورية، و هو طريق ذو أهمية خاصة للملك سليمان (3)، فكيف لا يعرف سليمان شيئا عن هذه الملكة الشمالية، سواء كانت ملكة لمملكة مستقلة أو على الجاليات السبئية في العلا و معان، الأمر الذي يشير بوضوح إلى أن هذه الملكة التي زارت سليمان إنما كانت ملكة في جنوب بلاد العرب حيث تقع دولة سبأ المشهورة.

ص: 134

1- سورة النمل: آية 22-26.

2- سورة النمل: آية 27.

3- E. O 593. p. 1975, II, HAC ni, modgniK werbeH ehT, tdefssiE. O 593. p. 1975, II, HAC ni, modgniK werbeH ehT, tdefssiE.

ومنها (ثانيا) أن النص القرآني صريح في أن هذه الملكة إنما كانت ملكة دولة سبأ، قال تعالى: **وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ** فالآية الكريمة تحدد هنا مجيء الهدهد من سبأ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذا الاسم غير دولة سبأ المعروفة في جنوب غرب بلاد العرب، ومنها (ثالثا) أن وصف القرآن الكريم لملكة سبأ بها **أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** (1)، يجعلها يقينا ملكة جنوبية، وليست شمالية، بخاصة وأن القرآن الكريم يصف قومها بالقوة والبأس الشديد، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، «و يصف هذه الملكة بأنها صاحبة الأمر والنهي في دولتها. **وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** (2)، ومن ثم فإن ما جاء في هاتين الآيتين الكريمتين من أوصاف لهذه الملكة وقومها، لا يمكن أن ينطبق على ملكة صغيرة في شمال شبه الجزيرة العربية، وإنما على ملكة عظيمة تجلس على عرش دولة عظيمة تدعى سبأ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذه الأوصاف سوى مملكة سبأ المشهورة في جنوب غرب بلاد العرب، وبعبارة أخرى، فإن هذه الملكة إنما هي، على وجه اليقين، ملكة جنوبية، وليست شمالية.

ومنها (رابعا) أنه من المعروف أن العرب الشماليين إنما كانوا يعبدون الأصنام، بينما سادت عبادة الكواكب عند العرب الجنوبيين، و خاصة عبادة ذلك الثالوث المشهور، والمكون من القمر والشمس والزهرة (و كانت الشمس تمثل فيه دور الأم، ويمثل القمر دور الأب، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن) وقد عبت الشمس بصفة خاصة في ممالك معين وسبأ وحضرموت وقتبان (3)، والقرآن الكريم صريح في أن ملكة سبأ هذه وقومها إنما كان).

ص: 135

1- سورة النمل: آية 23.

2- سورة النمل: آية 33.

3- كانت إلهة الشمس تسمى عند المعينيين «نكرح»، وعند السبئيين «ذات غضرن» و «ذات حمى» (ذات حميم) بمعنى ذات حرارة أو «ذات الحمى»، والحمى الموضع الذي يحمي، ويخصص للإله أو المعبد أو الملك أو سيد القبيلة، والمكان الذي يحيط بالمعبد يكون حرما آمنا لا يجوز لأحد انتهاكه، وتسمى الشمس عند القتبانيين «ذات صبهرن» و «ذات رحين»، وهذا وقد انتسب بعض العرب إلى الشمس فسمي «عبد شمس»، وطبقا لرواية الإخباريين فقد كان سبأ الأكبر، أول من تسمى بهذا الاسم، كما كان أول من تعبد للشمس، و من ثم فقد دعى «عبد شمس» (انظر عن التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة- الإسكندرية 1978 ص 22-24، 86-90).



يسجدون للشمس من دون الله، قال تعالى: وَجَدْتُهُا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ (1)، و من ثم فهذا دليل واضح على أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام إنما كانت ملكة عربية جنوبية، وليست شمالية.

على أن الغريب من الأمر، أن يزعم المؤرخ اليهودي يوسف بن متى «أن ملكة سبأ هذه إنما هي ملكة أثيوبية، كما يزعم أن «سبأ abaS» هو اسم عاصمة الأحباش، وأن اسم الملكة هو (silakuam)، و من ثم تكون ملكة سبأ حبشية، وليست عربية (2)، و أما الروايات الحبشية نفسها فتذهب إلى أن «منيلك» أول ملوك أثيوبيا في القرن العاشر قبل الميلاد، إنما كان ابنا لبطلة الشمي «بلقيس» (أو مكيدا أو مقيدا) وبطل القمر سليمان الحكيم، و من ثم فقد حمل ملوك الحبشة (أثيوبيا) من بين ألقابهم لقب «أسد يهوذا» أو «الأسد الخارج من سبط يهوذا» (3) حتى نهاية دولتهم في (21 مارس 1975)، على أن الأمر بهذه الصورة جد مضلل، فليس صحيحا أن اسم عاصمة الأحباش كان «سبأ» كما زعم يوسف اليهودي، هذا فضلا عن أن مملكة أكسوم إنما قامت في القرن الأول قبل الميلاد، وليس في القرن العاشر، كما تزعم الروايات الحبشية، كما أن ملكة سبأ ليست حبشية، وإنما هي ملكة عربية

ص: 136

1- سورة النمل: آية 24.

2- . P, I, IE 027.

3- الحيمي الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة- القاهرة 1958، نجيب ميخائيل: مصر و الشرق الأدنى القديم 378/3-385، و كذا.. P, I, nodnoL, I, ainissybA dna ailuN, aipoihtE fo yrotsiH, eimissybA'L ed erioticsiH, xuaeblenoC. B. J 108 .egduB. W. A. E 193. p, 1928.



وتذهب الروايات العربية إلى أن ملكة سبأ هذه إنما كانت تسمى «بلقيس» أو «بلقمة أو يلقمة»<sup>(1)</sup>، ويرى أستاذنا الدكتور أحمد فخري، طيب الله ثراه، أن أحد الاسمين، وربما كان يلقمه، نتيجة خطأ في النقل عن الآخر، وربما كان اسم الإله الوثني «الموقاة» (بمعنى إيل قوي، أي الله قوي) يدخل تركيبه، أما اسم «بلقيس» الذي تكرر ذكره في كتب المؤرخين المسلمين، فلم يرد على الإطلاق بين الأسماء السبئية (على الأقل حتى الآن) وهناك احتمال بأنه منقول عن العبرية التي نقلته عن اليونانية، ومعناه «أمة»، أو «جارية»<sup>(2)</sup>، وأما أستاذنا الدكتور حسن ظاظا، فالرأي عنده أن اسم هذه الملكة لم يكن يقينا «بلقيس»، وربما كانت هذه صفة تنطق في العبرية والآشورية «بلجشن» أو «فلجشن»، ومعناه العشيقة أو الزوجة غير الشرعية، والراجح أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودي الذي لم يكن يستريح إلى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الأجنيات<sup>(3)</sup>.

وأيما ما كان اسم ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام، وأيما كان السبب في تسميتها بهذا الاسم أو ذاك، كما تذكره المصادر العربية والعبرية واليونانية والحبشية، فالتوراة تزعم أن ملكة سبأ إنما كانت تهدف من وراء زيارتها هذه إلى البحث عن الحكمة وامتحان سليمان، و أنها حينما تأكدت من حكمته وعظمة ملكه، سرعان ما قدست إله إسرائيل، الذي جعل سليمان ملكا تجري على يديه الحكمة وفصل الخطاب، ثم دعت إله إسرائيل أن يثبت عرشه إلى الأبد «ليكن مباركا إلهك الذي سر بك وجعلك على كرسي

ص: 138

1- تاريخ الطبري 489/1، الكامل لابن الأثير 129/1، البكري 1298/4، ابن كثير: البداية والنهاية 21/2.

2- أحمد فخري: المرجع السابق ص 73.

3- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 133.

إسرائيل، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجري حكما وبرا»، ثم انتهى بأن تبادل الملكان الهدايا، «وأعطت الملك مائة و عشرين وزنة ذهب و أطيابا كثيرة جدا و أحجار كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان»، و أعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان، و ذهبت إلى أرضها هي و عبدها» (1).

على أن هناك فريقا من الباحثين إنما يجنح إلى أن زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام، إنما كانت لتوثيق العلاقات التجارية و تسهيل التعاون التجاري بينهما، بل إن هناك من يزعم أن هذه الملكة لم تكن الحاكم الفعلي لبلادها (2)، و لكنها هي التي قامت بالزيارة، و من ثم فيمكن الاستنتاج من ذلك أنها هي التي رغبت في القيام بأعمال تجارية مع سليمان، و ربما كان ذلك لتنظيم سير القوافل التجارية و الإشراف عليها، على أن هناك من يرى أن سليمان هو الذي دعا ملكة سبأ لزيارته و الإقامة فترة من الزمان في مكان ما من هضاب أدوم لمشاهدة عمال الملك و هم يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة من هناك (3).

و هكذا يبعد هؤلاء الباحثون عن الأهداف الحقيقية لزيارة ملكة سبأ لنبي الله سليمان عليه السلام، و إيمانها بدعوة النبي الكريم «قالت رب إنني ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (4)، يبعد الباحثون عن

ص: 139

1- ملوك أول 1/1-13.

2- تكذب آيات القرآن الكريم هذا الادعاء، كما يبدو ذلك واضحا من الآيات 23-35، 41-42، 44 من سورة النمل.

3- محمد بيومي مهران: إسرائيل 772/2 و كذا، 1963، p. 124. W thgirblA, thgirblA, thgirblA, thgirblA. W 124. p، 1963، 95  
4- سورة النمل: آية 44.

هذا الهدف النبيل من الزيارة، فيذهبون إلى أن مملكة سليمان إنما كانت في نهاية طريق البحور، و كان وكلاء سليمان يقومون بالإجراءات الجمركية، إن صح هذا التعبير، على البضائع الثمينة، كما كانوا هم الذين يسمحون للقوافل بالاستمرار في رحلتها إلى مصر و فينقيا و سورية عبر مملكة سليمان في فلسطين، و من ثم فليس من الغريب أن تصل شهرة سليمان إلى ملكة سبأ (1)، و هكذا «فقد أتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا، بجمال حاملة أطيابا و ذهباً كثيرا جدا، و حجارة كريمة، و أتت إلى سليمان و كلمته بكل ما في قلبها» (2).

و الحق كل الحق، أن القصة كلها إنما تتصل بدعوة النبي سليمان عليه السلام، و ليس بالملك سليمان، و لنقرأ أولا هذه الآيات الكريمة التي تصور القصة أصدق تصوير، يقول تعالى: وَ تَقَدَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به و جئتك من سبأ بنبا يقين، إني وجدت امرأة تملكهم و أوتيت من كل شيء و لها عرش عظيم، و جدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ما ذا يرجعون، قالت: يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم، إنه من سليمان و إنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا علي و أتوني مسلمين، قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون، قالوا

ص: 140

- 
- 1- جواد علي 263/2، و كذا. S. p, tic- po, relleK. W 215- 213 و كذا. p, tic- po, sgnitsaH. J 843.  
tdlefssiE. O 39593. و كذا  
2- ملوك أول 2/10.

نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد، والأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين: قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإني مرسلت إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، قال يا أيها الملأ أياكم يأتي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتية به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتية به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم كفر و من شكر فإنما يشكر لنفسه و من كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أ تهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أ هكذا عرشك قالت كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها و كنا مسلمين، و صدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة و كشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي و أسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (1).

و تبدأ القصة بالنبي الملك سليمان عليه السلام في موكبه الفخم الضخم، من الجن و الإنس، و يتفقد عليه السلام الطير، فلا يجد الهدهد،

ص: 141

---

1- سورة النمل: آية 20-44، و انظر: تفسير الطبري 19/143-170، تفسير الطبرسي 19/208-230، تفسير روح المعاني 19/182-210، تفسير القرطبي 13/176-213، تفسير أبي السعود 4/127-134، في ظلال القرآن 5/2631-2643، تفسير الكشاف 3/142-151، تفسير البيضاوي 2/172-178، تفسير النسفي 3/207-215، تفسير الفخر الرازي 24/188-200، الدر المنثور في التفسير بالمأثور 5/104-112، صفوة التفاسير 2/406-412، تفسير ابن كثير 3/574-586، تيسير العلي القدير لتفسير ابن كثير 3/320-240، تاريخ الطبري 1/489-495، الكامل لابن الأثير 1/224-238، تاريخ ابن خلدون 2/113-114، ابن كثير: البداية و النهاية 2/18-24.

وقد اختلف العلماء فيما لأجله تفقده على وجوه، أحدها قول وهب: أنه أخل بالنوبة التي كان ينوبها فلذلك تفقده، وثانيها أنه تفقده لأن مقاييس الماء كانت إليه، وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقده (1)، وثالثها أنه كان يظله من الشمس، فلما فقد ذلك تفقده (2)، ولعل في هذا ما يشير إلى أنه هدهد خاص معين في نوبته، وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد، كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته، سمة اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق ويتكث، وهو يسأل عنه في صيغة مرتفعة مرنة جامعة «ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين» ويتضح أنه غائب ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن، وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم كي لا تكون فوضى، ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف «لأعذبته عذابا شديدا، أو لأذبحنه»، ولكن سليمان ليس ملكا جبارا في الأرض، إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع ويتبين عذره، ومن ثم تبدر سمة النبي العادل «أو ليأتيني بسلطان مبين» أي حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذه عنه (3).

ص: 142

- 1- جاء في تفسير الطبري (144/19) اختلف عبد الله بن سلام والقائلون بقوله، ووهب بن منتهبه، فقال عبد الله: كان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه ليستخبره عن بعد الماء في الوادي الذي نزل به في مسيره، وقال وهب: كان تفقده إياه وسؤاله عنه لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها، والله أعلم، كما يقول الطبري، بأي ذلك كان إذ لم يأتنا بأي ذلك كان تنزيل، ولا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح، والصواب أن يقال إن الله أخبر عن سليمان أنه تفقد الطير، إما للنوبة التي كانت عليها وأخلت بها، وإما لحاجة كانت إليها عن بعد الهاء.
- 2- تفسير الفخر الرازي 189/24.
- 3- في ظلال القرآن 5/2638.

ويأتي الهدهد بعد مكث غير بعيد، فيقول للنبي الكريم «أحطت بما لم تحط به»، وفي هذا، كما يقول الإمام الفخر الرازي، تنبيه لسليمان على أن من أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط، فيكون ذلك لطفًا في ترك الإعجاب، والإحاطة بالشيء علما أن يعلم من جميع جهاته (1)، ثم يخبره بهذا الذي لم يحط به وحيثك من سببًا بنبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وحدثها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، أي أنني أتيت من سبأ- وهي مملكة عظيمة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية- وقد وجدت القوم تحكمهم امرأة» (2) أوتيت من كل شيء، كناية عن عظمة ملكها و ثرائها و توافر أسباب الحضارة و القوة و المتاع، «ولها عرش عظيم» أي سرير ملك فخم ضخم يدل على الغنى و الترف و ارتقاء الصناعة أو عظيم في قدره و عظم خطره، لا عظمة في الكبر و السعة، لكن هذه المرأة و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، و هنا نجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب ذكاء و إيمان، و براعة في عرض النبأ، و يقظة إلى طبيعة موقفه و تلميح و إيحاء أريب، فهو يدرك أن هذه ملكة و أن هؤلاء رعية، و يدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، و يدرك أن السجود لا يكون إلا لله رب العرش العظيم، و ما هكذا تدرك الهداهد، إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف (3).

و من ثم فقد أراد النبي الكريم أن يختبر صدق الهدهد في دعواه، وفي

ص: 143

1- تفسير الفخر الرازي 190/24.

2- روي البخاري و الترمذي و النسائي بسنده عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: لن يفلح قوم و لو أمرهم امرأة (البداية و النهاية 2/22).

3- في ظلال القرآن 5/2638، و انظر تفسير الطبري 19/148.



نفس الوقت أن يدعو هؤلاء المنحرفين عن عبادة الله الواحد القهار «قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ما ذا يرجعون»، و تجمع الملكة المملأ من القوم و تعرض عليهم الأمر يا أيها المملأ إني أُلقي إليّ كتاب كريم، إِنَّهُ مِنْ سَلِيمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ، و يقول الفخر الرازي في وصف الكتاب بأنه كريم، فيه ثلاثة أوجه، أحدها حسن مضمونة و ما فيه، و ثانيها وصفه بالكريم لأنه من عند ملك كريم، و ثالثها أن الكتاب كان مختوما، و قال صلى الله عليه وسلم: «كرم الكتاب ختمه»، و كان صلى الله عليه وسلم: يكتب إلى العجم فقبل له إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتما» (1)، كما يدل ذلك أيضا على أدب جم تحلت به الملكة العربية، و على أية حال، فإن الكتاب يفيد أن الملكة كانت لا تعبد الله، و لكن صيت سليمان كان ذائعا في هذه الرقعة، و لغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء و حزم و جزم، مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته، و فحوى الكتاب في غاية البساطة و القوة، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم، و مطلوب فيه أمر واحد: ألا يستكبروا على مرسله و يستعصوا و أن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه (2).

و تطلب الملكة الرأي و المشورة من المملأ في هذه الأزمة التي أتت إليها من حيث لا تحتسب، و في نفس الوقت تعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر، إلا بعد هذه المشورة، برضاهم و موافقتهم «يا أيها المملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون»، و يأتيها الجواب سريعا من المؤتمرين «نحن أولوا قوة و أولوا بأس شديد، و الأمر إليك فانظري ما ذا

ص: 144

1- تفسير الفخر الرازي 194/24، تفسير النسفي 3/ 209-210.

2- في ظلال القرآن 5/ 2639-2640.

تأمرين»، و ليس هناك من ريب في أن هذا السياق القرآني إنما يدل بوضوح على أنها صاحبة السلطان الفعلي في مملكتها، بعكس ما ذهب إليه بعض الباحثين (1)، كما أشرنا من قبل، و أما القوة و البأس اللتان أشار إليهما الملاء، فالمراد بالقوة قوة الأجسام و قوة الآلات، و أما البأس فالمراد النجدة و الثبات في الحرب، و حاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين، أحدهما إظهار القوة الذاتية و العرضية ليظهر أنها إن إرادتهم للدفع و الحرب و جدتهم بحيث تريد، و الآخر قولهم: «و الأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين» و في ذلك إظهار الطاعة لها، إن أرادت السلم و لا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا (2)، و يقول الإمام النسفي: أرادوا بالقوة، قوة الأجسام و الآلات، و بالبأس النجدة و البلاء في الحرب، «و الأمر إليك فانظري ما ذا تأمرين» أي موكول إليك، و نحن مطيعون لك، فأمرينا بأمرك نطعك و لا نخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا نحن من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأي و المشورة، و أنت ذات الرأي و التدبير فانظري ما ذا تريدين تتبع رأيك تتبع رأيك، فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة، مالت إلى المصالحة و رتبت الجواب، فزيفت أولاً ما رتبوه، و أرتهم الخطأ فيه حيث «قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية (عنوة و قهرا) أفسدوها و جعلوا أعزة أهلها أذلة و كذلك يفعلون» (أرادت و هذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك (3)، و جاء في تفسير ابن كثير: قال الحسن البصري: فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثديها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم و أعلم بأمر سليمان، و أنه لا قبل لها بجنوده و جيوشه و ما سخر له من الجن و الإنس و الطير، و قد شاهدت مع الهدهد أمراً عجيباً

ص: 145

1- . O 593 . p, tic- po, tdlefssiE.

2- تفسير الرازي 195 / 24.

3- تفسير النسفي 210 / 3.

بديعا (1)، فقالت لهم إني أخشى أن نحاربه و نمتنع عليه فيقصدنا بجنوده و يهلكنا بمن معه و يخلص إلى و إليكم الهلاك و الدمار دون غيرنا، و لهذا قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلدا عنوة أفسدوه أي خربوه، و جعلوا أعزة أهلها أذلة، أي و قصدوا من فيها من الولاة و الجنود و أهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو الأسر .. ثم عدلت إلى المصالحة و المهادنة و المسالمة و المخادعة و المصادفة (2).

و هكذا تبدأ الملكة في أعمال الحيلة و التدبير، بل و هنا تظهر شخصية المرأة من وراء الملكة، المرأة التي تكره الحروب و التدمير، و التي تنعني سلاح الحيلة و الملاينة، قبل أن تنفي سلاح القوة و المخاشنة (3)، و من ثم فإنها تعمل على أن تضع النبي الكريم موضع الاختبار لتصل إلى رأي تظمنن إليه بشأنه، و هل هو من الهداة المرشدين أم من الطغاة الطامعين، و من ثم فإنها تبعث برسول من عندها إلى صاحب هذه الرسالة الذي يطلب منها، و كذا قومها، ألا تعلقوا علي و أتوني مسلمين» يحملون الهدايا الثمينة (4)، كما أنها

ص: 146

1- قارن في ظلال القرآن (2639/5) حيث يرجح صاحبه أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب، و لا- كيف ألقاه، و لو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به، كما تقول التفاسير، أعلنت هذه العجبية التي لا تقع كل يوم، و لكنها قالت بصيغة المجهول، مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقى إليها و لا من ألقاه.

2- تفسير ابن كثير 3/ 579 (ط بيروت 1986).

3- في ظلال القرآن 5/ 2640.

4- روت كتب التفسير عن ابن عباس أنها بعثت إليه بوصائف و وصفاء و أبستهم لباسا واحدا حتى لا يعرف ذكر من أتى، فقالت إن زيل بينهم حتى يعرف الذكر من الأثني ثم رد الهدية فإنه نبيّ، و ينبغي لنا أن نترك ملكنا و نتبع دينه و نلحق به، و عن ابن جريح قال مجاهد: فخلص سليمان بعضهم من بعض و لم يقبل هديتها، و عن ثابت البناني قال: أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج، فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فمؤهوا له الآجر بالذهب، ثم أمر به فألقى في الطرق، فلما جاءوا فأروه ملقي ما يلتفت إليه، صغر في أعينهم ما جاءوا به، و في تفسير النسفي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى و حليهن راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم و السروج بالذهب المرصع بالجواهر، و خمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان و ألف لبنة من ذهب و فضة و تاجا مكللا بالدر و الياقوت، و حقا فيه درة عذراء و جزعة معوجة الثقب، و بعثت كتابا فيه نسخة الهدايا و قالت: إن كنت نيبا فمميز بين الوصفاء و الوصائف و أخبر بها في الحق و اتقب الدرّة ثوبا و اسلك في الخزرة خيطا، ثم قالت لكبير رسالها: إن نظر إليك نظرة غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره، و إن رأيته بشاشا لطيفا فهو نبيّ، فأقبل الهدهد و أخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمان الجن فضربوا لبنت الذهب و الفضة و فرشوها في ميدان بين يديه طوله، سبعة فراسخ و جعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب و الفضة، و أمر بأحسن الدواب في البر و البحر فربطوها عن يمين الميدان و يساره على اللبنة و أمر بأولاد الجن و هم خلق كثير فأقيموا عن اليمين و اليسار، ثم قعد على سريره و الكراسي من جانبه، و اصطففت الشياطين صفوفًا فراسخ، و الإنس صفوفًا فراسخ، و الوحش و السباع و الطيور و الهدام كذلك، فلما دنا القوم و رأوا الدواب تروث على اللبنة رموا بما معهم من الهدايا، و لما وقفوا بين يديه نظر إليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه و قال: أين الحق فأمر الأربعة فأخذت شعرة و نفذت في الدرّة و أخذت دودة بيضاء الخيط بفيها و نفذت فيها، و دعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، و الغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية، و في تفسير ابن كثير: أنها أرسلت إليه بقدرح ليملاء ماء رواء لا من السماء، و لا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملاء من ذلك، و بخزرة و سلك ليحمله فيها ففعل و الله أعلم أكان ذلك أم لا، و الظاهر أن أكثره من الإسرائيليات، و أن سليمان لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية و لا اعتنى به، بل أعرض عنه (تفسير الطبري 19/



في الوقت نفسه طلبت من رسلها أن يقفوا على قوة سليمان، ثم يعودوا إليها بتقرير واف شامل عن حقيقته، ومدى ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة، وهل يمكنه أن يهدد أمنها وأمن قومها، إن لم تخضع لأمره، وذلك لتكون على بينة من أمرها، وحتى يمكنها اتخاذ القرار المناسب، قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، ذلك لأن الهدية تلين القلب وتعلن الود، وقد تقلح في دفع القتال، وهي تجربة، فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا، وسائل الدنيا إذن تجدي، وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة الذي لا يصدفه عنه مال، ولا عرض من أعراض

ص: 147

الدنيا، قال ابن عباس: قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقَاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه (1).

وجاءت الرسل إلى سليمان عليه السلام بالهدايا فرفضها، وأعلم رسل الملكة أن ما آتاه الله من الملك والنبوة والرسالة وما جعل له فيهما من ثواب عظيم، ومقام كريم، إنما هو خير من هداياهم، ومن كل ما عندهم من عرض الدنيا، ثم توعدهم بأن يرسل إليهم، وفي بلادهم نفسها، بجنود لا قبل لهم بها، وليخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَ تُمَدُّونَنِي بِمَالٍ، فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ، اذْجَعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (2)، وهنا تتأكد الملكة العربية أنها أمام واحد من المصطفين الأخيار، يطلب لها، وكذا لقومها، الهداية إلى سواء السبيل، وليس رجالاً غزته قوته، فأراد أن يجعل دولتها جزءاً من مملكته، فتقرر الذهاب بنفسها إلى النبي الكريم، قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان إنني قادمة إليك بملوك قومي وما تدعو إليه من دينك (3).

ويستعد سليمان لاستقبال الملكة بأمر يخرج عن قدرة البشر العاديين، ويدخل في عداد معجزات الصفوة المختارة من أنبياء الله ورسله الكرام البررة، قال يا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْتَلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه

ص: 148

1- في ظلال القرآن 5/ 2640، تفسير ابن كثير 3/ 579-580.

2- سورة النمل: آية 36-37.

3- انظر: حاشية زادة على البيضاوي 3/ 493، صفوة التفاسير 2/ 409.

مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (1).

هذا وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في قصد سليمان عليه السلام من استحضر عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها، كما اختلفوا كذلك في هذا الذي عنده علم من الكتاب، والذي قال: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فأما عن الهدف من استحضر العرش، فذهب رأي إلى أنه وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله والإذعان لدعوته، ويقول الفخر الرازي: و اختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرش على وجوه، أحدها: أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى، وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت، و ثانيها: أراد أن يؤتي بذلك العرش فيغيّر وينكر ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره، والمقصود اختبار عقلها، وقوله تعالى: نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرًا أَ تَهْتَدِي كالدلالة على ذلك، وثالثها، قال قتادة: أراد أن يأخذه قبل إسلامها، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها، ورابعها: أن العرش سرير الملك فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه، وقال أبو جعفر:

و أولي الأقوال بالصواب أنه أراد أن يجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، وأما أولي التأويلين في قوله تعالى:

قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ فهو قول ابن عباس من أن معناه طائعين، لأن المرأة لم تأت سليمان إذ أتته مسلمة، وإنما أسلمت بعد مقدمها عليه، وبعد محاورة جرت بينهما ومساءلة (2).

و أما الذي عنده علم من الكتاب فقد اختلفوا فيه على قولين، قيل كان

ص: 149

1- سورة النمل: آية 38-40.

2- تفسير الطبري 160/19-161، في ظلال القرآن 5/2641، تفسير الفخر الرازي 24/197، تفسير البيضاوي 2/83، تفسير النسفي 3/212، تفسير ابن كثير 3/581، صفوة التفاسير 2/409، تفسير القرطبي ص 4918-4919.

من الملائكة وقيل كان من الإنس، فمن قال بالأول اختلفوا، قيل هو جبريل عليه السلام، وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، و من قال بالثاني اختلفوا على وجوه، أحدها قول ابن مسعود إنه الخضر عليه السلام، و ثانيهما، وهو المشهور، من قول ابن عباس: إنه آصف بن برخيا وزير سليمان، و كان صديقا يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب، و كذا روي عن يزيد بن رومان أنه «آصف بن برخيا» و كان صديقا يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعى الله به أجاب، و إذا سئل به أعطى، و ذهب ابن عطية و أبو حيان إلى أن هذا القول هو قول الجمهور، و عدّه الشوكاني قول أكثر المفسرين و ثالثها قول قتادة إنه رجل من بني آدم، قال معمر: أحسبه قال من بني إسرائيل، كان يعلم اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، و رابعها قول ابن زيد: كان رجلا صالحا في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان، فلما سمع العفريت يقول: «أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك و إنه عليه لقوي أمين»، قال: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» ثم دعا باسم من أسماء الله، فإذا هو يحمل بين عينيه، و قرأ «فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي» إلى قوله تعالى فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ (1).

على أن هناك من يذهب إلى أنه النبي الكريم نفسه سيدنا سليمان عليه السلام (2)، و يذهب الدكتور المطرفي (3) إلى أن سليمان قال ذلك ليظهر

ص: 150

- 
- 1- تفسير القرطبي 162/19-163، تفسير القرطبي 205/13-206، تفسير ابن كثير 582/3، تفسير الكشاف 149/3، تفسير البحر المحيط 76/7، تفسير النسفي 213/3، صفوة التفاسير 409/2، فتح القدير للشوكاني 139/4، البداية و النهاية 23/2، الكامل لابن الأثير 1/132، تفسير الفخر الرازي 197/24.
  - 2- تفسير الكشاف 149/3، تفسير القرطبي 205/13، تفسير الفخر الرازي 197/24.
  - 3- عويد المطرفي: المرجع السابق 75-76.



معجزة من الله تعالى تجري على يديه، توثيقاً لإيمان جموعه بنبوته ورسالته، ويكون الخطاب، كما قال ابن عطية، على هذا التأويل للعفريت لما قال أَمَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ، كأن سليمان استبطن ذلك، فقال له على جهة تحقيره أَمَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، ليبين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت (1)، وقد أيد القرطبي ابن عطية وقال: إن النحاس قال بذلك في معاني القرآن، وهو قول حسن إن شاء الله، وأن القائلين بأن قوله: أَمَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ من قول سليمان عليه السلام، استدلووا على ذلك بما جاء في هذه الآية نفسها من قوله فيها، إظهار الفضل الله تعالى عليه هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (2).

هذا وقد ذهب الفخر الرازي (3) إلى هذا الرأي، فقال إنه سليمان نفسه، والمخاطب هو العفريت الذي كلمه، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة، فتحدهم أولاً، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت، وهذا القول أقرب لوجه، أحدها أن لفظه الذي موضوعه في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة، والشخص المعروف بأنه عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام، فوجب انصرافه إليه، وأقصى ما في الباب أن يقال: كان آصف كذلك، لكننا نقول إن سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لأنه هو النبي، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان أولى، والثاني: أن إحصار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لآصف دون سليمان، لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان، وأنه غير جائز، والثالث: أن سليمان عليه السلام لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال

ص: 151

1- تفسير القرطبي 205/13، تفسير الفخر الرازي 197/24.

2- تفسير القرطبي 205/13 (دار الكاتب العربي - القاهرة 1967).

3- تفسير الفخر الرازي 197/24 - 198.

سليمان في أعين الخلق، والرابع: أن سليمان قال: «هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر»، و ظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان، على أن الأستاذ سيد قطب إنما يرجح أنه غير سليمان، و حجته أنه لو كان هو لأظهره السياق باسمه، و لما أخفاه، و القصة عنه، و لا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر (1).

بقيت الإشارة إلى أن بعض المفسرين حاولوا تفسير «الكتاب» في قوله تعالى: عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ، فقال بعضهم إنه التوراة، و قال بعضهم إنه كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعى به أجاب، كما أشرنا من قبل، و هو «يا حي يا قيوم يا ذا الجلال و الإكرام، أو يا إلهنا و إله كل شيء، إلهنا و إله واحد، لا إله إلا أنت»، و قيل كان له علم بمجاري الغيوب إلهاماً، و أنه قال لسليمان، فيما يروي عن وهب بن منبه، «امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتاك به»، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ و دعا الله تعالى، قال مجاهد، قال يا ذا الجلال و الإكرام، و قال الزهري قال: يا إلهنا و إله كل شيء إلهنا و إله واحد لا إله إلا أنت، انتني بعرشها، قال فمثل بين يديه، قال مجاهد و سعيد بن جبير و محمد بن إسحاق و زهير بن محمد و غيرهم، لما دعا الله تعالى و سأله أن يأتيه بعرش بلقيس، و كان في اليمن و سليمان عليه السلام بيت المقدس، غاب السرير و غاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان (2).

و أيا ما كان الأمر، فلقد تمت المعجزة، و رأى سليمان عليه السلام عرش ملكة سبأ مستقراً بين يديه، فأمر أن تنكر لها معالم هذا العرش ليمتحن بذلك قوة ملاحظتها و انتباهها، فلما جاءت فوجئت بأول ظاهرة عجيبة،

ص: 152

1- في ظلال القرآن 5/ 2641.

2- تفسير النسفي 3/ 213، تفسير ابن كثير 3/ 582، في ظلال القرآن 5/ 2641.

فعرض عليها عرشها وقيل لها: أهكذا عرشك، فأجابت: كأنه هو، لا تنفي ولا تثبت، مما يدل على فراسة وبديهية في مواجهة المفاجأة العجيبة، فضلا عن غزارة في الفهم وقوة في الملاحظة، فلقد استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحدا يقدر على هذا الصنع العجيب، قال النسفي: أجابت أحسن جواب، فلم تقل هو هو، ولا ليس به، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل للأمرين، أو لما شبهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها: كأنه هو، مع أنها علمت أنه عرشها، ثم كانت في انتظارها مفاجأة أخرى، فلقد أمر سليمان بأن يقام لها صرح من قوارير (زجاج) تجري تحته المياه حتى يحسبه من لا يعرف أمره أنه ماء (1).

وهكذا ما إن وصلت الملكة السبئية إلى القدس، عاصمة سليمان، حتى وجدت أمامها مفاجأتين، الواحدة عرشها، وقد نكر لها، والأخرى ذلك الصرح الزجاجي الذي تجري المياه من تحته، أو ذلك القصر البلوري، الذي أقيمت أرضيته فوق الماء، فظهر وكأنه لجة، فلما قيل لهما: ادخلي الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة فكشفت عن ساقها، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها «قال إنه صرح ممرد من قوارير»، و كل من المفاجأتين إنما تدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاعة البشر، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها مع سليمان، لا لسليمان، ولكن «لله رب العالمين» (2)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فَلَمَّا جَاءَتْ قَيْلَ أ هَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ، وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ

ص: 153

1- تفسير النسفي 3/ 214، الصابوني: المرجع السابق ص 293-294.

2- في ظلال القرآن 5/ 2643.

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي  
وَاسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (1).

وهكذا رأَت الملكة كل ما يبعد عنها أية ريبة في أنها أمام نبيِّ كريم، أمام نبيِّ الله سليمان عليه السلام، وليس، كما كانت تظن بادئ ذي بدء، أنها أمام ملك يطمع في دولتها أو يبغى الاستيلاء عليها، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة، وكذلك يفعل الطامعون المستعمرون، و عندئذ تصرفت سيدة سباً تصرفاً تفخر به المرأة العربية على طول العصور، تصرفاً لم يقدر عليه من قبل، ملك العراق مع الخليل عليه السلام، أو فرعون مصر مع الكليم عليه السلام، كما رأينا من قبل في هذه الدراسة، كما لم يقدر عليه من بعد جبابرة قريش وطواغيت ثقيف وغيرهم من بعض رجالات العرب، مع سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو قل هي رحمة الله التي تداركت هذه السيدة الكريمة، وأراق لها الهداية والرشاد، ومن ثم فقد أنهت الأمر كله، كما رأينا، «قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وحتى في إسلامها فقد كانت عاقلة رشيدة، فلقد اهتدى قلبها واستنار، ومن ثم فقد عرفت أن الإسلام لله وحده ليس استسلاماً لأحد من خلقه، حتى وإن كان هذا الأحد هو سليمان النبي الملك صاحب المنجزات، إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين، ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقة، على سنة المساواة «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وقد سجل السياق القرآني هذه اللفتة الأخيرة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله لا غالب

ص: 154

منهما ولا مغلوب، و هما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة (1).

هذه عجالة نلخص بها قصة سليمان عليه السلام، مع ملكة سبأ، كما جاءت في القرآن الكريم، غير أن بعض المفسرين و المؤرخين قد أسرفوا على أنفسهم و على الناس، فعالجوا هذه القصة الواضحة بطريقة عجيبة، فأضافوا إليها ما شاء لهم الخيال أن يضيفوا تذهب بعضهم إلى أن بلقيس إنما هي بلقمة ابنة «ليشع بن الحارث بن صيفي بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، و ذهب آخرون إلى أنها بلقيس (تلقمة أو بلقمة) بنت السيرج، و هو الهدهاد بن شرحبيل، و أنها حكمت اليمن مائة و عشرين سنة، بينما نزل البعض بحكمها إلى سبع سنين (2)، و من عجب أن بعض الأخباريين إنما يذهب به الخيال إلى أن يرى أن «أم بلقيس» إنما كانت «جنية» بنت ملك الجن، و اسمها «رواحة» بنت السكر، أو بلقمة بنت عمرو بن عمير الجني، و ذهب آخرون إلى أن والد بلقيس كان من أكابر الملوك، و كان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال أنه تزوج من امرأة من الجن اسمها «ريحانة» بنت السكن، فولدت له بلقيس و اسمها تلقمة، و يقال لها بلقيس (3)، و أما كيف وصل أبو بلقيس إلى الجن و خطب ابنة ملكهم، فإنهم إنما يقدمون روايات من ذلك النوع من الأساطير، على أن أسوأ ما في الأمر و أشده خطورة أن يحاول بعض الرواة أن يعطوا لرواياتهم سنداً من شرعية أو نصيباً عن صواب، فينسبوا إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، عن طريق أبي هريرة،

ص: 155

1- في ظلال القرآن 5/ 2643.

- 2- تاريخ الطبري 1/ 489، الكامل لابن الأثير 1/ 129-130، الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص 278، 290، تاريخ اليعقوبي 1/ 196، مروج الذهب للمسعودي 2/ 50، تاريخ ابن خلدون 2/ 59.
- 3- تفسير القرطبي ص 4898-4927، الثعلبي: المرجع السابق ص 278، مروج الذهب 2/ 49-50، ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 21، ابن الأثير 1/ 129، قصص الأنبياء 2/ 290-291، تفسير الفخر الرازي 24/ 200-201.

أحاديث تؤيد مزاعمهم هذه (1)، ثم لا يقتصر القوم على ذلك، وإنما يقدمون كل دنيء عن القوم (2)، فالملك السبئي يعتدي على الأعراس، فلا تقوته عروس إلا ويفتضحها قبل زوجها، وبلقيس، وهي ابنة عمه، لا تنجو من هذه الإذلال، إلا أن تثور على قومها مؤنبة إياهم على قبولهم هذا الصغار، وتلك الخسة والدناءة، فنقول: «أما فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته»، ثم تعد له من وراء ستار رجلان يقتلانه في اللحظة التي يهيم بها (3).

و يبلغ الخيال بمؤرخينا أشده حين يزعمون أن بلقيس كانت عريضة الملك، كثيفة الجيش، ويقدم لنا الطبري عدة روايات عن قوة جيشها وكثرة عدده، فرواية تذهب إلى أنه كان مع بلقيس اثنا عشر ألف فيل، مع كل فيل مائة ألف، وأخرى تذهب إلى أنه كان مع بلقيس مائة ألف فيل مع كل ما قيل مائة ألف، وفي الكامل لابن الأثير «كان لها اثنا عشر ألف فيل، تحت يد كل».

ص: 156

- 1- جاءت في البداية والنهاية (21 / 1) أنه صلى الله عليه وسلم قال: «كان أحد أبوي بلقيس جنيا»، وهو، فيما يرى ابن كثير، حديث غريب وفي سنده ضعف، وفي تفسير الطبري (169 / 19) «كان أحد أبوي صاحبة سبأ جنيا».
- 2- تسرف المصادر العربية كثيرا في ذكر الجرائم الجنسية، في تاريخ العرب القديم، رغم أن هذه الجرائم، فضلا عن تعارضها مع المنطق والتاريخ، فإنها تتعارض أيضا مع التقاليد العربية التي يعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء، فضلا عن الحاقدين والمتشككين في كل خلة عربية كريمة، ومع ذلك فقد تكرر ذكر هذه الجرائم المنحطة في مصادر لها ما لها من القيمة عند الناس، بصورة أو بأخرى، وفي مواضع مختلفة من الجزيرة العربية، تكررت في طسم و جديس، وفي المدينة بين العرب واليهود، وفي اليمن مع بلقيس وعتودة مولى أبرهة الحبشي (انظر تاريخ الطبري 629 / 1 - 632، 128 / 2 - 129، ابن الأثير: الكامل 232 / 1 - 233، 350، 354، 432 - 433، 656 - 658، مروج الذهب 111 / 2 - 119، تاريخ ابن خلدون 24 / 2 - 25، 287 - 289، المقدس: البدء والتاريخ 179 / 1 - 180، 28 / 3 - 29، معجم ياقوت 242 / 2، 84 / 5 - 87، الأغاني 96 / 19 - 97، عبد الفتاح شحاتة: المرجع السابق ص 286 - 292)، ثم انظر مناقشة هذه الأكاذيب (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص 169 - 173، 376 - 377، 461 - 475).
- 3- الديار بكري: تاريخ الخميس ص 276، ابن الأثير 232 / 1 - 233 (بيروت 1965).

قيل مائة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، في كل جيش سبعون ألف مبارز، ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرون سنة»، و صدق ابن الأثير حيث يقول: و ما أظن الساعة راوي هذا الكذب الفاحش عرف الحساب، حتى يعرف مقدار جهله، و لو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم، شبابهم و شيوخهم و صبيانهم و نساؤهم، هذا العدد (1).

هذا و يجعل الأخباريون أمر بلقيس كله بيد سليمان، و حين ترفض الزواج من أحد رعاياها، يزوجهها سليمان من «ذي تبع» ملك همدان، بحجة أن ذلك لا يكون في الإسلام، و كأن الملوك قبل عصر سليمان ما كانوا يتزوجون من غير أنداد لهم، و كأن التاريخ لا يعرف زواجا بين الأمراء و غير الأمراء، و مع ذلك فإن سليمان لم يزوجه بواحد من رعاياها أو حتى من عظماء قومها، وإنما زوجها من ملك همدان، الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئا، و ليت الذين كتبوا كله، كانوا يعرفون أن قبيلة همدان لم تصبح لها المكانة الأولى بين قبائل اليمن، و لم يحمل شيوخها لقب «ملك» متحدين بذلك سلطة ملوك سبأ الشرعيين (2)، إلا منذ أيام «نصريةأمن» (نصريةنعم) و شقيقه «صدق يهب» حوالي عام 200 قبل الميلاد (3)، و أن بلقيس، و قد عاصرت الملك سليمان (960-922 ق.م)، إنما كانت تعيش في القرن العاشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور ملوك همدان بما يقرب من سبعة قرون على الأقل، و على أية حال، فهناك رواية تذهب إلى أن سليمان قد زوجها من «سدد بن زرعة بن سبأ»، الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئا كسابقه، علي

ص: 157

1- تفسير الطبري 154/19، تاريخ الطبري 491/1، الكامل لابن الأثير 131/1 (بيروت 1978).

2- , 1961 p. 278. J. A. Emma, S. Naeba, I. Pirsnoit, M. Marha, B. Siuqli, B. A. Eromitla.

3- , 1947 p. 142. B. J. P. Yllih, A. Eht, B. C. A. Dnorgkca, I. Mals, A. Airdnaxel.

أن هناك رواية تذهب إلى أن الزوج الذي ارتضته بلقيس، إنما كان سليمان نفسه، وأنه قد أحبها حبا شديدا، وردها إلى ملكها باليمن، و كان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام، و على أية حال، فليس لذلك ذكر في الكتاب، و لا في خبر مقطوع بصحته، و مع ذلك فإن بعض الروايات تزعم أن سليمان جعل الجن تحت إمرتها، و على رأسهم «زويعة» أمير جن اليمن، و أن بلقيس ماتت على أيام سليمان، و أنه قد دفنها باليمن على رواية، و في الشام على رواية أخرى، و أنه دفنها بتدمر و أخفى قبرها، على رواية [ثالثة \(1\)](#).

ص: 158

---

1- تفسير القرطبي ص 4926، تفسير النسفي 3/214-215، تفسير الطبري 19/169-170، تفسير الفخر الرازي 24/201، تاريخ الطبري 1/494-495، الكامل لابن الأثير 1/133، الثعلبي: المرجع السابق ص 269-270، البداية و النهاية 2/24 ابن دريد: الاشتقاق 2/311، تاريخ ابن خلدون 2/59، 113-114.



[1] السياسة الداخلية: -

ورث سليمان داود في مملكته، و من ثم فقد أصبح ملكا في اورشليم (القدس) و حاكما على مملكة إسرائيل، هذا و يتفق المؤرخون على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد، و لكنهم يختلفون في تحديد فترة حكمه من هذا القرن العاشر، فهناك من يرى أنها في الفترة (974-932 ق.م) (1)، و من يرى أنها في الفترة (973-936 ق.م) (2)، و من يرى أنها في الفترة (970-933 ق.م) (3)، و من يرى أنها في الفترة (963-923 ق.م).

(4) م و من يرى أنها في الفترة (961-923 ق.م) (5)، و من يرى أنها في الفترة (971-931 ق.م) (6)، و من أنها في الفترة (963-629 ق.م) (7)،

ص: 159

- 
- 1- فضلو حوراني: المرجع السابق ص 34.
  - 2- حسن ظاذا: الساميون و لغاتهم ص 84.
  - 3- فيلب حتى: المرجع السابق ص 205.
  - 4- نفس المرجع السابق.
  - 5- سبتيانو موسكاتي: الحصرات السامية القديمة ص 143 (مترجم) و كذا، H. notae, T. ehT, O. dI, T. sTehporP, L. nodno, 1969, p. 172. E. W.
  - 6- , 1970, p. 36. I. nietspE, J. msiadu.
  - 7- , 1959, p. 81. H. lacirotsiA, fo saltA, yloH dnaL.

و من يرى أنها في الفترة (960-922 ق. م) (1)، و هذا ما نميل إليه و نرجحه، و سنسير عليه في هذه الدراسة.

هذا و كان اختيار سليمان بعد أبيه داود، عليهما السلام، ملكا على بني إسرائيل، إنما يرجع إلى كفاءته الشخصية، فهو لم يكن أبدا أكبر أبناء داود الكثيرين، كما أنه لم يكن حتى أكبر الأبناء الذين ولدوا بعد اعتلاء داود عرش إسرائيل، و أيا ما كان الأمر، فلقد خلف سليمان أباه دونما أية صعوبات أو ثورات داخلية، ثم سرعان ما عمل على القضاء على منافسيه و التخلص من مؤامراتهم، و ما قد يحيكون له من دسائس (2)، ثم اتجه بعد ذلك إلى تدعيم عرشه في الداخل، فاستخدم معظم موارد دولته في تقوية دعائم الحكومة، و تجميل العاصمة أورشليم، و من ثم فقد أقام سليمان كثيرا من الحصون، كما رمم القديم منها، و وضع حاميات في المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، ليهرب بها الثائرين و الغازين على السواء.

ثم عمل سليمان بعد ذلك على القضاء على طموح البطون و العشائر التي كانت تسعى للاستقلال، ذلك لأن سليمان إنما كان يعرف تماما أن أخطر المشاكل التي واجهت أبوه داود من قبل، إنما كانت طموح بعض القبائل إلى التمتع بحكم ذاتي، و لا شك أن هذه الرغبة إنما كانت تتعارض كثيرا مع رغبة سليمان في الحكم المركزي، و من ثم فقد ركز كل جهوده في تقوية أي تحالف يقوم بين هذه القبائل و يهدد الوحدة الإسرائيلية العامة، و هكذا قسم سليمان مملكته إلى اثنتي عشرة محافظة، على كل واحدة منها محافظ يتولى الضرائب، كما فرض على كل محافظة إعاشة الملك و حاشيته و جيشه و خيله شهرا في السنة، ذلك لأن سليمان كان في حاجة إلى تزويد).

ص: 160

- 
- 1- , 1963 , 120- 122. p. F. W thgirblA. ehT, lacilbiB morf doireP ARZE ot maharbA. Y. N.
- 2- ملوك أول 1/1 - 53، 2/3 - 48، 3/12 - 13، تاريخ الطبري 1/485، الكامل لابن الأثير 1/127 (بيروت 1978).

الجنود، وكذا الخيول، الموجودة في الحصون التي أقامها، بالمؤن والعلف، فضلا عن إعاشة رجالات القصر الذين زاد عددهم عن أيام أبيه كثيرا (1).

وأيما كان الأمر، فلقد كانت حدود المناطق الجديدة، باستثناء أربع أو خمس حالات، ليست متطابقة مع حدود القبائل الإسرائيلية، مما يتفق وهدف سليمان من تحطيم البناء الحكومي الإقليمي المستقل، وبالتالي يمكن أن يضعف النزعة الانفصالية بين القبائل الإسرائيلية، و أن يؤلف منهم شعبا واحدا (2)، وعلى أي حال، فلقد كان على كل منطقة من المناطق الجديدة «مشرفا» أو «وكيلا» عليه توزيع المسؤولية الخاصة بالمتونة بين الملاك المختلفين، وأن يراقب وصولها في الوقت المحدد، وأن يجمعها في مدن الصوامع، ثم يسلمها في أورشلیم في الشهر المعين، وكان على رأس هذا النظام موظفا أعلى يسمى «رئيس الوكلاء» لم تظهر وظيفته على أيام داود، وإنما ظهرت، ولأول مرة، بين الموظفين الكبار في عهد سليمان، ومن هنا كان الصدام بما يسمى حرية القبائل الإسرائيلية، وذلك عن طريق التصرف في إنتاج زراعتهم ونتاج مواشيتهم بطريقتهم الخاصة أو على حسب هواهم (3).

ويبدو أن المدن الكنعانية التي كانت قد احتفظت باستقلالها حتى ذلك الوقت، مثل دور و مجدو و تعنك و بيسان، قد ضمت إلى مملكة إسرائيل، أما منطقة يهوذا، أو على الأقل الإقليم الجبلي منها، فلا يبدو أنها كانت تكون جزءا من أي إقليم من الأقاليم الاثني عشر، الأمر الذي يرى فيه بعض

ص: 161

- 
- 1- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 237، أندريه إيمار، و جانين إيوايه: المرجع السابق ص 266، صموئيل ثان 9/9، 23/13، 1/16 و ما بعدها، وكذا. P, tic- po, tdefssiE. O 591.
  - 2- ول ديورانت: المرجع السابق ص 334، وكذا. P, tic- po, sdoL. A 371.
  - 3- . P, tic- po, htoN. M 213- 212 .

الباحثين دلالة على أن سليمان قد أعفى هذه القبيلة الملكية من الواجبات المفروضة على غيرها، وبالتالي كان سببا في تدمير قبائل الشمال عند ما فرض عليهم العمل في تحصين العاصمة، وقد أخطأ التذمر، وأجبر زعيمه «يربعام» إلى الهروب إلى مصر (1)، على أن كثيرا من الباحثين يرون أن يهوذا، لا بد وأنها قد كلفت بعمل آخر، لأنه من غير المقبول أن تترك بدون أي التزام مالي نحو الدولة (2)، فضلا عن أن سليمان، وهو الملك النبي، ما كان في حاجة إلى إجبار بني إسرائيل للعمل في تحصين العاصمة، وقد سخر الله له الجن يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ (3).

## [2] السياسة الخارجية:-

كان سليمان عليه السلام سياسيا حكيما، كما كان محاربا عظيما، وإداريا قديرا، ورغم أنه قد أدرك بفطرته السليمة أنه من الضروري أن يكون له جيش قوي يحمي مملكته (4)، ويساعده في تبليغ الدعوة، فسليمان كما كان ملكا عظيما، فقد كان كذلك رسولا نبيا، فقد أدرك في نفس الوقت بتفكيره السليم أن مملكته الصغيرة في مساحتها لن تعيش في سلام إلا بالتفاهم مع جيرانها، وأن من وسائل هذا التفاهم، وربما من وسائل نشر الدعوة أيضا، أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الملوك والأمراء، ومن ثم فقد تزوج من بنات أمراء العمونيين والمؤابيين والآراميين والكنعانيين والحثيين (5) وغيرهم، بل وقد تخطت مصاهرته حدود الشام، فصاهر فرعون

ص: 162

- 
- 1- . P, tic- po, sdoL. A 72- 371 . ثم قارن: تاريخ ابن خلدون 2/ 214.
  - 2- . P, tic- po, tdlfssiE. O 591 . F .W. ,thgirbIA ,thgloeahcarA dna ygoileR eht fo noigileR ,learsI fo eromitlaB . 1963 , p. 140.
  - 3- سورة سبأ: آية 13.
  - 4- . P, tic- po, tdlfssiE. O (6). 589 .
  - 5- ملوك أول 11 / 1- 2.

مصر، و من ثم فقد أصبحت الأميرة المصرية السيدة الأولى في مملكته (1).

ونقرأ في التوراة أن فرعون «قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة، وأعطاهها مهرا لابنته امرأة سليمان» (2)، ونطالع هذه الأُمور، فيما يرى جاردنر، وكأنها تاريخ حقيقي، ولكننا لا نلتقي بما يؤكد من الجانب المصري، وأما الشك من الناحية التاريخية في هذا الزواج، فإنه، وإن حصر في حدود ضيقة نسبياً، إلا أنه يكفي للتشكيك في أي الفراعين هو المقصود هنا، هذا إلى أن اسم «تحنيس» (senephaT) لا يستطاع مطابقته على نظير له بالهيروغليفية (3)، و من ثم فقد اختلف الباحثون في اسم هذا الفرعون الذي صاهر سليمان عليه السلام، فمن يرى أنه «سي أمون» (4)، و من يرى أنه «بسوسنس الثاني» (5)، و من يرى أنه آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين (6) (945-1087 ق. م) أو ما قبل الأخير من ملوك هذه الأسرة (7)، بل إن هناك من اقترح «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (8) (945-730 ق. م)، وعلى أي حال،

ص: 163

- 
- 1- ملوك أول 1/3، و كذا. P, tic- po, tdlefssiE. O 601، و انظر: تاريخ ابن خلدون 112/2، تاريخ اليعقوبي 57/1، ثم قارن: Y. .N, yrotsiH fo eniltuO ehT, slleW. G. H 280. p, 1965
  - 2- ملوك أول 16/9.
  - 3- ,drofxO, shoarahP eht fo tpyGE, renidraG. H. A 329. p. 1964،
  - 4- عبد الحميد زائد: الشرق الخالد- القاهرة 1966 ص 389، و كذا. P, tic- po, tdlefssiE. O 588 و كذا SENJ, 1. F p . 22، 1963، .A ، tamalaM ,stcepsA eht fo seiciloP ngieroF dna divaD nomoloS،
  - 5- محمد أبو المحاس عصفور: المرجع السابق ص 211، و كذا، P. F. W 66. p، 1925، .nodnoL, learsI dna tpyGE, eirteP.
  - 6- من المفروض أن «بسوسنس الثاني» هو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين، غير أن هناك من يرى أنه (بسوسنس الثالث) (أنظر: P, tic- po, renidraG. A 447. (و كذا. siraP, III, etpyGE'd sioR sed erviL eL, reihtuaG. H 301. p، 1907
  - 7- .P, tic- po, sdoL. A 368 .
  - 8- .P, tic- po, yelretseO. E. O. W 226 و كذا. tpyGE fo yrotsiH A, detsaerB. H. J 529. p، 1946،

فأيا كان فرعون مصر هذا، الذي تنسب التوراة إليه مصاهرة سليمان عليه السلام، فالذي لا شك فيه أن هذا الزواج، فيما يرى المؤرخ اليهودي سيل روث، قد ساعد سليمان عليه السلام في أن يضيف إلى مملكته إقليم جازر، وهي القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الأدنى القديم، و من ثم فقد اكتسب مملكة إسرائيل موطناً على البحر المتوسط (1)، وإن كنا لا نرى أبداً أن سليمان كان في حاجة إلى عون فرعون، وقد سخر الله طائفة من الجن و مردة الشياطين يعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر، كما أشرنا من قبل، فضلاً عن أن جند سليمان إنما كان مؤلفاً من الإنس و الجن و الطير، قال تعالى: وَ حَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (2).

### [3] التنظيمات العسكرية:-

يجمع المؤرخون أويكادون، على أن خليفة داود، عليهما السلام، المحارب الشجاع، إنما قد أدرك جيداً ضرورة تكوين جيش قوي للدفاع عن دولته، فضلاً عن دعوته، وربما تجارته كذلك، و من ثم فإن المصادر التاريخية إنما تنسب إلى سليمان عليه السلام استعمال «العربات الحربية»، و لأول مرة، في جيش إسرائيل، و نقرأ في التوراة أن داود عليه السلام عند ما هزم مملكة «أرام صوبة» قد استولى على مئات الخيول (3)، غير أن داود لم يكن يملك عربة حربية واحدة، رغم أنه قد أدرك بنفسه أهمية هذا السلاح أثناء حروبه مع الآراميين، هذا فضلاً عن أن المصريين كانوا قد استخدموا هذا السلاح منذ مئات السنين (4)، و كذا فعل الكنعانيون.

ص: 164

1- .P, tic- po, htoR. C 21 . -1

2- سورة النمل: آية 17.

3- صوثيل ثان 3/8 -5.

4- محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة- دار المعارف- الاسكندرية 1976 ص 140-143، ص 197-198.

و هكذا ما أن ورث سليمان ملك أبيه داود، عليهما السلام، حتى أدخل هذا السلاح «العربات الحربية» في جيشه بل إنه إنما جعل منه القوة العسكرية الرئيسية في هذا الجيش، وربما كان السبب المباشر في ذلك، أن الآراميين في دمشق قد عملوا على استرداد نفوذهم المفقود بعد موت داود مباشرة، وفي أوائل أيام سليمان، و من ثم فقد أصبحت دولة «أرام دمشق» نتيجة استخدامها لهذا السلاح، إنما تمثل تهديدا مباشرا لإسرائيل (1)، و طبقا لما جاء في التوراة (2)، فإن سليمان إنما كان يملك ما بين 1400، 4000 حصانا (3)، و أما عن مباني الثكنات العسكرية الخاصة بفصائل العجلات الحربية، و طبقا لما جاء في الملوك الأول (4)، فقد اكتشف في «مجدو» و غيرها إسطبلات للخيل، و حظائر للعربات مع بعضها، و كانت تلك التي في «مجدو» تسع 150 عربة، 450 حصانا (5).

هذا و كان قائد العربة يتلقى تدريبات طويلة شاقة، و يظل في الخدمة طالما كان قادرا على أداء وظيفته، أو على الأقل لعدة سنوات، و من ثم فإنه يصبح جنديا محترفا، و عند ما زاد عدد العربات أصبح من الضروري استخدام عدد لا بأس به من الجنود غير المحترفين، ذلك لأن عددا قليلا من الإسرائيليين الذين كانوا مكلفين بالخدمة العسكرية كانوا يصبحون جنودا محترفين، و ليس هذا يعني أن هؤلاء الإسرائيليين المجندين بالجيش، و لا يعملون في سلاح العربات الحربية، قد أعفوا من القيام بالمهام

ص: 165

---

1- , 1975, p. 583-589. O tdlfssiE. ehT werbeH niK modgnI, HAC II, traP, 2, egdirbmaC.

2- ملوك أول 26/10.

3- F. W 135, thgirblA. F. P, tic- po, tdlfssiE. O 589. و كذا. P, tic- po, tdlfssiE.

4- ملوك أول 19/9، 16/10.

5- F, AB, oddigeM s'nomolaS no و كذا و P, ytinaitSirhC ot egA enotS eht morF, thgirblA. F. W 233، 127 .

23، 1960، Y 62. Y nidaY, weN, thgiL و كذا. F gif 67. C 81- 80. F regniztaW, relamkneD, sanitsalP, I, gezpieL

1933، p، و كذا. P, enitselaP fo ygoloeahcrA ehT, thgirblA. F. W 124.

العسكرية، بل على العكس من ذلك، فقد كان الواحد منهم إذا لم يستدع للخدمة في الجيش، فقد كان يكلف بالعمل في بناء التحصينات و الحظائر الخاصة بالعرب، فضلا عن العمل في المشاريع البنائية الأخرى، و من ثم فمن الأفضل أن نطلق على العمل الذي اشتهر خطأ باسم «السخرة»، اسم خدمة الأعمال العامة لبناء و صيانة التحصينات الدفاعية و خدمة الجيش (1)، و كان الرجال المكلفون بالخدمة العامة يستدعون طبقا لكشوف ثابتة، تحدد الأعمال التي يمكنهم القيام بها في المجال الزراعي و الصناعي، و كانوا بطبيعة الحال يتأثرون من هذا الاستدعاء في أعمالهم الخاصة (2)، و طبقا للتقاليد الخاصة بانقسام مملكة إسرائيل بعد موت سليمان، فلقد تحملت إسرائيل، و ليس يهوذا، العبء الأكبر من هذه الخدمة العامة (3).

#### [4] النشاط التجاري:-

امتاز عهد سليمان عليه السلام بنشاط تجاري عظيم، فلقد احتلت التجارة من اهتمامه و تديره مكانا عظيما، حتى أن فصائل العربات إنما كانت في خدمة التجارة، عند ما لا تكون في خدمة الدفاع عن الدولة (4) و نشر الدعوة، و قد ساعد على نجاح التجارة سيطرة سليمان عليه السلام على الطرق التجارية في سورية و فلسطين و التي كانت قائمة منذ عهد أبيه، و ليس هناك من ريب في أن سليمان قد احتفظ بحقوق كاملة على طرق القوافل التي كانت تمر عبر أراضي «أرامي دمشق»، فضلا عن تلك التي كانت تمر عبر أراضي الآدوميين (5)، و من هنا نراه يهتم بتحسين المراكز التي كانت تسيطر

ص: 166

1- .P, tic- po, tdlefssiE. O 590 .

2- .P,. dibI 590 .

3- ملوك أول 4/6، 5/27-30، 11/20-23، و كذا.. .P, tic- po, tdlefssiE. O 591 .

4- .P,. dibI 596 .

5- .P,. dibI 587 .



على الطرق التجارية الهامة التي كانت تمر بمملكته، حتى أصبحت فلسطين قنطرة بين آسيا وإفريقيا، كما استغل سليمان علاقاته الودية من ناحية، ومهارته السياسية من ناحية أخرى، فضلا عن أن حدوده الجنوبية إنما كانت آمنة بسبب صلاته الطيبة بمصر، هذا إلى أن تحالفه مع «حيرام» ملك صور، أقوى الأمراء الفينقيين، قد حمى مواصلات سليمان مع المدن الفينيقية، وهكذا تمكنت القوافل من السفر، بصفة دائمة، من أرض مصر إلى بلاد الرافدين، ومن فينقيا إلى الجزيرة العربية، في أمان وسلام، وهكذا نجح سليمان عليه السلام في السيطرة على مصدر الثروة العائد من التجارة (1)، ولعل الذي دفع سليمان إلى الإتجاه إلى التجارة، أن فلسطين إنما كانت بلدا زراعيا خاليا من الصناعة مما اضطره أن يحضر الصناع من صور، والتجارين من جبيل (بيلوس) عند ما بنى بيت المقدس، كما أن فلسطين لم تكن تملك سلعا للتصدير يمكن أن تقوم عليها تجارة ناجحة، ولكنه في موقع يمكن التصرف منه كوسيط، وقد استغل هذا الموقع أحسن استغلال (2)، فإلى جانب العمل في التجارة، فقد عبّدت الطرق وزودت ببعض المحطات، وهكذا كانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية (3)، و المحملة بالتوابل، خاضعة لدفع الرسوم عند ما كانت تمر بتلك الطرق).

ص: 167

1- .P, tic- po, llaH. R. H 433 .

2- .P, tic- po, sdoL. A 370 .

3- أهم طرق القوافل هذه طريقان: الأول: الطريق الجنوبي الشمالي: ويبدأ من عدن وقنا في بلاد اليمن و حضرموت، ثم مأرب إلى نجران فالطائف ثم مكة ويثرب و خيبر و العلا و مدائن صالح، و هنا ينقسم إلى فرعين، فرع يتجه إلى تيماء صوب العراق، و يستمر الفرع الآخر إلى البتراء ثم غزة فالشام و مصر، و أما الطريق الثاني فهو طريق «جرها- البتراء» و يبدأ من الهفوف ثم إلى شمال اليمامة في موقع مدينة الرياض الحالي، ثم يتجه غربا إلى بريدة ثم حائل ثم تيماء فالبتراء (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم- الرياض 1977 ص 133-136).

و المحطات التي تقع في فلسطين (1).

و نقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام كان شغوفا بالخيل (2)، رغم أن رب إسرائيل، فيما تروي التوراة، كان قد حذر ملوك إسرائيل من الخيل و النساء و الذهب (3)، غير أن سليمان إنما كان يرى أن «الفرس معدة ليوم الحرب» و إن كانت «النصرة نمن الرب» (4)، و من ثم فقد اهتم سليمان عليه السلام بالخيل كثيرا، لأنها أداة الجهاد في سبيل الله، فضلا عن أنها وسيلة كسب، و من ثم فإن دولة سليمان إنما كانت في تلك الفترة تحتكر تجارة الخيل تماما، ذلك لأن كل طرق القوافل الهامة بين مصر و سورية و آسيا الصغرى كانت تمر بمملكة سليمان (5).

و كانت مصر المصدر الرئيسي للخيل و المركبات، و نقرأ في التوراة «و كان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر، و جماعة تجار الملك أخذوا جليية بثمان، و كانت المركبة تصعد و تخرج من مصر بست مائة شاقل من الفضة، و الفرس بمائة و خمسين» (6)، أي أن قيمة الحصان إنما كانت تساوي ربع قيمة العربية، و ربما كان ذلك لأن سليمان كان يتمتع في مصر بامتياز خاص، و لأن صناع المركبات المصريين إنما كانوا على درجة عالية من المهارة في صنع المركبات ذات العجلتين الخاصة بالصيد و الحرب، كما كانوا يستوردون الخشب المتين من فينيقيا و سورية، و هذا يفسر لنا الفرق بين

ص: 168

1- فيليب حتى: المرجع السابق ص 207، فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 238.

2- ملوك أول 26/10-29، أخبار أيام ثان 14/1-17.

3- تثنية 17/16-17.

4- سفر الأمثال 31/21.

5- , 1967, p. 207. yrotsiH sA elbiB ehT, relleK renreW

6- ملوك أول 28/10-29.

سعر المركبة والفرس في مصر (1)، وعلى أية حال، فهناك مصدر آخر للخيل، هو «aoK» وهو اسم دولة في سيليسيا كانت تقع في السهل الخصيب بين جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط، وتشتهر بتربية الخيول، وطبقا لرواية «هيرودوت» فإن الفرس كانوا يحصلون على أحسن خيولهم من سيليسيا (2)، وأما سوق هذه التجارة فقد كان عند ملوك الآراميين والحثيين (3).

وهناك ما يشير إلى أن سليمان قد أقام حظائر للخيل في جهات متعددة، وقد ألفت بعثة الحفائر الأمريكية في «مجدو» الضوء على هذه الحظائر، حيث عثر على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول، والتي كانت دائما تنتظم حول فناء دائري مبلط ببلاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل اسطبل ممر عرضه عشرة أقدام، وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، وما يزال الكثير من هذه الإسطبلات محتفظا بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقي ظاهرة، ولعل مما يشير الانتباه فخامة تلك الإسطبلات حتى بالنسبة لظروف الحياة الحاضرة، فضلا عن العناية الفائقة التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات، والتي يمكن الحكم عن طريقها بأن الخيول إنما كانت مرغوبا فيها في تلك الأيام، وعند ما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدر بعض الباحثين لكل اسطبل 450 حصانا وكل حظيرة 150 عربة، هذا وقد

ص: 169

---

1- P, learsI .. كذا. O 593. P, tic- po, tdlefssiE. O 593. كذا. ecneicsnoC fo nwoD ehT, detsaerB. H. J 355. p, 1939, -1

.fo noigileR eht dna ygoloeahcrA, thgirblA. F. W 135

2- .ogacihC, uranoitciD elbiB s'regnU, regnU. F. M 1036. p, 1970, كذا, P, tic- po, relleK. W 207 . -2

3- ملوك أول 29/11.

اكتشفت نظائر لهذه الإسطبلات في بيسان و حاصور و تعنك و أورشليم (1)، كما أشرنا من قبل، و أما تاريخ هذه الإسطبلات، فهناك من يرجعها إلى عهد «أخاب» (869-850 ق. م) أكثر من عهد سليمان (2) (960-922 ق. م)، غير أن أكثر الدراسات أهمية في تاريخ مدينة «مجدو» إنما تضع الطبقة الرابعة التي وجدت بها هذه الإسطبلات جزئياً على الأقل في عهد الملك سليمان، و أن بقايا هذه المباني المشهورة إنما ترجع حقيقة إلى عهد سليمان، دون غيره (3)

## [5] النشاط البحري:-

اتجه سليمان أيضا نحو البحر ليفتح لبلاده أبواب التجارة مع البلاد الواقعة على الأبحر، و لكن قومه العبرانيين لم يكونوا قد ألفوا ركوب البحر من قبل، كما أنهم لم يكونوا على خبرة، أيا كانت، بشئون بناء السفن و ملاحتها، و من هنا بدأ سليمان يعمل على تأمين الطرق عبر وادي عربة، ثم الاتفاق مع «حيرام» ملك صور، على إنشاء أسطول في ميناء «عصيون جابر» تستغل فيه المهارة الفينيقية، هذا و قد ركزت التوراة على التجارة البحرية في عهد سليمان أكثر من التجارة البرية، و قد أثبتت الحفريات مما يؤكد كثيرا من النصوص الخاصة بهذه التجارة البحرية (4)، و نقرأ في التوراة «وقد عمل سليمان سفنا في عصيون جابر التي بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف في

ص: 170

- 
- 1- . F. W 124 . thgirblA. F. W 124 . P, enitselaP fo ygoloeahcrA ehT, و كذا W. C 67 tic- po, regniztaF. P, و كذا F, nevaH-  
1941 . p. 127. M 127. B. M 127. p. 1941 . weN, senotS esehT naeM tahw, sworuB. و كذا . W 195 . P, tiC- po, relleK.
- 2- , 1940 . p. 143- 147. W. J 147- 143. QEP, toofworC.
- 3- . F. W 124 . thgirblA. F. W 124 . P, tic- po, و كذا . F. J 181 . P, tic- po, nageni و كذا, 13, 1950. p. 44. W. E. G 44. AB, thgir و كذا, 44, 1940. p. 546- 550. AJA و كذا, 4, 1941. p. 12. E. M. R 12. F, AB, grebgn.
- 4- . O 593 . P, tic- po, tdlefssiE.



و لعل سؤال البداهة الآن: أين تقع أوفير؟

لقد قام، و ما يزال، جدل طويل حول أوفير هذه، و هناك دائما من يزعم أنه وجدها في شرق إفريقيا، فهناك «كارل ماوخ» الذي وصل إلى أنقاض مدينة أحد المعابد في عام 1864 م، على حدود روديسيا الجنوبية و موزامبيق في شرق إفريقيا، و هناك «ستنبرج» الذي اكتشف بعد ذلك بخمسة عشر عاما، و على مبعده أميال قليلة إلى الجنوب من المكان الأول، محلات للتعدين من عصر ما قبل المسيحية، ظن أنها كانت تتصل بمعبد المدينة، و في عام 1910 م صوّر الرحالة الدكتور «كارل بطرس» نقوشا من هذا الموقع يزعم المتخصصون أنهم لاحظوا فيها ملامح فينيقية عربية (1)، و هناك وجه آخر للنظر يذهب صاحبه (وليم أولبرايت) أن أوفير في الصومال، و يتفق هذا مع رواية التوراة عن طول الوقت الذي يلزم للوصول إلى أوفير، حيث تقول «فكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنوات» (2)، ثم يقترح «أولبرايت» بعد ذلك أن الأسطول ربما كان يبحر من عصيون جابر في نوفمبر أو ديسمبر من السنة الأولى، و يعود في مايو أو يونية من السنة الثالثة و بهذا يتجنب الجو الحار، قدر استطاعته، و أن الرحلة في هذه الحالة لا تأخذ أكثر من ثمانية عشر شهرا، هذا فضلا عن أن طبيعة السلع (الذهب و الفضة و العاج و القروود) تشير إلى إفريقية من الواضح أنه كمكان إنما هو الأصل (3).

و هناك وجه ثالث للنظر يحاول أن يوحد «أوفير» ببلاد «بونت» (4)

ص: 172

1- .P, tic- po, relleK. W 202- 201 .

2- ملوك أول 12/10 .

3- .P, tic- po, relleK. W 434 .

4- .P, tic- po, llaH. R. H 454 .



هي دخيلة في اللغة العبرية من بعض لغات أخرى مثل «السنسكريتية» (1)، على أن الخيال ذهب بالبعض إلى أن يذهب أن أوفير إنما تقع في ولاية «الأمازون» البرازيلية في أمريكا الجنوبية، اعتماداً على أن هناك حتى اليوم في ولاية الأمازون أمكنة كثيرة حافظت على أسماء عبرية وفينيقية، كما أن السلع التي نقلتها سفن سليمان و حليفه حيرام من أوفير إلى أورشليم و صور و صيدا، يوجد نماذج كثيرة منها هناك، كما أن أسماءها ليست عبرية أو فينيقية، وإنما هي من صميم لغة سكان الأمازون، فضلاً عن أن اسم «سوليمونس» الذي يحمله أحد فروع الأمازون، إنما هو اسم الملك سليمان نفسه، وقد أطلقه على النهر الكبير أحد أفراد الأسطول تيمناً بالملك العظيم (2)، و هكذا يصل الخيال بالبعض إلى هذا الحد، إلى أن تكون أوفير في أمريكا الجنوبية.

و هناك وجه سابع للنظر يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع في «عسير»، و ثامن يرى أنها في مدين، و رجح كثيرون أنها على سواحل بلاد العرب الغربية أو الجنوبية، على أساس أن هذه الأماكن أقرب إلى الوصف الوارد في التوراة من غيرها (3)، هذا و قد ذكر الهمداني في معاد اليمامة موضعاً سماه «الحفير» فقال: «و معدن الحفير بناحية عماية، و هو معدن ذهب غزير» و وجود الذهب بغزارة في الحفير إنما ينطبق على وصف أوفير إلى حد كبير، إلا أن هذا الموضع بعيد عن البحر، و لكن من يدري فلعل كتبة التوراة لم يكونوا على معرفة بموقع أوفير، و إنما سمعوا بذهبه الذي يتاجر به العرب

ص: 174

1- , 1887 p. 122. E tseR nane, H ierotsiP ud elpueP, I' d larsP, sira و كذا. F. J. 181. niF. J. tic- po, P

2- الأب أميل أدة: الفينيقيون و اكتشاف أمريكا- بيروت 1969 ص 24- 25.

3- جواد عل: المرجع السابق 1/ 639، و كذا. M. B. J 38. tic- po, yremogtnoM. B. و كذا، 7. M. B. ztiroM. B. p, tic- po و كذا، II, P. F. R. 347. B. F. R. 347. notruB. F. R. 347. ezzkiS, naidiM fo seniM dloG ehT,



الجنوبيون، من المواني الساحلية، فأرسل سليمان سفنه إلى موضع يبعه في سواحل بلاد العرب لشرائه، و من هنا ظن كتاب التوراة أن أوفير على ساحل البحر، و الحفير كما يبدو اسم قريب جدا من أوفير (1)، و أخيرا فهناك من يرى أن «أوفير» معناها «الأرض الحمراء» (أي الحمراء بلون الذهب)، و أنها لم تكن علما على بلد بعينه، و إنما كانت اسم جنس ينطبق على بلاد عدة كاليمن و شرق إفريقيا و غرب الهند (2).

هذا و قد قدم لنا الأستاذ الدكتور السيد يعقوب بكر، دراسة علمية جادة عن موقع أوفير، ناقش فيها كل النظريات المختلفة و خلص منها إلى أن الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية هو مكان «أوفير» (3)، فقد كانت بلاد العرب موطننا للذهب الأمر الذي شاع بين الكتاب القدماء من الأغرقة و الرومان، حتى أنهم يذهبون إلى أنه كان يستخرج في مواضع معينة منها، خالصا نقيا لا يعالج بالنار لاستخلائه من الشوائب الغريبة و لا- يصهر لتنقيته، و لهذا قيل له «norypA» و من ثم فقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن العبرانيين إنما قد أخذوا لفظة «أوفير» من «أبيرون» (norypA) هذه (4)، و قد عثر في «مهد الذهب»، و يقع شمالي المدينة المنورة، على أدوات استعمالها القدامى في استخراج الذهب و استخلائه من شوائبه مثل رحي و أدوات تنظيف و مدقات و مصابيح، فضلا عما تركه القوم من آثار في حفر العروق التي يتكون منها الذهب، مما يدل على أن الموقع كان منجما للذهب في عصور ما

ص: 175

- 
- 1- الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 153، جواد علي: المرجع السابق 1/ 639-640.
  - 2- ytiuqitnA,, -21، 1947، p. 239. J - llenroH .ytivitcalavaN ,sesmaR dna namoloS fo yad eht ni ytiuqitnA ,III
  - 15، 1941، p. 361-364. J - llenroH .aeS, llemroH .J semiT ylraE ni edarT- و كذا
  - 3- السيد يعقوب بكر: أوفير ص 116-190 (من كتاب فضلو حورابي- العرب و الملاحة في المحيط الهندي- القاهرة 1958).
  - 4- , 1934 , p. 39. J 39. A. yremogtnoM .elbiB eht dna aibarA

قبل الإسلام، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى سليمان (1).

وهكذا كان من الطبيعي أن يطلب سليمان الذهب في بلاد العرب، وليس في مكان أقصى كالهند وإفريقية، وكان من الطبيعي أيضاً أن يطلبه في الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، لأنه أقرب أجزائه إليه، وبخاصة في «بيشة» وفي «خنكان» وفي المنطقة ما بين القنفذة و مرسى حلج، فضلاً عن «وادي تثليت» على مقربة من «حمضة»، وعلى مبعدة 183 ميلاً من نجران (2)، وربما قد حدث ذلك بعد إسلام ملكة سبأ، في أغلب الظن.

و كان أمام سليمان للوصول إلى ذهب بلاد العرب طريقان، طريق البر عبر الصحراء، وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر، ولكنه آثر الطريق البحري، رغم أن قومه كانوا أهل زراعة ورعي، لم يتمرسوا بالبحار، ذلك لأن طريق البر جد شائق وقد تزيد نفقاته على طريق البحر، وثمة سبب آخر دعا سليمان إلى اختيار طريق البحر هو أنه أراد أن يشرك معه حليفه «حيرام» ملك صور، رغبة في الانتفاع بمهارة الفينيقيين في الملاحة، وربما يالحاح من حيرام نفسه، وأيا كان السبب، فإن الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، إنما كان المصدر الذي استقى منه سليمان الذهب، وكان الذهب أهم السلع التي كانت تجلب من أوفير، ثم يلي الذهب في الأهمية بين سلع أوفير، خشب الصندل والحجارة الكريمة وهما سلع عربية كذلك، هذا فضلاً عن أن التوراة (3) إنما تعد «أوفير» من أبناء يقطان (قحطان في جنوب بلاد العرب) تضعه بين سبأ وحويلة، و«أوفير بن يقطان» هذا (أي شعب أوفير القحطان) هو الشعب الذي يسكن أرض «أوفير»،

ص: 176

1- جواد علي 1/ 193، وكذا، 1954، p. 20، R 23، S. H. regna، T. A. naibar، P. C. alusnine، C. llenro.

2- K. S. T. Ilehctiw، S. A. idu، A. na htiW، C. A. nuocc، و كذا. R. secruoce، P. notecnir، M. B 110، tic- po. ztiro.

1943، p. 77، D. fo tnempolev، N. sti fo laruta.

3- تكوين 29/10.

وبدهي أنه ليس هناك «أوفيران»، أوفير في الجزيرة العربية، وأوفير في مكان آخر، كما يزعم البعض (1).

وأما الفضة والعاج والقروود والطواويس، فالفضة كانت دائما غالية في بلاد العرب، ولهذا رأى بعض الباحثين أنها مقحمة في النص (2)، ولكن من الممكن أنها كانت تستورد إلى أوفير، والأمر كذلك بالنسبة إلى العاج، إما من إفريقية القريبة، وهو الأرجح، وإما من الهند البعيدة، وأما القروود فهي مستوردة أيضا، إلا إذا كان المراد «النسانيس» كما يقول «مونتجمري» (3)، وهي ما تزال ترى في مرتفعات اليمن وحضرموت، وعندئذ فهي سلعة عربية، وكذلك «الطيوب» التي يجعلها «جلازر» مكان القروود، سلعة عربية كذلك، بل هي السلعة التي يتهافت عليها الشرق والغرب، وكانت مصدر غنى وثروة لعرب الجنوب، ثم يتبقى بعد ذلك «الطواويس»، وهي سلعة هندية في الأصل، فلا بد أن أوفير كانت تستوردهما من الهند، وإذا صح ما يقوله «نيبور» من أن المراد «العبيد»، كانت السلعة مستوردة أيضا، ولكن من إفريقية (4).

أضف إلى ذلك كله أن هناك ما يثبت أن الاتصال البحري بين شمال البحر الأحمر والهند لم يتم إلا في عصر قريب من القرن الأول الميلادي أوفي عصر لا يبعد كثيرا عن القرن الأول، وفي هذا زعزعة للنظرية الهندية (5)، وكذا النظرية «جلازر» والتي تذهب إلى أن أوفير التوراة إنما هي الساحل

ص: 177

1- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 150-154.

2- .Y. N, I, slateM dna naM, drakciR. A. T 267. p. 1932,

3- .P, tic- po, yremogtnoM. J 39.

4- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 154-155.

5- P, I, HAC. 212- 119 و كذا. P, tic- po, naneR. C 122- 119 و كذا، 15، 1941، H. J 244. p. 1941، ytiuqitnA, llenroH.

1947. p. 72- 73. ytiuaitnA.

العربي من الخليج الفارسي (العربي) من الشمال حتى رأس مصندم (1)، ثم إن هذا يثبت كذلك أن السفن قبل القرن الأول كانت تستطيع عبور باب المندب إلى عدن، وفي هذا زعزعة لرأي «موريتز» (2) الذي يرى أن السفن في عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب، و إذن فإن سفن سليمان كانت تستطيع حمل سلع أوفير من ميناء عربي قبل باب المندب، كميناء «مخا» أو بعده كميناء «عدن» ثم إن انتساب العاج و القرود و الطواويس في العربية إلى أصول هندية، ليس دليلا على أن السلع كانت تستورد من الهند نفسها، فقد كان باب الاستيراد مفتوحا، كذلك لا يستطيع الاستدلال على أن أوفير في بلد ما، بورود أسماء متشابهة لأوفير في هذا البلد، فكثيرا ما يكون التشابه اللفظي عارضا (3).

و يناقش الدكتور يعقوب بكر بعد ذلك الاعتراضات التي وجهت إلى هذه النظرية، و منها أن ذهب بلاد العرب كان قليلا بالقياس إلى المقادير الهائلة التي كانت تصل منه إلى سليمان، و أن السنوات الثلاث التي كانت تستغرقها رحلة أوفير، يستحيل معها أن تكون أوفير في مكان قريب من عصيون جابر، فهذان الاعتراضات يقومان على أساس التسليم بقصة التوراة عن أوفير حرفيا، و لكن ألا تجوز المبالغة في هذا المجال الأدبي، و لا سيما أن الأمر يتعلق بسليمان الذي سارت بذكره الركبان، و الذي كان يحتاج فعلا إلى ذهب كثير لتزيين الهيكل وقصر الملك، ثم ألا يمكن أن يكون الغرض من المبالغة التوراتية إظهار حملات أوفير، و كأنها أبهى من حملات الفراعنة إلى «بونت» أو بمنزلتها على الأقل، و أخيرا فمن المتفق عليه أن نصوص التوراة ليست فوق مظان الشك و الريبة.

ص: 178

1- . P, II, sneibarA sihpargoeG dnu ethcihcseG red ezzikS, resalG. E 373- 368 .

2- . P, tic- po, ztiroM. B 89- 86 .

3- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 156- 157.

و أما عن ذكر السنوات الثلاث التي كانت تستغرقها الرحلة إلى أوفير، فهي أولا قد وردت في المصادر التوراتية المتأخرة، ثم هي مبالغة أيضا، فقد يجوز أن يكون المعنى أن سليمان كان يبعث بسفنه مرة كل ثلاث سنين، وعندئذ لا تكون الإشارة إلى زمن الرحلة، ولكن إلى المدة الفاصلة بين كل رحلة وأخرى (1)، هذا فضلا عن أن وجهة نظر «أولبرايت» عن الرحلة، ربما كانت تتصل برحلة أخرى غير رحلة أوفير، ذلك لأن «ستانلي كوك» (2) يرى أن سليمان و حيرام قد امتلكا أسطول «ترشيش»، والذي يمكن الحكم عليه من اسمه أنه قد ذهب إلى ترشيش في أسبانيا، و أما أسطول الفينقيين فقد أبحر من عصيون جابر في أدوم ليحضر الذهب من أرض أوفير (في جنوب بلاد العرب)، وهكذا يبدو أن رحلة السنوات الثلاث ربما لا تتصل بأوفير، ولكنها تتصل بأسطول «ترشيش» (3) إلى أسبانيا، وإن كان ذلك سيجرنا إلى متاعب أخرى، علما بأن هناك من يرى أن هناك علاقات تجارية بين حيرام من ناحية، وبين قبرص و أسبانيا من ناحية أخرى (4).

## [6] النشاط الصناعي:-

لم تكن عصيون جابر ميناء تجاريا فحسب، ولكنها كانت كذلك مركزا صناعيا، وفي الواقع فلقد كان اختيار موقعها اختيارا موفقا، في مكان لم يسكن من قبل بين تلال أدوم من الشرق، و تلال فلسطين من الغرب، حيث

ص: 179

1- انظر عن مصادر التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 97/3 - 106.

2- السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص 148-160.

3- .P, tic- po, kooC. A. S 367.

4- يذهب البعض إلى أن «ترشيش» تقع في سردينيا، ويذهب آخرون إلى أنها هي «ترتيسوس» في جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق أو لعلها قرطاجة في شمال إفريقية (قاموس الكتاب المقدس 1/ 215-216 و كذا. P, tic- po, regnU. F. M 1071- 1070 و كذا، 1957, p. 206. nodnoL, namoloS gniK, regrebeihT F 206.



عليه السلام، فرأى يذهب أصحابه من المؤرخين المحدثين إلى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام، أكبر من تلك التي ورثها سليمان لمن أتوا بعده من ملوك بيت يهوذا وإسرائيل، وذلك لأن الأمور في خارج فلسطين لم تكن تسير في نفس المجرى الذي اتخذته في الداخل (1)، وقد بدأت المتاعب ضد دولة سليمان تظهر على الحدود، ذلك أن «يوأب» قائد جيش داود كان قد اجتاح «أدوم» قبل ذلك بنصف قرن، وقتل كل ذكورها بحد السيف، وقد استطاع «هدد»، وهو طفل أدومي من الأسرة المالكة، أن يهرب إلى مصر، وحين اشتد ساعده وجد رضا في عين فرعون الذي زوجه من «تحنيس» (تحفيس) أخت زوجة الملكة، ثم عاد هدد إلى أدوم، بغير موافقة فرعون، وأصبح العدو اللدود لسليمان مدى الحياة (2)، ونقرأ في التوراة أنه «أصبح ملكا على أدوم» (3)، وربما قد حدث ذلك في فترة مبكرة من عهد سليمان، وطبقا لرواية أخرى في التوراة (4)، فقد كان لسليمان مدخل إلى خليج العقبة وميناء «عصيون جابر»، عبر وادي عربية، أي عبر الجزء الأساسي الهام من أدوم، ويفترض بعض المؤرخين أن سليمان قد عقد اتفاقا مع «هدد»، بتوسط من فرعون الذي كان يريد أن تفسد علاقاته الودية مع صهره سليمان، إن صحت روايات التوراة، وإن لم تعد لسليمان سيطرة على ولاية أدوم، كما أنه ليس هناك ما يدل على أن سليمان قد اتخذ من الخطوات ما يجعله يستعيد سيطرته على أدوم مرة أخرى (5).

ونقرأ كذلك في التوراة «أن الله أقام لسليمان خصما آخر، هو «رزون

ص: 181

1- .P, tic- po, sdoL. A 268 . و كذا. P, tic- po, htoN. M 206.

2- .P, tic- po, sdoL. A 368 . و كذا. P, tic- po, htoR. C 23 و كذا. P, tic- po, htoN. M 256- 250 و كذا. P, tic- po, sdoL. A 368 .  
3- .llaH. R. H 433

3- ملوك أول 11 / 14 - 22 و كذا، 1961، p. 329. H. A. shoarahp eht fo tpygE, renidraG.

4- ملوك أول 11 / 25.

5- .P, . tic. PO, sdoL. A 268 . و كذا. P, . tic. PO, htoN. M 206.

بن اليداع» (رصين) الذي هرب من سيده «هدد عرر» ملك صوبة، و أقام مملكة في دمشق، و كان خصما لإسرائيل كل أيام سليمان مع «هدد» (1)، و هكذا نمت المملكة الآرامية في دمشق، ثم تطورت بعد فترة قصيرة حتى غدت أقوى سلطة في سورية، الأمر الذي أدى إلى أن ما أوجده داود من نفوذ في دمشق قد ضاع الآن (2).

هذا و في نفس الوقت كانت مصر قد بدأت حالتها في الانتعاش، و بالتالي فقد بدأت تحاول إعادة سيطرتها في غربي كنعان فهناك ما يشير إلى حملة ضد الفلسطينيين شعوب البحر في جنوب غرب كنعان، فقد عثر في «تانيس» على نقش بارز على جدران مبنى شيده «بسوسنس الأول» و «سيامون» (سي آمون) من الأسرة الحادية و العشرين، جنوب معبد آمون الرئيسي، يصور فيه «سيامون»، و هو يضرب عدوا راکعا أمامه، و قابضا في يده على فأس للحرب مزدوجة من ذلك النوع الذي كان يتخذه الإيجيون من أسلحة الحرب (3)، هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن سيامون قد أرسل جيوشه لمحاربة الفلسطينيين في جنوب غرب كنعان، و أن مدينة أسدود قد غزيت، و أن هناك آثارا في «تل فرعة» لنفس الفرعون (4)، بل إن هناك من يذهب إلى أن سيامون قد فكر في غزو إسرائيل نفسها (5).

أضف إلى ذلك أن أعداء سليمان قد نشطوا كثيرا، و نجحوا في

ص: 182

1- ملوك أول 11 / 23-25.

2- .. M 206 .P, tic- po, htoN.

3- ., P 36 ., pl. 1 . P, II, nokrosO, tetnoM.

4- ., 1963, ., no. 12, p. 48-49 .A .tamalaM ,stcepsA ,eht fo ngieroF ,PnicioS dna divaD fo SENJ ni .22

5- .F. P, . dibI 16, 13 .



استعادة بعض البقاع التي كانت خاضعة لداود، وأصبح ملك سليمان في غرب الأردن فقط (1) (فلسطين)، وأصبح الفلسطينيون الهنود و أوريون في غزو و ما بعدها في نجوة من سلطانه، هذا فضلا عن أن ممالك و ملوك شعوب شرق الأردن إنما كانوا يمارسون سلطانهم المحلي بعيدا عن قبضة سليمان، مما يدل على أن هذه الممالك و الشعوب التي كان داود قد أخضعها في شرق الأردن و سورية الآرامية قد تقلت من سيادته، كما تقلت الفلسطينيون منها كذلك (2).

و على أي حال، فإن النبي الكريم ما أن ينتقل إلى جوار ربه، راضيا مرضيا عنه، حتى يستولي «شيشنق الأول» أول فراغنة الأسرة الثانية و العشرين (945-730 ق. م) على أورشليم، و يأخذ معظم ما فيها من كنوز (3)، و سواء أ كانت حملة شيشنق هذه، فيما يرى البعض (4)، بسبب استنجد «يربعام» زعيم الثوار الإسرائيليين بمصر، ضد بيت سليمان، أو أنها كانت، فيما يرى آخرون، لإعادة سورية و فلسطين إلى حظيرة الامبراطورية المصرية (5)، فإن التدخل المصري في إسرائيل، في أعقاب موت النبي الكريم، إنما أدى إلى احتلال معظم مدن فلسطين، و الاستيلاء على خزائن معبد سليمان و قصره (6)، بل إن التوراة نفسها (7) إنما تشير إلى خضوع

ص: 183

1- , 1969 , C 21 . p. htoR. A, trohs H yrotsi fo eht JsiweP .elpoe

2- محمد عزة دروزة: المرجع السابق ص 262-263.

3- , 1965 , G. H 77-76 . p. W. G. H A, trohs H yrotsi fo eht Wdro.

4- . A 375-374 . p. sdoL. A, tic- po, htoR. C 31 و كذا. P, tic- po, llaH. R. H 437-436 .P, tic-

5- . H. A 330-329 . p. renidraG. H. A, tic- po.

6- ملوك أول 14 / 25-27.

7- أخبار أيام ثان 12 / 18.

«يهودا» التي كانت من نصيب رحبعام بن سليمان، للامبراطورية المصرية، أو على الأقل، فإن معظم المدن هناك إنما كانت تقوم بدفع الجزية لمصر، و أما الدولة الأخرى (إسرائيل) فقد أصبحت تحت النفوذ المصري تماما (1).

على أن فريقا آخر يذهب أصحابه من المؤرخين المسلمين إلى ملك واسع لسليمان عليه السلام، وربما بغير حدود، بل إن المصادر الإسلامية إنما تزعم لدولة سليمان ما لم تزعمه لها المصادر اليهودية نفسها، ذلك أن التوراة رغم المبالغات المعروفة عنها، إنما تذهب إلى أن مملكة إسرائيل في أقصى اتساع لها، وفي أزهى عهدها، إنما كان «من دان إلى بئر سبع» (2) (و دان تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي، على مبعده ثلاثة أميال غربي بانياس) (3) من الشمال إلى الجنوب، و أما من الشرق إلى الغرب، «فمن النهر (الأردن) إلى أرض فلسطين و إلى تخوم مصر» (4)، و هي حدود تشمل فلسطين بالكاد، و مع ذلك فإن بعض المصادر العربية تجعل سليمان عليه السلام واحدا من أربعة ملكوا الدنيا كلها (نمرود و بختنصر و هما كافران، و سليمان بن داود و ذو القرنين و هما مؤمنان) (5)، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيدا في إيران، حيث).

ص: 184

1- . A. S 359 . p, tic- po, kooC.

2- قضاة 1/20، صوثيل أول 20/3، صموئيل ثان 15/24، أخبار أيام أول 2/21، و كذا. P, tic- po, regnU. F. M 236.

3- قاموس الكتاب المقدس 356/1-357.

4- ملوك أول 21/4، ثم قارن ملوك أول 11/9.

5- أنظر: تاريخ الطبري 234/1، الكامل لابن الأثير 54/1، البداية و النهاية 148/1، ثم أنظر مناقشتنا لهذا الاتجاه (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم 116/1-119).

اتخذ من «اصطخر» (التي ينسبون إليه أو إلى الجن المسخر بأمره، أمر بنائها)، مقرا لحكمه، بينما يذهب فريق ثالث إلى أن ملك سليمان إنما قد وصل إلى اليمن (1).

و في عام 1986 م صدر كتابان، يزعم الأول منهما أن دولة داود و سليمان عليهما السلام إنما قامت في غرب شبه الجزيرة العربية (من الطائف و حتى نجران)، و ليست في فلسطين، و كما تقول التوراة «من دان إلى بئر سبع» غير أن «دان» فيما يزعم المؤلف، ليست هي المدينة التي تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي، حيث منابع الأردن، على مبعده ثلاثة أميال من بانياس، كما هو معروف، و إنما هي «الدنادنة» في تهامة زهران، و أن «بئر سبع» ليست هي المدينة المعروفة في جنوب فلسطين، و إنما هي الشباعة في مرتفعات خميس مشيط، و من ثم فإن دولة داود و سليمان، فيما يزعم المؤلف، إنما تمتد من «الدنادنة» في تهامة زهران جنوب وادي أضم، و حتى شباعة في مرتفعات خميس مشيط، شرقي رجال ألمع، و أما عاصمة الدولة القدس (أورشليم) فيذكر المؤلف رواية التوراة أن داود عليه السلام نقل عاصمته من حبرون إلى أورشليم، لكنه يزعم أن هناك خمسة أماكن تسمى «حبرون» ما تزال تحمل اسم «خربان» على المنحدرات البحرية لعسير، و من الأمكنة الخمسة يختار المؤلف قرية «الخربان» الحالية في منطقة المجاردة، كعاصمة أولى لداود، و هي نفسها، فيما يزعم، حبرون إبراهيم عليه السلام، و ليست «حبرون» المشهورة في فلسطين، و هي مدينة الخليل الحالية، على مبعده 19 كيلا شمال القدس، و أما «أورشليم» فهي ليست،

ص: 185

---

1- ياقوت الحموي: معجم البلدان 1 / 211 (بيروت 1955)، دائرة المعارف الإسلامية 3 / 458-569 (دار الشعب- القاهرة 1970)  
علي إمام عطية: الصهيونية العالمية و أرض الميعاد ص 71-72.

فيما يزعم، مدينة القدس الحالية (حيث المسجد الأقصى) وإنما هي قرية «آل شريم» الحالية، على مبعده 35 كيلا شمالي بلده «النماص» في سراة عسير، شمال مدينة أبها (1).

و أما الكتاب الثاني فيزعم صاحبه أن سليمان عليه السلام قامت على عهده، و عهد أبيه (داود عليه السلام) دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس، و حدودها من المؤكد كانت تشمل بلاد الشام الحالية (سورية و فلسطين) و تشمل الجزيرة العربية كلها، و أنهما يعتبران ذلك من تمكين الله لسليمان فأعطاه ملكا لم و لن ينبغي لأحد من بعده (2)، ثم يقولان بعد ذلك، و في نفس الكتاب: لا يعقل أن تكون هناك أمة مشرقة في عهد سليمان الذي طويت له الأرض، و مكن له فيها، و أوتي من كل شيء (3)، فضلا عن أنهما زعما في كتاب آخر أن سليمان عليه السلام كان نبيا عربيا (4)، بينما يذهبان في كتاب آخر أنه من سلالة إسرائيل عليه السلام (5).

و لعل من الأفضل هنا، أن نرد أولا على هذه الآراء الآتفة الذكر، قبل أن نتعرض لرأي المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (6)، فأما أصحاب الرأي الأول، و الذي يذهب إلى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام أكبر من تلك التي ورثها سليمان لمن أتوا بعده من ملوك

ص: 186

- 
- 1- كمال سليمان الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب- ترجمة عفيف الرزاز- ط ثانية- بيروت 1986- مؤسسة الأبحاث العربية ص 175-193.
  - 2- جمال عبد الهادي و وفاء محمد رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام و بيت المقدس - دار طيبة- الرياض 1986 ص 256، 259.
  - 3- نفس المرجع السابق ص 270.
  - 4- جمال عبد الهادي و وفاء رفعت: جزيرة العرب ج 1 ص 80.
  - 5- جمال عبد الهادي و وفاء رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام و بيت المقدس ص 255-256.
  - 6- سورة طه: آية 35.

يهودا وإسرائيل، وذلك بسبب عودة «هدد» أمير أدوم من مصر و استقلاله بدولته، و بسبب «رصين» الذي أقام مملكة في دمشق و قضى على نفوذ إسرائيل فيها، و بسبب حالة الانتعاش في مصر و التي صاحبت عهد سليمان، فذلك رأي بالغ أصحابه فيه كثيرا، فضلا عن اعتمادهم في الدرجة الأولى على التوراة، فيما يتصل بهدد و رصين، و التوراة كما هو معروف، مصدر غير موثوق فيه، و أقل ما يوصف به أنه نص محرف (1)، و من ثم فلا يمكن الاعتماد عليه، ما لم تؤيده مصادر أخرى، و هذا ما لم يثبت حتى الآن، ثم إن كل الدلائل، الدينية و التاريخية، تشير إلى أن سليمان قد مكّن له، كما مكّن لأبيه من قبل، و أما الانتعاش المصري و الرغبة في إعادة السيادة المصرية على غربي كنعان، فأدلة أصحاب هذا الرأي تعتمد على آثار تشير إلى حملات مصرية ضد الفلسطينيين الهند و أوربيين، و الذين كانوا يسكنون المنطقة ما بين يافا و غزة على ساحل البحر المتوسط، و ليس هناك دليل واحد يشير إلى حملات مصرية ضد مملكة سليمان، بل إن الأدلة كلها تشير إلى علاقات ودية بين مملكة سليمان و مصر، و أن فرعون كان حريصا على أن لا يفسد العلاقات الودية بينه و بين صهره سليمان ملك إسرائيل، كما رأينا من قبل، و أما حملة «شيشنق» على فلسطين، و التي يعتبرها البعض دليلا على ضعف مملكة سليمان، فيكفي القول إن هذه الحملة كانت بعد موت سليمان بأعوام خمسة، و من ثم فهي غير ذي موضوع بالنسبة لعهد سليمان، كما أنها كانت بعد انقسام مملكة سليمان بين ولده رحبعام و الثائر يربعام.

و أما ما ذهب إليه «برستد» من أن سليمان كان واليا تحت النفوذ المصري (2)، فيكذبه أن صاحبه لم يقدم دليلا واحدا على صحته، و هي

ص: 187

---

1- أنظر: سورة البقرة آية 79، 159، آل عمران: آية 78، النساء: آية 46، المائدة 13، 15، محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/ 136-379.

2- Y. N, tpygE fo yrotsiH A, detsaerB. H. J 529. p. 1946 , -2.

سقطه لا شك فيها من المؤرخ الكبير، كما أن مصر على أيام سليمان لم يكن لها نفوذ في فلسطين من أي نوع، والأهم من ذلك كله: هل يقبل عاقل أن يكون نبي، أي نبي، تابعا لملك كافر، ولما ذا يتبعه، هل ليكون ملكا على فلسطين، ولكن ما قيمة ملك فلسطين، بجانب شرف النبوة، فما بالك إذا كان هذا النبي هو سليمان، الذي وهبه الله، بجانب النبوة، ملكا لا ينبغي لأحد بعده، اللهم إنا نبرأ من قول كهذا، و نسألك أن تلهمنا جانب الصواب والأدب مع أنبيائك ورسلك، وأن تحمينا من أن نساق، دون أن ندري، في تيار كتبة التوراة، أو في تيار قلة من المؤرخين المحدثين ممن يلقون التهم جزافا على سيدنا سليمان عليه السلام، و بدهي أن خضوع سليمان النبي لفرعون من الفراعين تهمة لا شك فيها، نبرأ إلى الله منها، وأخيرا فإن أصحاب هذا الرأي تسقط كل حججهم بالرجوع إلى قصة سليمان مع ملكة سبأ، كما جاءت في القرآن الكريم، فإن الذي يهدد ملكة سبأ، أعظم دول الجزيرة العربية، وهي بعيدة عن مملكة سليمان بآلاف الكيلومترات، لا يمكن بحال من الأحوال، أن تكون دولته ضعيفة، يهددها أمثال أمير أدوم أو دمشق أو غيرهم من النكرات التي كانت تعيش في سورية و فلسطين تحت ظلال دولة سليمان، ثم إن سليمان الذي سخر الله له طائفة من الإنس و الجن و الطير و الشياطين، لن يعجز عن جماع قوم من ضعاف المشركين، ولا ريب في أن من سخر له من يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه، يمكن أن يسخر له، ما يستطيع به القضاء على كل أعدائه.

و أما أصحاب الرأي الذي يعطي سليمان عليه السلام ملكا واسعا، ربما بغير حدود، و يجعل عاصمته في «اصطخر» و يملكه بلاد اليمن، فأما عن «اصطخر» فليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد يعرفون أن اصطخر لم يبدأ الفرس في بنائها إلا حوالي عام 520 ق. م، على أيام دارا الأول (522-486 ق. م)، و لم يتم البناء إلا في عهد «أرتخششتا الأول»،

حوالي عام 460 ق.م، أي بعد وفاة سليمان (960-922 ق.م) بحوالي أربعة قرون (1)، وأما ملك اليمن فأمره عجيب، فالبعض خلط بين إسلام ملكة سبأ وبين خضوع دولتها لسليمان، والبعض أعطى سليمان ملك اليمن 320 سنة، مع أن المؤرخين، ومنهم صاحب هذا الرأي، يجمعون على أن ملك سليمان لم يزد عن أربعين سنة، وأنه مات، وله اثنتان وخمسون سنة (2)، وأما إسلام ملكة سبأ فقد كان لله مع سليمان «قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وهكذا اهتدى قلبها واستنار، وعرفت أن الإسلام لله وحده ليس استسلاماً لأحد من خلقه، حتى وإن كان هو سليمان، النبي الملك صاحب المعجزات، إنما الإسلام لله رب العالمين، ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» وقد سجل السياق القرآني هذه اللفتة الأخيرة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله لا غالب منهما ولا مغلوب، وهما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة (3)، ثم إن الذين يقولون بضم اليمن إلى مملكة سليمان إنما يخطئون في فهم دعوة الرسل، فهم لا يريدون ملك الناس وديانهم، وإنما يريدون هدايتهم إلى عبادة الله وحده، وإلى الإيمان بشرائعه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل في قصة سليمان مع ملكة سبأ.

وأما الدكتور الصليبي فلم يقدم لنا في دعواه أية أدلة علمية يمكن أن تؤيد مزاعمه التي تمس الدين والوطن، سوى الزعم بأن هناك قرى في غرب

ص: 189

1- أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص 229، آرثر كريستس: إيران في عهد الساسانيين ص 80.

2- تاريخ اليعقوبي 1/60، 196.

3- في ظلال القرآن 5/2643.

الجزيرة العربية، يمكن أن تشابه أسماؤها مع أسماء أماكن جاءت في توراة يهود و من ثم زعم أن غرب الجزيرة العربية هي أرض التوراة، و ليست فلسطين، و في الواقع لو طبقنا مزاعمه هذه على الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، لكان الكثير من مدنها، اعتمادا على تشابه أسماء بعض المدن، إنما هي مدن عربية، كان يسكنها العرب في العصور القديمة، ناهيك عن تشابه أسماء بعض المدن و القرى في البلاد، العربية نفسها، الأمر الذي يمكن أن يتفق و ما زعمه الدكتور الصليبي من مسخ للحقائق الدينية الثابتة، فضلا عن الحقائق التاريخية و الجغرافية المتعارف عليها منذ آلاف السنين.

و أما دعوة الدكتور جمال عبد الهادي و الدكتور وفاء رفعت من أن سليمان قامت على عهده، و عهد أبيه داود، عليهما السلام دولة إسلامية عاصمتها القدس، و حدودها من المؤكد أنها كانت تشمل الشام كله و الجزيرة العربية كلها، فلست أدري من أين جاءا بدعواهما أن داود كون دولة شملت الشام كله و الجزيرة العربية كلها، و ليس في القرآن الكريم و الحديث الشريف و لا في المصادر العربية أو اليهودية أو الأثرية ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد، و أما ملك سليمان لليمن فقد ناقشناه من قبل، و ليس هناك من دليل يثبت استيلاء سليمان على اليمن و ضمها إلى مملكته، فضلا عن ضم الجزيرة العربية كلها، و اليمن جزء من الجزيرة العربية، و ليس كل الجزيرة العربية، ثم يقول المؤلفان أن الله مكّن سليمان فأعطاه ملكا لم و لن ينبغي لأحد من بعده؟ فهل ملك الشام و الجزيرة العربية يعتبر هو الملك الذي لم ينبغ لأحد من بعد سليمان، أم أن هناك آخرون ملكوا أكثر من الشام و الجزيرة العربية، فمثلا الإسكندر المقدوني في التاريخ القديم، و الدولة الإسلامية على أيام الراشدين و الأمويين و العباسيين، ناهيك عن الامبراطوريات الأوروبية في العصر الحديث.

و أما القول بأنه لا يعقل أن تكون هناك أمة مشرقة في عهد سليمان



الذي طويت له الأرض و مكن له فيها، و أوتي من كل شيء، فلست أدري ما ذا يعني المؤلفان بذلك، و هل تبق حقا أمة مشركة في عهد سليمان بعد إيمان ملكة سبأ، و هل أصبحت مصر الفرعونية أو العراق القديم مثلا، و هما أقرب إلى فلسطين مقر مملكة سليمان من اليمن، من الأمم المسلمة في عهد سليمان؟ ثم، و هذا في منتهى الأهمية، هل بعث سليمان للناس عامة، أم أنه بعث إلى قومه خاصة، ذلك أنه من المعروف أن كل نبيّ إنما كان يبعث إلى قومه خاصة، و أن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم هو وحده الذي بعث إلى الناس كافة بشيرا و نذيرا «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا»، «و ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا»، و في الصحيحين عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، فأیما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، و أحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي، و أعطيت الشفاعة، و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة» (1).

ثم إن المؤلفين مضطربان في نسب سليمان عليه السلام، فهو مرة نبي عربي، و هو مرة أخرى من بني إسرائيل من سلالة يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، و هذا هو الصحيح، ثم كيف يكون سليمان نبيا عربيا، و سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في حديث أبي ذر المشهور:

و أربعة من العرب، هود و صالح و شعيب و نبيك يا أبا ذر» (2)، و في رواية:

«و أربعة من العرب، هود و صالح و شعيب و محمد عليه السلام» (3).

بقي الآن أن نتحدث عن رأي المفسرين و المؤرخين المسلمين في قوله تعالى:

ص: 191

1- تفسير ابن كثير 3/ 857.

2- البداية و النهاية تفسير ابن كثير 1/ 891-892 (بيروت 1986).

3- تفسير النسفي 1/ 263-264.

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (1)، إذ ترى جمهرة كبيرة من المفسرين والمؤرخين أن سياق الآيات الكريمة تفيد أن الزيادة التي أوتيتها سليمان عليه السلام في ملكه المعبر عنها بقوله تعالى:

مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إنما هي إيتاؤه بعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى:

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (2)، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه، مفتتحاً بالفاء الدالة على الربط و التعقيب و الترتيب (3)، وهذا ما نميل إليه و نرجحه، و يقول ابن الأثير أن سليمان عليه السلام سأل الله أن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب الله و سخر له الإنس و الجن و الشياطين و الطير و الريح، فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه، عكفت عليه الطير، و قام له الإنس و الجن حتى يجلس (4)، و يقول الطبري (5): و سخرت له الريح و الشياطين يومئذ، و لم تكن سخرت له من قبل (أي بعد أن جلس الشيطان على كرسیه) و هو قوله تعالى: وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (6)، و من هنا فقد ذهب المسعودي إلى أن ملك سليمان كان أربعين سنة على فلسطين و الأردن (7)، و قول ابن خلدون: إن سليمان قد ضرب الجزية على جميع ملوك الشام مثل فلسطين و عمون و كنعان و مؤاب).

ص: 192

- 1- سورة ص: آية 35.
- 2- سورة ص: آية 36-37.
- 3- عويد المطرفي: المرجع السابق ص 114-115.
- 4- الكامل لابن الأثير 1/128.
- 5- تاريخ الطبري 1/501.
- 6- سورة ص: آية 35.
- 7- مروج الذهب للمسعودي 1/70 (بيروت 1965).

وَأدوم والأرمن (أي الآراميين) وهذا لا يعدو أيضا فلسطين وشرق الأردن (1).

وإذا ما رجعنا إلى كتب التفسير لرأينا الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، يقول في تفسير الآية الكريمة: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، أن أقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام لم يرد به أثره، وإنما أراد الاختصاص الذي يتجلى في صورة معجزة، فقد أراد به النوع، أراد به ملكا ذا خصوصية تميّزه من ملك كل ملك آخر يأتي بعده، وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة في الملك الذي يعرفه الناس، وقد استجاب الله له، فأعطاه فوق الملك المعهود، ملكا خاصا لا يتكرر (2)، ثم يحدد صاحب الظلال هذا الملك المعهود بأنه لا يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين وسورية ولبنان والعراق إلى ضفة الفرات (3)، أي الشام بمعنى آخر، لا أكثر ولا أقل، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعده هذه السلبة (يعني الشيطان الذي جلس على كرسيه) أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته (4)، ويقول النسفي أن سليمان عليه السلام سأل ملكا بهذه الصفة (لا ينبغي لأحد من بعدي) ليكون معجزة له، لا حسدا (5)، و كان قبل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين، فلما دعا بذلك «.

ص: 193

1- تاريخ ابن خلدون 2/ 112.

2- في ظلال القرآن 5/ 3020.

3- في ظلال القرآن 5/ 2635.

4- الدر المنثور 5/ 313.

5- تفسير البيضاوي 5/ 19. جاء في تفسير الطبري (23/ 164 ط بيروت 1984) ذكر عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قرأ قوله تعالى: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي فَقَالَ: «إنه كان لحسودا، فإن ذلك ليس من أخلاق الأنبياء، قيل: أما رغبته إلى ربه فيما رغب إليه من الملك، فلم تكن إن شاء الله به رغبة في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما رغب إليه فيه، وقبول توبته، وإجابته دعائه».

سخرت له الريح والشياطين ولن يكون معجزة حتى يخرق العادات (1).

ويقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحد من بعدي، أي لا يصح لأحد أن يسلبنيه بعدي، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أن يحجر على من بعده من الناس، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال البخاري عند تفسير هذه الآية، حدثنا إسحاق إبراهيم أخبرنا روح و محمد بن جعفر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إني عفريتاً من الجن تقلت على البارحة، أو كلمة نحوها، ليقطع على الصلاة، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام: «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي»، قال روح: «فرده خاسئاً»، وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به (2).

هذا وقد قدم لنا الإمام الطبري عدة روايات في تفسير الآية الكريمة، منها أن الله تعالى سخر لسليمان الريح والشياطين يومئذ، ولم تكن سخرت له من قبل ذلك، وهو قوله: وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي، لا يسلبنيه أحد، كما سلبنيه قبل هذا الشيطان، ومنها يقول تعالى ذكره: -

ص: 194

1- تفسير النسفي 4/ 43.

2- تفسير ابن كثير 4/ 56-57 (ط بيروت 1986) وانظر: صحيح البخاري 6/ 156، صحيح مسلم 2/ 72، سنن النسائي 3/ 13، مسند الإمام أحمد 3 ك 83.

فاستجبنا له دعائه، فأعطيناه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، «فسخرنا له الريح» مكان الخيل التي شغلته عن الصلاة «تجري بأمره رخاء» يعني رخوة لينة، وهي من الرخاوة عن الحسن: أن نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم لما عرضت عليه الخيل، فشغله النظر إليها عن صلاة العصر «حتى توارت بالحجاب» فغضب الله، فأمر ففعلت، فأبدله الله مكانها، سخر الريح تجري بأمره رخاء حيث شاء، ومنها ما روى عن الضحاك في قوله تعالى: وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي، فإنه دعا يوم دعا، ولم يكن في ملكه الريح، و كل بناء وغواص من الشياطين فدعا ربه عند توبته واستغفاره، فوهب الله له ما سأل، فتم ملكه، وعن الضحاك أيضا «و الشياطين كل بناء وغواص» قال لم يكن هذا في ملك داود، أعطاه الله ملك داود، وزاده الريح، «و الشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد»، يقول في السلاسل، و يقول الإمام الطبري:

و أولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي ذكرناه عن الحسن و الضحاك من أنه عني بالعطاء ما أعطاه الله تعالى ذكره من الملك، و ذلك أنه جل ثناؤه ذكر عقيب خبره عن مسألة نبيه سليمان، صلوات الله و سلامه عليه، إياه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأخبره أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بني آدم، و ذلك تسخيره له الريح و الشياطين على ما وصفت، ثم قال له عز ذكره:

هذا الذي أعطيناك من الملك، و تسخير ما سخرنا لك عطاؤنا، و وهبنا لك ما سألتنا أن نهبه لك من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك «فامنن أو أمسك بغير حساب» (1).

و يقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير في تفسير الآية: أن الملك هو القدرة، فكان المراد أفدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري البتة، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي و رسالتي، و الدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال عقيب: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً).

ص: 195

حَيْثُ أَصَابَ، فَكُونَ الرِّيحَ جَارِيَا بِأَمْرِهِ قُدْرَةً عَجِيبَةً وَ مَلِكًا عَجِيبًا، وَ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَعْجَزَةٌ دَالَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ، فَكَانَ قَوْلُهُ؛ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي هُوَ هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ شَرْطَ الْمَعْجَزَةِ أَنْ لَا يَقْدِرَ غَيْرُهُ عَلَى مَعَارَضَتِهَا، فَقَوْلُهُ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي يَعْنِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَعَارَضَتِهِ، وَ هُنَاكَ وَجْهٌ آخَرٌ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا مَرَضَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الصِّحَّةِ، عَرَفَ أَنَّ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا صَائِرَةٌ إِلَى الْغَيْرِ يَارِثُ أَوْ بِسَبَبِ آخَرَ، فَسَأَلَ رَبَّهُ مُلْكًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَ ذَلِكَ الَّذِي سَأَلَهُ بِقَوْلِهِ: مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي، أَيُّ مُلْكًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَقِلَ عَنِّي إِلَى غَيْرِي (1).

وَ هَكَذَا يَبْدُو وَاضِحًا أَنَّ جَمَهْرَةَ الْمُفَسِّرِينَ لَا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، سَأَلَ اللَّهَ مُلْكًا وَاسِعًا، بِمَعْنَى مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الْأَرْضِينَ، وَ إِنَّمَا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى مُلْكًا مَعْجَزًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتُ مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعْجَزَاتٍ لَمْ يَشَارِكْ فِيهَا أَحَدٌ، كَمَا أَشْرْنَا إِلَى كُلِّ ذَلِكَ فِي مَكَانِهِ مِنْ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، وَ مِنْ ثَمَّ فَلَا مَكَانَ لِلرِّبْطِ بَيْنَ مُلْكِ شَاسِعِ الْمَسَاحَاتِ، كَمَا ذَهَبَتْ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ الْمَصَادِرِ الْعَرَبِيَّةِ، وَ بَيْنَ نُبُوَّةِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ كَأَنَّ مَكَانَةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ لَا تَكُونُ إِلَّا - بِمُلْكِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، كَمَا ذَهَبَ الْبَعْضُ، حَيْثُ جَعَلُوا مِنْ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعَةٍ (نَمْرُودَ وَ بَخْتَنْصَرَ وَ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَ سَلِيمَانَ) مُلْكُوا الدُّنْيَا بِأَسْرَافِهَا، بَلْ إِنَّ سَلِيمَانَ، فِيمَا يَقُولُونَ، «كَانَ لَا يَسْمَعُ بِمُلْكٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَتَاهُ حَتَّى يَذَلَّهُ»، وَ نَسُوا، أَوْ تَنَاسَوْا، أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمْ يَكُنْ، وَ لَنْ يَكُونَ، جَبَارًا فِي الْأَرْضِ، وَ إِنَّمَا كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَ هَادِيًا إِلَى اللَّهِ يَازِنُهُ، وَ مَبْشَرًا وَ نَذِيرًا، وَ نَسُوا كَذَلِكَ أَنَّ النُّبُوَّةَ أَشْرَفُ وَ أَكْرَمُ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا، وَ إِنَّ جَمْعَ اللَّهِ لِسَلِيمَانَ، كَمَا جَمَعَ لِأَبِيهِ مِنْ قَبْلِ، بَيْنَ

ص: 196

النبوة و الملك، و نسوا أيضا أنهم ربطوا سليمان بملوك أربعة، منهم على الأقل كافران، فإذا كان هذا الملك الواسع المساحات هو المراد من دعاء النبي الكريم: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، فهم إذن قد ساووا بين سليمان عليه السلام، و بين هؤلاء الثلاثة (نمرود و بختنصر و ذو القرنين) في هذا الملك الواسع العريض، و هذا ما لم يقل به أحد.

و هكذا يبدو واضحاً أن سياق الآيات الكريمة، كما أشرنا من قبل، إنما يشير إلى أن الزيادة التي أوتيتها سليمان عليه السلام في ملكه و المعبر عنها بقوله: مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي هي إيتاؤه بعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى: فَسَدَّخُرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ، وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه، مفتتحاً بالفاء الدالة على الربط و التعقيب و الترتيب (1).

### [8] القدس عاصمة سليمان :-

تقع القدس على مبعده 14 ميلاً- إلى الغرب من البحر الميت، 33 ميلاً إلى الشرق من البحر المتوسط، و قد عرفت بأسماء كثيرة، حيث أطلقت عليها التوراة أو العهد القديم اسم «أريئيل» (إشعيا 1/29) و مدينة العدل (إشعيا 1/26) و المدينة (مزمور 16/72) و مدينة الله (مزمور 1/48) و مدينة الحق (زكريا 3/8) و مدينة القدس (نحميا 1/11) و جبل القدس (إشعيا 13/27) و المدينة المقدسة (متى 4/5) و مدينة داود، و أما أسماؤها العربية فهي: بيت المقدس و المقدس و القدس الشريف، أما الإسم الغالب فهو «القدس»، و الذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها، غير أن أشهر اسمين للمدينة إنما هما القدس و أورشليم.

ص: 197

هذا و يظن كثير من الناس خطأ أن اسم «أورشليم» اسم عبري أو يهودي، و الحقيقة غير ذلك تماماً، ذلك لأن أقدم النقوش التي ورد فيها اسم المدينة المقدسة إنما هو نقش مصري، يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وربما إلى أيام «سنوسرت الثالث (1878-1843 ق. م) أو بعده بقليل، وربما قبله بقليل، حيث ذكرت المدينة تحت اسم «أورشليم» (mumilasrU) على رأي (1)، و إلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (1786-1650 ق. م) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» (memahsuA) على رأي آخر (2)، و تقرأ في رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (3)، في رسالة من نائب الفرعون إخناتون (1367-1350 ق. م) و يدعى «عبد خيبا» أمير القدس و كانت تدعى «أورسالم» يقول فيها «لا أبي و لا أمي وضعاني في هذا المكان، بل يد الملك القوية هي التي وضعتني في بيت آبائي» (4)، و بقيت المدينة تدعى «أورسالم»، حتى استقل بها اليبوسيون في فترة الضعف التي انتابت الإمبراطورية المصرية، و سموها «يبوس» (5)، حتى جاء داود عليه السلام (1000-960 ق. م) و استولى عليها منهم، ثم اتخذها عاصمة لدولته، و نقل إليها «تابوت العهد»، و أطلق عليها اسم «مدينة داود»، و من ثم فقد أصبحت المدينة المقدسة مركزاً للحياة

ص: 198

1- .P, tic- po, regnU. F. M 576 ..

2- أحمد فخري: المرجع السابق ص 335 و كذا، M munnelliB. C. ni ,allatneirO ni .J 329. p. 1966 ,TENA, nosliW. W 30., amoR 32. p. 1961 .dnoceS eht ni naenarretideM tsaE ehT dna tpygE, draW .

3- أنظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومي مهران: إخناتون- الإسكندرية 1979 ص 233-245).

4- .P, TENA, thgirblA. otnoroT, II, tselbaT anramA- leT ehT, recreM. B. A. S 89- 286. p. 1939 ., .F. W 489- 487

5- .11-10/19 .



السياسية و الدينية معا، هذا و يختلف الباحثون في أسباب تغيير اسم المدينة القديم، فمن قائل لأن اسمها القديم كان غربيا على العبرانيين، و من قائل لأن فيه تخليدا للاهوت أجنبي، و من قائل لأن داود عليه السلام أراد أن يخلد اسمه على المدينة أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة أيضا اسم «يورشالايم» أو «أورشالم» بإضافة لاحقة عبرية كي تصبح عبرية النطق، و أيا كان السبب فإن الإسم الجديد لم يحل محل الإسم القديم، الذي له جذور عميقة في الوعي الشعبي (1).

هذا و قد دعيت المدينة في النقوش الآشورية باسم «أورساليمو» (ummilasrU) و في النقوش اليونانية باسم «هيروسوليمما» (2) amylosoreiH، هذا و لم يذكر «هيرودوت» (484-430 ق. م) في تاريخه اسم «أورشليم» و لكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام، و سماها «قديس»، مرتين في الجزء الثاني و الثالث من تاريخه، و يقول المستشرق اليهودي «سالومون مونك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الإسم على الأرجح هو «القدس»، محرفا في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا» (3).

و أما معنى «أورشليم» فموضع خلاف، و لعل أرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أور» بمعنى مدينة أو موضع، و من «شالم» و هو إله و ثني لسكان فلسطين الأصليين هو «إله السلام»، فالمدينة إذن كانت مكرسة لإله السلام، و هناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث»، فتكون

ص: 199

- 
- 1- صموئيل ثان 9/5، 13-12/6، 18-17/8، 26-25/20، عبد الحميد زائد: الشرق الخالد ص 56-57، و كذا، I fo lears SENJ, nivieY. Y 10. p، 1948، 7، و كذا، yrotsiH ehT, htoN. M 191. p، 1965.
  - 2- .P, tic- po, regnU. F. M 576 .
  - 3- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 8، قاموس الكتاب المقدس 1/135.

أورشليم بمعنى «ميراث السلام» أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أي السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأه»، وهي باللغة العبرية بمعنى الخوف، فقرر الله أن يسميها بالاسمين معا، «يرأه- شلم» أي «أورشليم» بمعنى الخوف و السلام، وبنوا على هذه التخريجات الفلوكلورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضا أن «يرو» يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «إله»، ويكون اسم المدينة بكل بساطة «مدينة إله السلام» (1).

وأيا ما كان الأمر، فما أن يأتي الرومان، وتحدث مذبحه «هدريان» (117-138 م) عام 135 م، حتى تكون ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان اسم المدينة إلى «إيليا كابيتولينا» أو «إيليا» فقط، ويصبح لفظ أورشليم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التي كانت على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي، وفي العام الخامس عشر الهجري يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها «القدس»، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة أن يتسلم المدينة بنفسه، ويأتي إلى القدس في عام 15 هـ (أو عام 635/636 م) ويتسلم المدينة من البطريك «صفرنيوس»، ويمنح أهلها النصرى الأمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره، ولا يسكن معهم أحد من اليهود (2)، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريك أدركته).

ص: 200

1- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 9.

2- هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفارق عمر رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد لأهل الكتاب ما لهم وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تعهد للنصارى ألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم (حسن ظاظا: المرجع السابق ص 30).

الصلاة، فطلب إليه أن يصلي بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم و خالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة (1)، وإنما صلى في مكان قريب عند الصخرة المقدسة، و خطَّ المسجد الذي عرف باسمه (2).

## [9] مباني سليمان:-

لا ريب في أنه كان للقدس نصيب الأسد في المباني التي شيدت في عهد سليمان عليه السلام و طبقا لما جاء في التوراة فقد شيد سليمان سور المدينة وقلعتها، وإن كان بناء المسجد الأقصى و قصر سليمان إنما يمثلان أعظم إنجازات الملك النبي المعمارية، و أما المسجد الأقصى فقد خصصنا له فصلا مستقلا من قبل، و أما القصر فقد اختيرت له الهضبة الغربية، و طبقا لرواية التوراة، فلقد أقيم القصر على المنطقة الصخرية التي تدعى «تل

ص: 201

1- يقول المسعودي: أن سليمان عليه السلام بعد أن بنى المسجد الأقصى، بنى لنفسه بيتا في الموضع الذي يسمى في وقتنا هذا (أي وقته هو) كنيسة القيامة، و هي الكنيسة العظمى ببيت المقدس عند النصارى (مرجع الذهب 70 / 1) و هي الكنيسة التي بنتها «هيلانة» أم الامبراطور قسطنطين (306-337 م) في عام 326 م، في المكان الذي يعتقد النصارى أن جثمان المسيح عليه السلام قد دفن فيه، ثم رفع إلى السماء، و هذا خطأ لأن المسيح لم يقتل و لم يصلب، قال تعالى: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (سورة النساء: آية 157-158).

2- تاريخ الطبري 607/3-613، الواقدي: فتوح الشام 26/2، 244، 267، البلاذري: فتوح البلدان ص 144-145، حسن ظاظا: المرجع السابق ص 30، عبد الحميد زائد: القدس الخالدة ص 173-175، البداية و النهاية 60/7-67.

موريا» (1)، ويذهب المسعودي، كما أشرنا آنفاً، أنه في مكان كنيسة القيامة (2)، وكان القصر يتكون من عناصر ثلاثة: «بيت وعر لبنان»، وكان يستخدم كترسانة أسلحة (3)، وربما كمكان للمالية في نفس الوقت (4)، ويحتمل كذلك أنه استخدم كحوش للإسطبلات، وأما «صالة الأعمدة» فلم يعرف الغرض الذي استخدمت من أجله، وأما «غرفة الاجتماعات الكبيرة»، فقد استخدمت كمكان للقضاء، فضلاً عن الاحتفالات الرسمية (5)، هذا وقد وجد إلى جانب هذا القصر الكبير من ناحية الغرب مباشرة، قصر آخر أحيط بجدار فاصل، وقد اتخذ مكاناً لسكني الملك وسيدات القصر، هذا وقد وجد أيضاً، إلى الشمال مباشرة، وفوق هضبة مرتفعة، مبنى آخر أحيط بسور خاص، اتخذ كمصلي، وأمامه مذبح لحرق الأضاحي (6).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الروايات التي وصلتنا عن مباني سليمان إنما تضعه في مرتبة أعلى البنائين المشهورين، ومن ثم فقد نسبت إليه مبان كثيرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، حتى أن بعض تلك المباني إنما كانت تقع بعيداً جداً عن منطقة نفوذه (7)، وقد نافست المصادر العربية المصادر اليهودية في نسبة مبان كثيرة إلى سليمان، حتى أن «ياقوت الحموي» يقول: «إن الناس كانوا إذا ما رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى جن سليمان (8)، ومع ذلك، فالذي لا شك فيه أن).

ص: 202

1- أخبار أيام ثان 1/3.

2- مروج الذهب 70/1.

3- ملوك أول 16/10-17.

4- ملوك أول 17/10-20.

5- ملوك أول 18/10-20، وكذا. P, tic- po, tdlefssiE. O 596.

6- .P., dibI 596.

7- .P., dibI 594.

8- ياقوت الحموي: معجم البلدان 17/2 (بيروت 1957).

لسليمان إنجازات معمارية كثيرة، وقد ذكرنا من قبل تشييده لكثير من الشكنات لفصائل عجلاته الحربية، والتي أطلقت عليها التوراة «مدن المركبات» و«مدن الفرسان» وكذا «مدن المخازن» (1) التي أقيمت للمؤن والعلف التي تحتاجها المعسكرات والمحطات التي أقيمت على الطرق التجارية، وذلك لأن «مدن المخازن التي بناها سليمان في حماة» (2) إنما قد خدمت الهدفين، وبالتالي فربما يمكن القول أن الأماكن المحصنة التي أقيمت في مجاورات مجدو وتدمر وحماة وأورشليم إنما كانت «مدن مخازن» (3).

هذا وقد كشف عن بعض مبان لسليمان في حاصور (4) (تل قدح على مبعدة 5 كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة) وفي «عصيون جابر» اكتشف «جلوك» حصنا يرجع إلى أيام سليمان، وكذا في «قادش برينع»، وهي خربة القضيبرات أو عين قديس، على مبعدة 50 ميلا جنوب بئر سبع (5). ونقرأ في التوراة أن سليمان «بنى جازر وبيت حورن السفلى وبعلة وتدمر في البرية» (6)، أما «جازر» فهي المدينة الكنعانية الواقعة على مبعدة 18 ميلا شمال غرب أورشليم، وقد أشرنا من قبل إلى أن فرعون قد استولى عليها وقدمها مهرا لابنته امرأة سليمان، و يبدو أن سليمان قد أعاد بناء المدينة بعد ذلك (7)، وأما «بيت حورن السفلي» فتقع على مبعدة 12 ميلا شمال

ص: 203

- 
- 1- ملوك أول 19/9.
  - 2- أخبار أيام ثان 4/8.
  - 3- .P, tiC. pO, tdlefssiE. O 595 .
  - 4- ملوك أول 15/9.
  - 5- قاموس الكتاب المقدس 709-708/2، وكذا. 595. 595. P, tiC. pO, tdlefssiE. O 595. F, Y. N, dnaL elbiB ni وكذا F, Y. N, dnaL elbiB ni، 1955. seirevocsiD tneceR, thgirblA. F. W 86. p.
  - 6- ملوك أول 17/9-18.
  - 7- ملوك أول 15/9-17، قاموس الكتاب المقدس 242/1 وكذا. p, tic- po, regnU. F. M 401.

أورشليم، وتسمى حالياً «بيت عور السفلى» وهي أقدم من عصر سليمان، ومن ثم فيبدو أن سليمان قد حصنها ولكنه لم يبنها (1)، وأما «بعلة» فهي مدينة في منطقة «دان» لا يعرف الآن مكانها على وجه التحقيق، ويرجح أن سليمان حصنها ولم يبنها كذلك (1).

وأما مدينة «تدمر» فهي مدينة «تمر» التي قام سليمان ببنائها في البرية، وقد أشارت التوراة ويوسف بن متى أن سليمان قد أقام مدينة تدمر (2)، ولا شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن مدينة تدمر إنما ظهرت للمرة الأولى في التاريخ على أيام الملك الأشوري «تجلات بلاسر» (1116-1090 ق. م) في صورة «تدمر أمورو» (3) أي قبل أن يولد النبي الكريم، وكذا بفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها بأكثر من سبعة قرون، ومن هنا يذهب العلماء إلى أن الرواية التوراتية بشأن بناء سليمان لمدينة تدمر، إما أنها من نوع المبالغة، ومن ثم فقد نسبت إلى سليمان بناء مدينة تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل (4)، وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «تامارا» (تمر) التي بناها سليمان في جنوب شرق يهوذا (5)، وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها «تدمر» (6) على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان هي «تدمر» وليست

ص: 204

1- ملوك أول 18/11، قاموس الكتاب المقدس 82/1).

2- ملوك أول 18/9، أخبار أيام ثان 4/8، وكذا، 1924، p. 106، emorhD. E 106، BR, sneiryssA setxeT seL snad arymlaP، وكذا. P, III, IE 1020.

3- . P, III, IE 1020 و p, III, IE 1020، وكذا، 1924، p. 106، emorhD. E 106، BE 488، 17، و BE 161، p. 17.

4- فيليب حتى: المرجع السابق ص 432، جواد علي 77/3، وكذا. P, tic- po, sgnitsaH. J 889.

5- حزقيال 19/47، قاموس الكتاب المقدس 282/1.

6- عن «تدمر» أنظر (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم- الرياض 1977 ص 533-541).

«ثامار»، وسرعان ما انتقلت تلك الرواية إلى المصادر العربية، عن طريق مسلمة أهل الكتاب، فأخذوها بغير تدقيق ولا تحقيق، فضلا عن أن آثار المدينة ربما أدهشتهم و من ثم فقد نسبوا أبناءها إلى الجن، بأمر من سليمان عليه السلام (1).

هذا وقد ناقش الأستاذ «إيسفلت» الموضوع عام 1975 م بشيء من التفصيل، وخلص إلى أن «تدمر» المشار إليها في التوراة إنما هي «تمر»، وتقع في أو بالقرب من «عين الرس»، على مبعده 5 كيلا إلى جنوب النهاية الجنوبية للبحر الميت، وليست تدمر التي تقع على مبعده 150 كيلا شمال شرق دمشق، في منتصف المسافة بين دمشق والفرات وعلى أي حال، فإن بناء «تمر» إنما كان جزءا من مشروع أكبر لخدمة الأغراض التجارية التي كانت دولة سليمان ميدانا لها (2).

ص: 205

---

1- فيليب حتى: المرجع السابق ص 432، جواد علي 78/3، الألوسي: بلوغ الأرب 1/209-210، ياقوت 2/17-19، البكري 1/306-307، ثم قارن المسعودي 2/244-245 (بيروت 1973).

2- ملوك أول 1/3، 15/9، وكذا، 17، BE. O 161. p، وكذا. O 593-592، P, tic- po, tdlefssiE.









وردت قصة أيوب عليه السلام في القرآن الكريم في سورة النساء (آية 163) و الأنعام (آية 84)، وفي سورة الأنبياء و ص بشي ء قليل من التفصيل، قال تعالى في الأنبياء: وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (1)، وقال تعالى في سورة ص: وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ، اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ، وَ هَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْآ وَ ذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَا صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (2).

هذا و يشير القرآن الكريم إلى أن أيوب إنما هو من ذرية إبراهيم

ص: 209

- 
- 1- سورة الأنبياء: آية 83-84، وانظر: تفسير الطبري 56/17-73، تفسير ابن كثير 300/3-304، تفسير الفخر الرازي 22/203-209، تفسير النسفي 3/86-87، تفسير القرطبي ص 4362-4367، في ظلال القرآن 4/2391-2392، تفسير روح المعاني 17/79-82، صفوة التفاسير 2/272.
- 2- سورة ص: آية 41-44، وانظر: تفسير ابن كثير 4/59-61، تفسير النسفي 4/42-43، تفسير الفخر الرازي 26/211-215، تفسير الطبري 23/165-169، في ظلال القرآن 5/3021-3022، تفسير القرطبي ص 5651-5656.

الخليل عليهما السلام، قال تعالى: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (1)، و من ثم فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه من سلالة العيص (عيسو) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، و أن أمه، فيما يرى ابن عساكر، بنت لوط عليه السلام، و إن ذهب رأي إلى أنه من الروم، قال ابن إسحاق: كان رجلا من الروم، و هو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، و لعل خطأ وقع هنا في كلمة «الروم»، و المقصود «أدوم» و ليس «روم»، ذلك لأن عيسو (العيص) بن إسحاق (شقيق يعقوب التوأم)، إنما كان يسمى «أدوم» (الأحمر)، و إليه ينسب الآدوميون الذين كانوا يسكنون في أقصى بلاد شرق الأردن، و جنوب وادي الحسا، و كانت عاصمتهم «البتراء» (2)، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب إلى أن أبا أيوب عليه السلام، إنما كان ممن آمن بإبراهيم عليه السلام و هاجر معه إلى فلسطين، على أن هناك رواية رابعة تنسب لابن إسحاق تذهب إلى أن أيوب كان من بني إسرائيل، و لم يصح في نسبه شيء، إلا- أن اسم أبيه أموص، و على أية حال، فالصحيح، فيما يرى كثير من المفسرين و المؤرخين، أنه من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، و أما امرأته فهي «ليا» (دينة) بنت يعقوب عليه السلام، و قيل هي «رحمة» بنت أفرايم بن يوسف أو ماضر بنت منشا (منسى) بن يوسف عليه السلام، و طبقا لهذا، فإن أيوب إنما قد عاش قبل موسى عليه السلام، و قال ابن جرير: كان بعد شعيب عليه السلام، و في التاريخ أنه كان نبيا في عهد يعقوب عليه السلام، و أنه عاش ثلاثا و تسعين سنة، و قال ابن أبي خيثمة كان بعد سليمان عليه السلام (3)، و سوف نناقش ذلك بالتفصيل فيما بعد.

ص: 210

- 1- سورة الأنعام: آية 84.
- 2- انظر: التفصيلات و المراجع (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 547-552).
- 3- تفسير روح المعاني 17/ 80، تفسير الفخر الرازي 22/ 203، تفسير النسفي 3/ 86، البداية و النهاية لابن كثير 1/ 220-221، تاريخ الطبري 1/ 322-324، الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 264.

هذا وقد اقترن ذكر أيوب عليه السلام بالصبر، لأنه كان من أشد الأنبياء صبورا، إن لم يكن أشدهم، فلقد ابتلى عليه السلام بلاء شديدا في أهله و بدنه و ماله، ولكنه كان مثال العبودية الحقة لله تعالى، فصبر على ذلك حتى أصبح يضرب به المثل في الصبر على الأذى، فيقال: «صبر كصبر أيوب»، وقد روى الليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، و بأيوب عليه السلام على الأرقاء (1)، وقد أثنى الله تعالى على أيوب بقوله تعالى: **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** (2).

هذا و يتحدث المفسرون عما كان يملكه أيوب عليه السلام من المزارع و الحدائق، و ما كان له من أموال و دواب و أنعام و حرث، يضيق بها الحصر و التعداد، فضلا عن نعمة القوة و الصحة، إلى جانب زوجة صالحة حسنة الخلق و الخلق، و مع هذا لم تبطره هذه النعم الكثيرة، و إنما صبر لها و أدى لها كل ما يلزم، من شكر للمنعم جل جلاله و تقدير و عرفان لفضله، و كان رحيفا بالمساكين، كما كان يكفل الأيتام و الأرمال، و يكرم الضيف، و مع ذلك فقد شاءت إرادة الله، و لا راد لمشيئته، أن تتغير الأحوال، فصوّح الزرع، و جف الصرع، و نفدت الأموال، و نفقت الماشية، و زال الثراء العريض، و هاجم الفقر الشديد، و المرض القاسي العنيد، نبي الله الكريم، ثم كانت مصيبته في موت البنين و البنات أنكى و أفدح، روى الإمام النسفي (3) أنه عليه السلام كان له سبعة بنين و سبع بنات و ثلاثة آلاف بعير، و سبعة آلاف شاة، و خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة و ولد و نخيل،

ص: 211

1- ابن كثير: البداية و النهاية 1/ 225.

2- سورة ص: آية 44.

3- تفسير النسفي 3/ 86-78.

فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده و ماله و بمرض في بدنه، فما وهن لما أصيب به من البلى، و ما ضعف و لا استكان و إنما قابل ذلك كله بالصبر الجميل و الإيمان الكامل، فكان في حالتي الرخاء و البلاء مثالا لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن، و إرغام أنف الشيطان.

هذا و قد روى الإمام الرازي في التفسير الكبير: (1) أن إبليس سأل ربه فقال: هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله تعالى: نعم عبيدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه و هو يرى إبليس عيانا و لا يلتفت إليه، فقال يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله، و كان يجيئه و يقول له: هلك من مالك كذا و كذا، فيقول: الله أعطى و الله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إن أيوب لا يبالي فسلطني على ولده، فجاء و زلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه و أخبره فلم يلتفت إليه، فقال يا رب لا يبالي بماله و ولده فسلطني على جسده، فأذن فيه فنفخ في جلد أيوب، و حدثت أسقام عظيمة و آلام شديدة، فمكث في ذلك البلاء سنين (2)، و مع ذلك فقد ظل صابرا حتى ضرب في هذا المجال أروع المثل، و غدا صبره و إيمانه حديث القرون و الأجيال، و صدق سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم حيث يقول كما ثبت في الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» (3).

و قد اختلف المفسرون في مدة بلاء أيوب عليه السلام و شدته، فذهبت

ص: 212

1- تفسير الفخر الرازي 26/212.

2- يعترض كثير من العلماء على هذه الرواية لأن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض و الآلام، فضلا عن أن يكون ذلك مع الأنبياء على وجه الخصوص، و قد حكى الله تعالى عن الشيطان أنه قال: «و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي»، فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر، إلا على إلقاء الوسوس و الخواطر الفاسدة (راجع: تفسير الفخر الرازي 26/213).

3- البداية و النهاية 1/222، انظر مسند الإمام أحمد 1/172، تفسير ابن كثير 3/301.

رواية إلى أنها كانت ثماني عشرة سنة، روى ابن شهاب عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أيوب بقي في البلاء ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه، فقال أحدهما للآخر ذات يوم: والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه:

و ما ذلك، فقال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب عليه السلام، فقال أيوب: ما أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكر إن الله عز وجل فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق» (1)، وذهبت رواية أخرى عن الحسن البصري قال: مكث أيوب عليه السلام بعد ما ألقى على الكناسة سبع سنين وأشهر، ولم يبق له مال ولا ولد صديق، غير امرأته رحمة صبرت معه، وكانت تأتية بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب، وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه، وفي رواية ثالثة قال الضحاك ومقاتل بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، وقال وهب في رواية رابعة بقي في البلاء ثلاث سنين، بل إن هناك رواية خامسة تذهب إلى أن البلاء بقي ثلاث عشرة سنة (2).

ويذهب المفسرون إلى أن شدة البلاء وصلت إلى أن ألقى به في كناسة خارج القرية لا يقربه أحد إلا زوجته، وقد تنكر الناس له، حتى الذين آمنوا به، وكانوا ثلاثة (3)، لما رأوا ما نزل به من البلاء رفضوه واتهموه من

ص: 213

1- تفسير الفخر الرازي 205/22، وانظر: تفسير الطبري 167/23، تفسير ابن كثير 60/4، تفسير الفخر الرازي 214/26.

2- تفسير الطبري 70/17، تفسير روح المعاني 80/17، تفسير الفخر الرازي 206/22، تفسير ابن كثير 301/3.

3- قال النسفي في تفسيره (43/4): روى أنه كان يعود ثلاثا من المؤمنين فارتد أحدهم فسئل عنه فقيل: ألقى الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين.

غير أن يتركوا دينه، وفي تفسير الطبري عن الحسن قال: و مر رجلاين و هو على تلك الحال (يعني حال البلاء)، و لا و الله ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب، فقال أحد الرجلين لصاحبه: لو كان لله في هذا حاجة ما بلغ به هذا، فلم يسمع أيوب شيئا كان أشد عليه من هذه الكلمة، وفي رواية أخرى، قال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم في أيوب خيرا ما ابتلاه بما أرى، فما جزع أيوب من شيء أصابه جزعه من كلمة الرجل، و بلغ من شدة البلاء أيضا أن امرأته اضطرتها الحاجة، بعد العز و الجاه، إلى أن تخدم الناس في بيوتهم، لتطعم زوجها، وليت المصاب اقتصر على ذلك، فإن الناس ما لبثوا أن كفوا عن استخدامها، لئلا ينالهم من بلاء يعقوب شيء، أو تنقل إليهم عدوى أمراضه، فلما لم تجد أحدا يستخدمها عمدت فباعته لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيريها بطعام طيب كثير، فأنت به أيوب، فقال: من أين لك هذا و أنكروه، فقالت خدمت به أناسا، فلما لم تجد في الغد أحدا باعت الضفيرة الأخرى بطعام، فأنت به فأنكره أيضا و حلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقا قال في دعائه: «أني مسني الضرّ و أنت أرحم الراحمين»، وفي رواية أن أيوب عليه السلام كان إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه و اشتد غمه (1).

و كان نبي الله أيوب عليه السلام، في كل ذلك، في غاية الصبر، و به يضرب المثل في ذلك، روى أن أبي حاتم عن يزيد بن ميسرة قال: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل و المال و الولد، و لم يبق له شيء أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال

ص: 214

---

1- تفسير روح المعاني 80/17 تفسير الطبري 71/17، تاريخ الطبري 324/1، تفسير الفخر الرازي 207/22، 214/26، ابن كثير: البداية و النهاية 1/222-223.



و الولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني، قال فلقي إبليس من ذلك منكرا، قال وقال أيوب عليه السلام: يا رب إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وإنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي يا نفسي إنك لم تخلقي لوطء الفراش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك (1).

هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى محنة أيوب، وكيف أنه لجأ إلى الله طالبا كشف الضر عنه، وراجيا رحمة ربه، فاستجاب الله له فكشف عنه الضر وأبدله خيرا مما فقد منه، يقول تعالى: وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَدْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (2)، ويقول صاحب الظلال: وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء، والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل، وهي في هذا الوضع تعرض دعاء أيوب، واستجابة الله للدعاء، لأن السياق (في سورة الأنبياء) سياق رحمة الله بأنبيائه ورعايته لهم في الابتلاء، سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، أو بالنعمة كما في قصة داود وسليمان، أو بالضر كما في حال أيوب (3).

على أن المفسرين إنما يذهبون مذاهب شتى في تفسيرهم لقول أيوب «أني مسني الضر»، فرواية تذهب إلى أن البلاء لما طال على أيوب رفضه

ص: 215

1- تفسير ابن كثير 3/ 103.

2- سورة الأنبياء: آية 83-84.

3- في ظلال القرآن 4/ 2392.

القريب و البعيد، غير زوجته، إلا رجلا كانا يغدوان و يروحان إليه، فجاء يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شيء قط، فقال اللهم إن كنت تعلم أنني لم أبت ليلة قط شبعا و أنا أعلم مكان جاع فصدقني، فصدق من في السماء و هما يسمعان، ثم قال اللهم أن كنت تعلم أنني لم يكن لي قميصان قط، و أنا أعلم مكان عار، فصدقني، فصدق من في السماء و هما يسمعان، ثم قال اللهم بعزتك ثم خر ساجدا، فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه» (1).

و تذهب رواية أخرى إلى أن الشيطان وسوس إلى زوجته لو أن أيوب ذبح لي أو سجد أو أكل طعاما و لم يسم الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء، و في رواية ثالثة أنه قال: لو شئت فاسجد لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال و الولد، و أعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها، فقال لها أيوب: أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم لئن عافاني الله لأجلدك مائة جلدة، و قال عند ذلك «مسنى الضر» يعني طمع إبليس في سجودي له و سجود زوجتي و دعائه إياها و إياي إلى الكفر، و في رواية رابعة قال وهب: كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس و تأتيه بقوته، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها، فالتست ذات يوم شيئا من الطعام فلم تجد شيئا، فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به، فقال لها: أين قرنك، فأخبرته بذلك، فحينئذ قال: «مسنى الضر»، و في رواية خامسة قال إسماعيل السدي لم يقل أيوب: «مسنى الضر» إلا لأشياء ثلاث:

أحدهما: قول الرجلين له لو كان عمالك الذي كنا نرى لله تعالى لما أصابك

ص: 216

---

1- تفسير ابن كثير 3/ 302-303، و انظر: تفسير الفخر الرازي 22/ 206.

الذي أصابك، و ثانيهما: كان لامرأته ثلاث ذوائب، فعمدت إلى احداها و قطعتها و باعتها فأعطوها بذلك خبزاً و لحماً فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا؟ فقالت كل فإنه حلال، فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعته الثانية، و كذلك فعلت في اليوم الثالث، و قالت: كل فإنه حلال، فقال لا آكل ما لم تخبريني فأخبرته، فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم، و قيل إنما باعت ذوائبها لأن إبليس تمثل لقوم في صورة بشر و قال: لئن تركتم أيوب في قريبتكم، فإني أخاف أن يعدي إليكم ما به من العلة فأخرجوه إلى باب البلد، ثم قال لهم إن امرأته تدخل بيوتكم و تعمل و تمس زوجها، أما تخافون أن تعدي إليكم علته، فحينئذ لم يستعملها أحد فباعته ضفيريته، و ثالثها: حين قالت له امرأته ما قالت، و أخيراً هناك رواية سادسة ذهبت إلى أن إبليس أتاها في هيئة عظيمة فقال لها: أنا إله الأرض فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركني و عبد إله السماء، فلو سجد لي سجدة رددت عليه و عليك جميع ما أخذت منكما (1).

على أن كثيراً من العلماء يرفضون معظم هذه الروايات فهي مشوبة بالإسرائيليات التي تطغى عليها، هذا فضلاً من أن انتهاء هذا المرض الذي أصيب به أيوب إلى حد التنفير عنه غير جائز، لأن الأمراض المنفرة غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام، و قد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة، فكيف يتفق هذا مع منصب النبوة، و الصحيح أن المرض الذي ألم بأيوب عليه السلام لم يكن مرضاً منفرأ، و ليس فيه شيء من هذه الأقوال العليلة و إنما هو مرض طبيعي و لكنه استمر به سنين عديدة، و هو أجل طويل لا يصبر عليه عادة لإنسان، ثم إن بلاءه لم يكن في جسمه فحسب، بل شمل المال و الأهل و الولد (2)، و لهذا قال تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ

ص: 217

1- تفسير الفخر الرازي 206/22-208، تفسير روح المعاني 80/17.

2- الصابوني: النبوة و الأنبياء ص 267.

مَعَهُمْ، و من ثم فالحد المأمول من هذه القصة، كما يقول صاحب الظلال، أن أيوب عليه السلام كان، كما جاء في القرآن، عبدا صالحا أوابا، وقد ابتلاه الله فصبر صبورا جميلا، و يبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال و الأهل و الصحة جميعا، ولكنه ظل على صلته بربه و ثقته به و رضاه بما قسم له، و كان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له، و منهم زوجته، بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه، و كانوا يحدثونه بهذا فيؤذونه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر و البلاء، فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله لئن يضربنها عدد أعينه، قيل مائة (1).

و على أية حال، فلقد استجاب الله تعالى لدعاء عبده أيوب، فرفع عنه الضر في بدنه، فإذا هو معافي صحيح، و رفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، و رزقه مثلهم، و قيل هم أبناؤه فوهب الله له مثلهم أو أنه وهب له أبناء و أحفادا (2)، يقول تعالى: اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَا صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (3)، فأما قوله تعالى: اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، أي اضرب الأرض، و هي أرض الجابية فيما يروي عن قتادة، برجلك، فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عينا باردة الماء، و أمر أن يغتسل فيها و يشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم و الأذى و السقم و المرض الذي كان في جسده ظاهرا و باطنا، و أبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة و باطنة و جمالا تاما (4).

و قال بعض المفسرين نبعث له عينان فاغتسل من إحداهما و شرب

ص: 218

1- في ظلال القرآن 5 / 3021.

2- في ظلال القرآن 4 / 2392.

3- سورة ص: آية 42-44.

4- البداية و النهاية 1 / 224.

الأخرى، فذهب الداء من ظاهره و من باطنه بإذن الله، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها، ثم اليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها، فذهب الداء من ظاهرة و باطنة بإذن الله تعالى، و كساه الله حله، ثم خرج فجلس على مكان مشرف، و أقبلت امرأته تلتسمه في مضجعه فلم تجده، فقامت كالوالهة متلدة، ثم قالت: يا عبد الله، هل لك علم بالرجل المبتلي الذي كان هاهنا، قال: لا، ثم تبسم، فعرفته بضحكه، فاعتنقته، و في الحديث الذي رواه ابن شهاب عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«و كان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، و أوحى إلى أيوب في مكانه «أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد و شراب»، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، و هو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلي، فو الله على ذلك ما رأيت أحدا أشبه به منك إذ كان صحيحا؟ قال: «فإني أنا هو» (1).

هذا و يذهب بعض المفسرين إلى أن الله تعالى، بعد أن أذهب عن أيوب كل آلامه، و عاد إليه شبابه و جماله، كأحسن مما كان و أفضل، جعل يتلفت و لا يرى شيئا مما كان له من أهل و مال، إلا و قد أضعفه الله له، حتى أن الماء الذي اغتسل به، تطاير على صدره جرادا من ذهب، قال: فجعل يضمه بيده، أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب عليه الصلاة و السلام يحثو في ثوبه، فناده ربه عز و جل، يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى، قال عليه الصلاة و السلام: بلى يا رب، و لكن لا أغني بي عن

ص: 219

---

1- تفسير الطبري 68/17-72، 166/23-167، تفسير ابن كثير 60/4، تفسير الفخر الرازي 214/26-215، تفسير روح المعاني 81/17، تفسير النسفي 43/4.

بركتك» (1)، انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرازق به (2)، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما عافى الله أيوب أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه، قال فقيل له: يا أيوب أما تشبع، قال يا رب: «و من يشبع من رحمتك» (3).

هذا وقد اختلف أهل التأويل في أهل أيوب الذين قال الله تعالى فيهم في سورة الأنبياء: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وفي سورة ص: وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا، أهم أهله الذين أوتيتهم في الدنيا، أم ذلك وعد وعده الله أيوب أن يفعل به في الآخرة؟ فقال بعضهم: إنما أتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا، فإنهم لم يردوا عليه في الدنيا، وإنما وعد الله أيوب أن يؤتته إياهم في الآخرة (4)، أخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر الضحاك عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى:

وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ الْآيَةَ، قال: رد الله تعالى امرأته وزاد في شبابها حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا»، فالمعنى على هذا آتيناها في الدنيا مثل أهله عددا، مع زيادة مثل آخر (5)، أو أنهم أبناؤه فوهب الله له مثلهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفادا (6)، وروى ابن جرير بسنده عن الليث قال: أرسل مجاهد رجلا يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فقال: قيل له: أن أهلك لك في الآخرة، فإن شئت

ص: 220

1- مسند الإمام أحمد 2/ 314.

2- صحيح البخاري 1/ 78، تفسير ابن كثير 4/ 61، تفسير روح المعاني 17/ 81.

3- تفسير ابن كثير 3/ 303.

4- تفسير الطبري 17/ 72.

5- تفسير روح المعاني 17/ 81.

6- في ظلال القرآن 4/ 2392.

عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا، قال: فرجع إلى مجاهد فقال أصاب» (1).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، ذهب إليه ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب والحسن البصري والسدي يقول إن الله تعالى أحيا له أهله، يعني أولادهم بأعيانهم، قال ابن مسعود: مات أولاده سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عوفي أحيا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات، وقال ابن عباس: لما دعا أيوب استجاب الله له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، رد إليه أهله ومثلهم معهم، وفي روح المعاني:

قال ابن مسعود والحسن وقتادة في الآية: إن الله تعالى أحيا له أولاده الذين هلكوا في بلائه، وأوتي مثلهم في الدنيا، وقال الألويسي: و الظاهر أن المثل من صلبه عليه السلام أيضاً، ويميل الإمام الرازي إلى هذا الرأي الثاني لأنه هو الظاهر، فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة، غير أن صاحب الظلال يقول إنه ليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات، وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين، وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية، مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك، ويقول الأستاذ الصابوني في صفوة التفاسير إن القول بأن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها، إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام، والصحيح أن الله تعالى عوّضه من زوجته أولادا مثل من فقدهم (2).

ص: 221

1- تفسير الطبري 72/17.

2- تفسير الفخر الرازي 210/22، 215/26، تفسير الطبري 72/17-73، 167/23-168، تفسير روح المعاني 81/17، تفسير ابن كثير 303/3-304، 61/4، تفسير النسفي 87/3، في ظلال القرآن 3022/5، صفوة التفاسير 272/2.

و أما قوله تعالى: وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرُبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُتْ إِنَّا وَ جَدْنَا صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (1)، فأما «الضغث» فهو ما يحمل من شيء مثل حزمة الرطبة، و كملء الكف من الشجر أو الحشيش و الشماريخ و نحو ذلك مما قام على ساق، و في تفسير النسفي هو حزمه صغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك، و عن ابن عباس: قبضة من الشجر، و عن قتادة: كانت امرأته قد عرضت له بأمر، و أرادها إبليس على شيء، فقال: لو تكلمت بكذا و كذا، و إنما حملها عليها الجزع، فحلف نبي الله: لئن الله شفاه ليجلدنها مائة جلدة، قال: فأمر بغصن فيه تسعة و تسعون قضيبا، و الأصل تكملة المائة، فضربها ضربة واحدة، فأبر نبي الله، و خفف الله عن أمته، و الله رحيم، و في رواية في تفسير النسفي: كان أيوب حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ، فحلل يمينه بأهون شيء عليه و عليها لحسن خدمتها إياه، و هذه الرخصة باقية، و يجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة، و السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة، فخرج صدره، و قيل باعت ذوابتيها برغيفين، و كانتا متعلق أيوب إذا قام، و يذهب الفخر الرازي إلى أنه يبعد ما قيل إنها رغبت في طاعة الشيطان، و يبعد أيضا أنها خالفت في بعض المهمات، و ذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برأ، و من ثم فرحمة من الله به و بزوجة التي قامت على رعايته و صبرت على بلائه و بلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده، فيضربها به ضربة واحدة، تجزئ عن يمينه فلا يحث فيها (2).

و يذهب الرازي و النسفي إلى أن هذه الرخصة باقية، و هي اليوم في الناس

ص: 222

1- سورة ص: آية 44.

2- تفسير الطبري 23/168-169، تفسير النسفي 4/43، تفسير الفخر الرازي 26/215، في ظلال القرآن 5/3022.



يمين أيوب من أخذ بها فهو حسن، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال: «خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة»، وهكذا أمر الله أيوب أن يبزر يمينه بأهون شيء عليه وعليها، قال ابن كثير: وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصديقة، البارة الراشدة، ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله: إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ، ثم عقب ابن كثير على الرخصة بأن كثيرا من الفقهاء قد استعمل هذه الرخصة في باب الإيمان والندور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدوره بهذه الآية، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب (1).

## [2] سفر أيوب: -

من المعروف أن لأيوب عليه السلام سفرا في العهد القديم (2)، ومكانه في الترجمة السريانية (3) بين سفري التثنية ويشوع، وقد اختلف الباحثون في السفر وفي صاحبه، فيرى فيه شراح التوراة القدامى تاريخا حقيقيا، وينسبه بعضهم إلى موسى عليه السلام، غير أن كثيرا من الباحثين يرون أن أيوب أقدم من موسى (4)، عليهما السلام، بل ويحددون له تاريخا حوالي عام 1520 قبل الميلاد (5)، غير أن هناك فريقا يذهب إلى أن أيام عاش على أيام يعقوب عليه السلام (1780-1633 ق.م) وقد تزوج من ابنته «دينة» (6).

ص: 223

- 1- تفسير الفخر الرازي 215/26، تفسير النسفي 4/43، البداية والنهاية 1/224-225.
- 2- انظر عن سفر أيوب (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/67-73).
- 3- انظر عن الترجمة السريانية للتوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 3/115).
- 4- أنظر عن تاريخ موسى عليه السلام والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/281-455).
- 5- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة- القاهرة 1971 ص 315 (مترجم).
- 6- نفس المرجع السابق ص 315، ثم قارن: تفسير روح المعاني 17/80، تاريخ الطبري 1/322، البداية والنهاية 1/221.



كانوا فيما يبدو، من العرب، اليعازر من تيمان، و بلد كان شوحيا من منطقة السويس، فيما يرى فولتير، و صوفر كان من نعمات (1).

و منها (ثالثا) ما لاحظته الباحثون من ذكر «الجمال» عند الحديث على ثروة أيوب من الماشية، و نحن نعلم أن لحوم الإبل محرمة على اليهود، و أنها لم تذكر بين ثرواتهم إلا نادرا، بل إن اسم أيوب نفسه لا مثل له في أسماء العبريين (2)، و منها (رابعا) ما جاء في السفر من أن أيوب رجل من أرض «عوص»، و أرض «عوص» هذه، و إن اختلف العلماء في مكانها، فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب، أو في مناطق يسكنها عرب (أي في نجد و عمان أو في شمال بلاد العرب، في شمال غربي المدينة المنورة، أو في بلاد الشام، في حوران أو في اللجاة، أو على حدود و أدوم أو في أدوم نفسها، أو في شرقي فلسطين أو جنوبها الشرقي) و بعبارة أخرى، فهي أما في شبه الجزيرة العربية أو في بادية الشام (3). و لعل تحديدها ببادية الشام ربما كان هو الأرجح، و ذلك لسببين، الأول: ما ذكره معظم المفسرين و المؤرخين من أن أيوب من ولد العيص، و هو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، و الذي كان يسمى كذلك «أدوم» (الأحمر) و إليه ينسب الآدوميون الذين كانوا يسكنون في أقصى بلاد شرق الأردن و جنوب وادي الحسا، و الثاني: ما جاء في حديث أبي ذر المشهور في ذكر الأنبياء و المرسلين، حيث يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: و أربعة من العرب: هود و صالح و شعيب

ص: 225

---

1- أيوب 11 / 2، حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي ص 55، و كذا، reinnraG- siraP euqihPosolihP eriannoitciD، 1954، p. 257-260. F. eriatloV.

2- حسن ظاظا: المرجع السابق ص 56.

3- جواد علي: المرجع السابق 1 / 631، قاموس الكتاب المقدس 1 / 148، و كذا. P, elbiB eht fo yranoitciD A, sgnitsaH. J. 200، 469.

و نبيك يا أبا ذر» (1) وفي رواية «وأربعة من العرب: هود و صالح و شعيب و محمد عليه السلام» (2).

على أن هناك فريقا من العلماء يذهب إلى أن أيوب عليه السلام كان مصرىبا، و ذلك بدليل الأثر الثقافى المصرى الذى يطل علينا من ثنايا هذا السفر فى مواضع كثيرة، فسفر أيوب فى الواقع ما هو إلا صورة صادقة لقصة المتشائم المصرى القديم (3)، (اليانس من الحياة) (4)، هذا فضلا عن ذكره للأهرام و المقابر التى يبنىها الملوك لأنفسهم، و أخيرا ذكره للثواب و العقاب و الحياة بعد الموت، و عدم ضياع الناس فى متاهات «شيول» (5)، كما آمن بذلك الأولون، و المعروف أن العبريين، طبقا لما جاء فى كتبهم المتداولة اليوم، و ليس كما جاء بها أنبياء الله، قد عرفوا عقيدة الحياة بعد الموت فى حقبة متأخرة من تاريخهم، ربما فى القرنين الثالث و الثانى قبل الميلاد (6).

ص: 226

1- تفسير ابن كثير 1/ 891-892 (بيروت 1986)، البداية و النهاية 1/ 120.

2- تفسير النسفى 1/ 263-264.

3- فؤاد حسنين: المرجع السابق ص 145.

4- أنظر: عن اليانس من الحياة (محمد بيومى مهران: الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفراعنة ص 10-12).

5- شيول: كان العبرانيون، كما يفهم من نصوص العهد القديم، يعتقدون أنه من غير الممكن للإنسان أن يتلقى البركات و حكم الرب إلا فى هذه الدنيا فقط، و بجسده فقط، و العودة إلى الأرض هى البعث، ذلك لأن الروح تنزل عند الموت إلى عالم سفلى يدعى «شيول» (loehs)، و كانت شيول هذه، أو العالم السفلى، تعنى نقيض ما تعنى به الضوء و الحياة، و هى منطقة تقرب من العدم و النسيان، تنظر إلى البشر كوحوش، و تغلق عليهم أبوابها دونما أى احتمال للهروب، إن سكانها من الأموات مجرد ظلال، يتميزون بالضعف الشديد، و هم منقطعون عن تبعية الرب، «لأنه ليس فى الموت ذكر، فى الهاوية من يحمذك» (مزور 10/88، 18/107، أيوب 9/7، 5/26-6، أمثال 18/2، إشعياء 9/14-11، 14/26، 19، و كذا، H. W. E (137. p. 1969, stehporP tneatseT dlO ehT, notae).

6- أنظر عن الحياة بعد الموت عند بني إسرائيل (محمد بيومى مهران: النبوة و الأنبياء عند بني إسرائيل ص 102-106).

الأمر الذي سبقهم إليه المصريون بآلاف السنين (1).

وعلى الجملة، و كما يقول الأستاذ العقاد، يبدو سفر أيوب غريبا في موضعه و موضوعه بين أسفار العهد القديم، و لم يكن من عادة بني إسرائيل أن يجمعوا كتابا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم و ميعادهم، و لكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه في بقاع فلسطين الجنوبية، محفوظا يتذكره الرواة، و حسبه بعضهم من كلام موسى، و بعضهم من كلام سليمان و لا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب، حيث تسامع به الناس، فإنه عزاء للمتعزين، و عبرة صالحة للمعتبرين، و لا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة الدارجة في مصر و الشام (2).

و أما زمن كتابة سفر أيوب، فهو موضع خلاف بين الباحثين، فهناك من يرجحه إلى عصر الآباء الأوائل، بل إن «هاليس» إنما يجعل من عام 2300 ق. م تاريخا لأيوب، اعتمادا على أن السفر لم يشر بكلمة واحدة إلى خروج بني إسرائيل من مصر، و الذي نراه حوالي عام 1214 ق. م (3)، فضلا عن المدن التي دمرتها الزلازل وقت ذلك، كما أنه لم يرد في صلب السفر أي ذكر ليهوه رب إسرائيل، و إنما ورد ذلك في المقدمة و الذيل، و هما مضافان بعد عصره، كما هو راجح عند شراح التوراة (4).

على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن سفر أيوب إنما كتب على أيام سليمان عليه السلام (960-922 ق. م)، و حجبتهم أنه يحمل بين ثناياه

ص: 227

1- حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس ص 153.

2- عباس العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص 163.

3- أنظر عن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر و الآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/357-439).

4- عباس العقاد: المرجع السابق ص 160-161، قاموس الكتاب المقدس 1/148.

إشارات من ذلك العهد (1)، على أن هناك وجهاً ثالثاً للنظر يذهب إلى أن السفر قد كتب قبل السبي البابلي (586-539 ق.م)، وربما في عصر النبي إرميا (626-580 ق.م) بالذات، ذلك لأن النبي حزقيال (593-572 ق.م).

(م) إنما يذكر رجلاً اسمه أيوب مثلاً للبر، مع نوح و دانيال (2)، وأن ذهب البعض إلى أن حزقيال لم يستق الفكرة من سفر أيوب في وضعه الحالي، ولعل صورة من القصة الثرية كانت في ذهن النبي عن رجل خرج مبرراً من أفسى تجربة، وأمر محنة جازها إنسان (3)، وأما الجزء الشعري من السفر، فيرجع إلى تاريخ متأخر، ذلك لأن الإيمان ياله واحد ثابت فيه بوضوح، فضلاً عن محاولته الجادة تبرئة نفسه من خطيئة عبادة الشمس والقمر، ووصفه لله القدير بأنه أعلى من في السموات، وأعمق من الهاوية، وأعرض من البحر، ولم يذكر شيئاً عن «البعل» وغيره من الآلهة الوثنية التي عبدتها الشعوب قبل السبي البابلي (4)، وأخيراً فهناك وجه رابع للنظر يذهب إلى أن سفر أيوب إنما كتب بعد السبي البابلي بسبب الصراع الواضح فيه بشأن الثواب والعقاب (5).

و أما لغة سفر أيوب ففيها تأثيرات آرامية وعربية لا تخطئها العين (6)، وربما تشير إلى تاريخ متأخر لكتابة السفر (7)، ومن ثم ذهب البعض إلى

ص: 228

---

1- قارن: أيوب 8/15، 14-1/26، بالإصحاح الثامن من سفر الأمثال (. P, tic- po, regnU. F. M (594).

2- حزقيال 14/14.

3- حبيب سعيد: المرجع السابق ص 153.

4- أيوب 26/31-28، عباس العقاد: المرجع السابق ص 161، حبيب سعيد: المرجع السابق ص 153.

5- قاموس الكتاب المقدس 148/1.

6- P, tic- po, htuoilograM. S. D 149. F. P، وكذا. 8، 15، j M. A. yremogtno.

7- قاموس الكتاب المقدس 148/1.

أنه إنما كتب حوالي عام 400 ق. م (1)، وفضل آخرون القول بأنه كتب خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد (2).

وأيا ما كان الأمر، فإننا لا نعرف سفراً من أسفار التوراة ظفر في رأي النقاد بالإعجاب الأدبي، الذي ظفر به سفر أيوب، فقال «توماس كارليل» عنه: «إنه واحد من أجل الأشياء التي وعثها الكتابة، وإنه أقدم المأثورات عن تلك القضية التي لا تنتهي، قضية الإنسان والقدر، و الأساليب الإلهية معه على هذه الأرض، ولا أحسب أن شيئاً كتب مما يضارعه في قيمته الأدبية»، وقال «فيكتور هيجو»: إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان»، وقال «شاف»: إنه يرتفع كالهرم في تاريخ الأدب، بلا سابقة و بغير نظير» (3).

ص: 229

---

1- .P, tic- po, regnU. F. M 594 .

2- حبيب سعيد: المرجع السابق ص 153.

3- عباس العقاد: المرجع السابق ص 162.





[1] إِيَّاسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: -

جاء ذكر إِيَّاسٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ، فِي آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَفِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الصَّافَّاتِ (1)، أَوْلَاهُمَا ذَكَرَ فِيهِ لَفْظُ «إِيَّاسٍ»، وَفِي الثَّانِيَةِ ذَكَرَ لَفْظَ إِيَّاسِينَ قَالَ تَعَالَى: سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيُّ إِيَّاسٍ، وَالعَرَبُ تَلْحَقُ النُّونَ فِي أَسْمَاءِ كَثِيرَةٍ، وَتَبَدَّلَهَا مِنْ غَيْرِهَا، كَمَا يُقَالُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْمَاعِينَ وَإِسْرَائِيلَ وَإِسْرَائِينَ، وَإِيَّاسَ وَإِيَّاسِينَ، وَهِيَ لُغَةٌ بَنِي أَسَدٍ (2)، وَيَقُولُ صَاحِبُ الظَّلَالِ: وَنَقَفَ هُنَا لِنَلْمَ بِالنَّاحِيَةِ الْفَنِيَّةِ فِي الْآيَةِ: سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ، وَقَدْ رُوِّعِيَتِ الْفَاصِلَةُ وَإِيْقَاعُهَا الْمَوْسِيقِيُّ فِي إِرْجَاعِ اسْمِ إِيَّاسٍ بِصِيغَةِ «إِيَّاسِينَ» عَلَى طَرِيقِ الْقُرْآنِ فِي مَلَاخِظَةِ تَنَاسُقِ الْإِيْقَاعِ فِي التَّعْبِيرِ (3).

هَذَا وَقَدْ ذَهَبَ فَرِيقٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَى أَنَّ إِيَّاسًا هُوَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ إِسْحَاقَ يُقَالُ: إِيَّاسٌ هُوَ إِدْرِيسُ، وَكَذَا قَالَ عَكْرَمَةُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِيَّاسٌ هُوَ إِدْرِيسُ،

ص: 231

1- سورة الأنعام: آية 85، الصافات: آية 123-132.

2- ابن كثير: البداية و النهاية 339/1، التفسير 31/4.

3- في ظلال القرمان 2998/5.

و كذا قال الضحاك، على أن هناك فريقاً آخر، وهو أكثر المفسرين، يذهب إلى أن إلياس إنما هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخي موسى عليه السلام، وأن الله تعالى بعثه في بني إسرائيل بعد حزقييل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له «بعل» فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه (1).

ولعنا نستطيع القول، ولكن بحذر (2)، إن إلياس النبي عليه السلام الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، إنما هو «إيليا» (وهو صيغة مختصرة من إياهو بمعنى الله يهوه) الذي جاء ذكره في العهد القديم، معتمدين في ذلك على قصة هذا النبي الكريم، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، فقصة التوراة تشير إلى عبادة «بعل» في إسرائيل على أيام الملك «أخاب» (869-850 ق. م) وزوجه «إيزابيل» الصورية، ثم معارضة إيليا العنيفة لهذه الوثنية الصورية ودعوته إلى عبادة الله (يهوه) رب إسرائيل (3)، وأما في القرآن الكريم، فقد ذكر إلياس عليه السلام في سورة الأنعام حيث يقول تعالى: وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (4)، وفي سورة الصافات، حيث يقول تعالى: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي

ص: 232

1- تفسير النسفي 27/4، تفسير ابن كثير 30/4، تفسير الطبري 91/23-92، تفسير الفخر الرازي 161/26.

2- الأرجح، فيما يرى صاحب الظلال (2997/5) أنه النبي المعروف في العهد القديم باسم إيلياء.

3- ملوك أول 16/29-33.

4- سورة الأنعام: آية 85، وانظر: تفسير المنار 487/7-490، تفسير الطبري 508/11-510، تفسير ابن كثير 247/2-248.

الآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (1).

هذا وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ، فقال بعضهم: هو اسم إلياس، وأنه كان يسمى باسمين: إلياس وإياسين، مثل إبراهيم وإبراهيم، ويستشهد على ذلك أن ذلك كذلك بأن جميع ما في السورة من قوله «سلام»، فإنه سلام على النبي الذي ذكر دون آله، فكذلك إياسين إنما هو سلام على إلياس دون آله، أو كما ذكرنا من قبل أنه إلياس بن ياسين، فكان إلياس آل ياسين، على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أن المراد «آل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم»، فقد قرأ عامة قراء المدينة «سلام على آل ياسين» بقطع آل من ياسين، فكان بعضهم يتأول ذلك بمعنى سلام على آل محمد صلى الله عليه وسلم، بينما ذهب فريق ثالث أن ياسين اسم القرآن، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين (2).

هذا و يقدم العهد القديم قصة النبي الكريم في سفر الملوك الأول، فيروي أن «أخاب بن عمري» ملك إسرائيل، قد اقترب كل أنواع الشرور، التي اقتربها أسلافه من قبل، ولعل السبب في ذلك أن أخاب كان قد تزوج من «إيزابيل» بنت «إيشبعل» ملك صور، والتي كانت ذات شخصية قوية، و من ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تماما، وقد أثار هذا الزواج

ص: 233

- 
- 1- سورة الصافات: آية 123-132، وانظر: تفسير البضاوي 2/299، تفسير النسفي 4/27-28، تفسير روح المعاني 23/138-142، تفسير ابن كثير 4/30-32، تفسير القرطبي ص 5551-5554، تفسير الطبري 23/91-96، تفسير الفخر الرازي 26/160-162، تفسير الجلالين ص 398، تفسير القاسمي 14/5059-5061، تفسير مجمع البيان 23/80-82، (وانظر: الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص 223-229، أبو الحسن علي الماوردي: أعلام النبوة- القاهرة 1971 ص 52).
- 2- تفسير الطبري 23/95-96، تفسير ابن كثير 4/31، تفسير الفخر الرازي 26/162.

معارضة قوية في إسرائيل، تزعمها النبي إيليا، ذلك لأن «إيزابيل» (1) الصورية لم تأت في الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغربية عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب، وإنما حاولت كذلك احلال آلهة الفينيقيين الوثنية شيئاً فشيئاً محل عبادة الله في مملكة إسرائيل، وليس هناك من ريب في أن إيزابيل وحاشيتها الصورية كانوا يمارسون ديانتهم

ص: 234

1- ليس صحيحاً ما ذهب إليه بعض المراجع العربية من أن هذه الملكة الصورية إيزابيل (أربيل كما يدعونها) ابنة ملك سبأ، وأنها تزوجت بعد أخاب (لاجب أو آجب كما يدعونه) سبعة من ملوك إسرائيل وقتلهم بالاغتيال، وأنها ولدت سبعين ولداً، وكانت معمرة، وأنها هي التي قتلت يحيى عليه السلام (الماوردي: أعلام النبوة ص 52، الثعلبي: قصص الأنبياء ص 224)، وربما اختلط الأمر عليهم بين هذه الملكة إيزابيل الصورية، وبين ابنتها «عثليا» التي تزوجت من «يهورام» (849-842 ق. م) ملك يهوذا، وقد سيطرت على زوجها كأماً، وأدخلت عبادة «البعل» في يهوذا، كما جعلت القتل وسيلة من وسائل سياسة الدولة، وهكذا نتيجة لتأثيرها القوي وغير المحدود على زوجها، فإنه لم يحتضن عبادة «بعل» مدينة صور فحسب، بل إنه عقد العزم كذلك على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد، وربما لكي يزيل المعارضة عن هدفه في سياسة عبادة الأوثان، فقد قتل إخوته الستة، كما قتل كثيراً من النبلاء، وإن كان التنافس على العرش ربما لعب دوره في هذه المجزرة المروعة، وعلى أية حال، فلقد خلفه ولده أخزيا من عثليا ابنة إيزابيل وأخاب، ولكنه قتل بعد عام، فانتهزت عثليا الفرصة، وكانت شديدة الرغبة في الحكم، فقتلت أبناء الأسرة المالكة جميعاً (إلا طفلاً خبأه الكاهن الأكبر في المعبد) ثم أعلنت عبادة بعل صور كعبادة رسمية في العاصمة القدس وفي جميع أنحاء البلاد، بل إن هناك من يذهب إلى أنها كانت تخطط لإقامة أسرة ملكية جديدة في القدس من وطنها صور، رغم أنها صورية الأم، إسرائيلية الأب، غير أن حياتها انتهت فجأة، أما بمؤامرة من الجيش أو بتمرد شعبي عام ضد عبادة البعل، الذي سادت عبادته في دويلتي إسرائيل ويهوذا، وإن اعتبرت عبادته في يهوذا عبادة رسمية تعتنقها الدولة نفسها، وأما قتلها ليحيى عليه السلام فغير صحيح، لأن عهودها يسبق عهد يحيى بما يقرب من ثمانية قرون ونصف القرن، كما أن الذي قتل يحيى عليه السلام إنما هو هيرودوس إرضاء لهيروديا وابنتها سالومي، كما سنرى فيما بعد (ملوك ثان 8/8-22، 1/11، أخبار أيام ثان 1/21-10، 10/22، إنجيل متى 3/14-12، مرقس 16/6-30، تاريخ يوسفوس ص 214، محمد بيومي مهران: إسرائيل 916/2، 960-694، و كذا-. P, tic- po, sdOL. A 385- 384. P, tic- po, nietspE. I 47 و كذا. P, tic- po, htoR. C 32).

الصورية الوثنية في معبد أنشئ في «السامرة» (1) نفسها من أجل هذا الغرض (2).

وعلى أي حال، فلم تكن هذه الديانات هي عبادة الدولة الرسمية، فقد ظلت عبادة الله هي العبادة الرسمية، وإن كان الملك نفسه، فيما تروي التوراة، قد عبد «البعل» و سجد له (3)، كما أن وجود هذه الديانة الأجنبية وعبادتها في العاصمة السامرة، قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الإسرائيلية التي كانت تعتبر خدمة «يهوه» هو هدفها النهائي (4)، وقد تزعم النبي «إيليا» الثورة ضد أخاب و زوجه إيزابيل اللذين جهدا لإلغاء عبادة الله، و احلال عبادة البعل في مكانها، فهما مذابح رب إسرائيل و قتلأ أنبياءه، و من ثم فقد اندفع إيليا في طول البلاد و عرضها كالإعصار مهددا متوعدا بأنه لا ظل و لا مطر في هذه السنين، و في السنة الثالثة يقول الرب لإيليا «اذهب و تراء لأخاب فأعطي مطرا على وجه الأرض» (5).

و مع أن المجاعة كانت شديدة في كل مكان، إلا أنها كانت في السامرة أشد قسوة، و أعنف ضراوة، و يطلب النبي إيليا من أخاب أن يدعو كل

ص: 235

1- حكم عمري والد أخاب إسرائيل من «ترزة» و لكنه في عام حكمه السادس (حوالي عام 870 ق. م) أقام عاصمة إسرائيل الجديدة في «السامرة»، و هي سبسطية الحالية على مبعده ستة أميال شمال غرب شكيم شرقي نابلس، في موقع استراتيجي هام، و قد سميت السامرة نسبة إلى شامر صاحب التل الذي أقيمت فوقه، و إن رأى البعض أن الاسم بمعنى مركز المراقبة أو جبل المراقبة و قد قامت عدة هيئات علمية بحفريات في السامرة، لعل أهمها ما كان في أعوام 1908/1910، 1931/1933، 1935 (أنظر التفصيلات و المراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/ 900-902).

2- ج. كوتنتو: الحضارة الفينيقية ص 74، و انظر تفسير الطبري 23/ 92-93.

3- ملوك أول 16/ 31.

4- . 242 . P, tic- po, htoN. M.

5- ملوك أول 17/ 1- 19/ 21، إنجيل لوقا 4/ 25-26، رسالة يعقوب 5/ 17.

إسرائيل إلى جبل الكرمل، حيث يلتقي هناك سدنة البعل، و عدددهم 450 سادنا، وكذا سدنة السواري (1) الذين يعيشون على مائدة إيزابيل، عدددهم 400 سادنا، وأصدر أخاب أمره الملكي باستدعاء «جميع بني إسرائيل وجميع الأنبياء إلى الكرمل»، و طلب منهم إيليا أن يدعو بعولهم وأصنامهم أن تنزل عليهم المطر، فإن استجاب، فهم على حق، وإن لم تستجب، فهم على باطل، فدعوا فلم تستجب لهم، و دعا إيليا ربه فاستجاب له، و أرسل الله المطر فأغاثهم، فحييت بلادهم و فرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، ثم أمر إيليا القوم أن «امسكوا أنبياء البعل، و لا يفلت منهم رجل، فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر «ميشون» (نهر المقطع في وسط سهل مرج ابن عامر) و ذبحهم»، و تسمع إيزابيل بما حدث، و في غضب مريع تنذر قتل إيليا، (انتقاما منه لقتله كهنة البعل، و لكن إيليا يترك إسرائيل إلى جبل حوريب، بعد أن يعهد إلى حواريه «اليسع» الذي يتولى الدعوة من بعده (2).

هذا و قد اختلفت المصادر العربية في عبادة البعل (3) و مكانها، قال ابن .

ص: 236

1- انظر عن السواري و أهميتها الدينية في إسرائيل (محمد بيومي مهران: إسرائيل 4/ 123-124).

2- ملوك أول 1/ 18-17/19، و انظر: تاريخ الطبري 1/ 462-464 (بيروت 1984).

3- البعل: و جمعه بعليم أو بعالميم، و هو اسم سامي بمعنى، «سيد أو رب أو زوج»، و قد جرى بعض الباحثين على اعتبار «بعل» إلها و ثنيا معيننا، و هذا فيما يرى كونتنو، خلط يحسن أن يزول، فإن اللفظ يطلق على الآلهة الوثنية بوجه عام، فيما عدا إطلاقه في نصوص رأس الشمرا على الإله الوثني الأكبر «بعل»، فيقال، فيما عدا ذلك، بعل هذا الإقليم أو ذلك مثل بعل صور، و بعل لبنان، بمعنى سيد صور و سيد لبنان، و بما أنه كان لأغلب المدن الفينيقية بعولة يقدسونها، فكل بعل يوصف في الغالب باسم المكان الذي يعبد فيه، مثل «بعل روش» (سيد الرأس) و بعل آسافون (سيد الشمال) و بعل شمين (سيد السماوات)، و بعل لبنان (سيد لبنان)، كما كان الاسم من أسمائه يتدئ غالبا ببعل و ينتهي باسم تلك البلاد أو المدينة الموجود فيها أو بشيء ينسب إليه، مثل بعل فعور، و بعل زبوب، و بعلبك، و كان بعل إلها و ثنيا كنعانيا فينيقيا، و هو، في عقيدة القوم، ابن الإله إيل، و زوج الآلهة بعلة أو عشيرة أو عنات أو عشتارت، و كان إله المزارع و رب الخصب في الحقول و المواشي، كما كان يتولى أمر القمم العالية و العواصف و الرعد و المطر، و يصور على هيئة محارب ذي خوذة ممسك بيده صاعقة أمور، مما يجعل هويته نفس هوية الإله الكبير المعروف في سورية العليا ولدى الحثيين و الحوريين أيضا، و هو على الجملة إله أسيوي، و قد أولع أهل المشرق بعبادة البعل فكان يضحون بالذبائح البشرية على مذابحه، و يقيمون هياكله على الأماكن المرتفعة كالجبال و التلال، و قد صار البعل بعد ذلك عشرة للإسرائيليين الذين كسروا شريعة الله تعالى حين أدخلوا عبادته إلى بلادهم، كما كان للبعل كهنة كثيرون يخدعون الناس بسحرهم و شعوذتهم، كما رأينا في قصة إيليا، كما روتها توراة اليهود (كونتنو: الحضارة الفينيقية ص 104، 119-120، قاموس الكتاب المقدس 1/ 181-182).

عباس و مجاهد و عكرمة و قتادة و السدي: بعلا يعني ربا، قال عكرمة و قتادة:

و هي لغة أهل اليمن، و في رواية عن قتادة هي لغة أزد شنوءة، و قال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق، و قال الضحاك هو اسم صنم كانوا يعبدونه، و في تفسير النسفي: بعل اسم صنم من الذهب كان موضعه يقال له «بك» فركب و صار «بعلبك» و هي من بلاد الشام، و قال الرازي في التفسير الكبير: في بعل قولان، أحدهما: أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة و هبل، و قيل كان من ذهب، و كان طوله عشرين ذراعا، و له أربعة أوجه، و فتوا به و عظموه، حتى عينوا له أربعمائة سادن و جعلوهم أنبياء، و باسم هذا الصنم سميت مدينتهم بعلبك، و ثانيهما: أن البعل هو الرب بلغة اليمن، يقال: من بعل هذه الدار، أي من ربه، و سمي الزوج بعلا لهذا المعنى، قال تعالى:

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ، و قال تعالى: وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا فَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الْمَعْنَى: أ تعبدون بعض البعول و تتركون عبادة الله؟ و قال صاحب الظلال إن إلياس أرسل إلى قوم في سورية كانوا يعبدون صنما كانوا يسمونه بعلا، و ما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة (1).

ص: 237

---

1- تفسير الفخر الرازي 161/26، تفسير النسفي 28/4، تفسير ابن كثير 31/4، في ظلال القرآن 2997/5.

وقال ابن إسحاق: سمعت بعض أهل العلم يقول: ما كان بعلى إلا امرأة يعبدونها من دون الله، يقول الله لمحمد: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ - إلى قوله: اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله، وجعلوا لا يسمعون منه شيئا، ألا ما كان من ذلك الملك، والملوك متفرقة بالشام، كل ملك له ناحية منها يأكلها، فقال ذلك الملك الذي كان إلياس معه يقوم له أمره، و يراه على هدى من بين أصحابه، يوما يا إلياس: والله ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلا، والله ما أرى فلانا و فلانا، يعدد ملوكا من ملوك بني إسرائيل قد عبدوا الأوثان من دون الله، إلا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون وينعمون مملكين، ما ينقص دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل، فيزعمون والله أعلم، أن إلياس استرجع وقام شعر رأسه وجلده، ثم رفضه و خرج عنه، ففعل ذلك الملك فعل أصحابه: عبد الأصنام، وصنع ما يصنعون، فقال إلياس: اللهم إن بني إسرائيل قد أبوا إلا أن يكفروا بك، والعبادة لغيرك فغير ما بهم من نعمتك»، قال (أي ابن إسحاق) فذكر لي أنه أوحى إليه: إنا قد جعلنا أمر أرزاقهم بيدك وإليك، حتى تكون أنت الذي تأذن في ذلك، فقال إلياس:

اللهم فامسك عليهم المطر، فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والهوام والدواب والشجر و جهد الناس جهدا شديدا، وفي رواية عن وهب ابن منبه: أنهم سألوه أن يكشف ذلك عنهم و وعدوه الإيمان، أن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر فسأل الله أن يقبضه إليه، و كان قد نشأ على يديه «اليسع بن أخطوب» عليهما السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا و كذا، فمهما جاءه فليركبه و لا يهبه، فجاءته فرس من نار، فركب و ألبسه الله تعالى النور و كساه الريش، و كان يطير مع الملائكة إنسيا سماويا أرضيا، و في تفسير النسفي: قيل في إلياس و النخضر إنهما حيان، و قيل إلياس و كل بالفيافي،



كما و كل الخضر بالبحار، و الحسن يقول: قد هلك إلياس و الخضر، و لا تقول كما يقول الناس: أنهما حيان (1).

و أما متى كان عصر إلياس عليه السلام، فالثابت من نصوص العهد القديم، و بعض المصادر العربية، فضلا عن المؤرخين المحدثين، أن إلياس إنما أرسل إلى بني إسرائيل على أيام الملك أخاب بن عمري، ملك إسرائيل في الفترة (869-850 ق. م) (2)، أي أن إلياس عليه السلام كان يعيش في القرن التاسع قبل الميلاد، و ربما في النصف الأول من هذا القرن التاسع ق. م.

## [2] اليسع عليه السلام:-

أوجز القرآن الكريم عن حياته عليه السلام فلم يذكر عنها شيئا، و اكتفى بذكره بين مجموعة الأنبياء الكرام البررة الذين يجب الإيمان بهم إجمالا، و ذلك في سورتي الأنعام و ص، يقول الله تعالى: **وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَ يُوسُفَ وَ لُوطاً وَ كَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ،** و يقول تعالى: **وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَ ذَا الْكُفْلِ وَ كُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ** (3).

و اليسع، في روايات العهد القديم، هو «اليشع بن شافاط» (4)، و في

ص: 239

---

1- تفسير الطبري 93/23-94، تفسير ابن كثير 31/4، تاريخ الطبري 1/463-464، تفسير النسفي 1/28.

2- أنظر عن عهد أخاب (محمد بيومي مهران: إسرائيل 2/903-913).

3- سورة الأنعام: آية 86، سورة ص: آية 48، و انظر: تفسير الطبري 11/510-512، 23/172-173، تفسير الفخر الرازي 13/64-65، 26/216-217، تفسير روح المعاني 7/218-219، 23/211-212، تفسير ابن كثير 2/247-248، 4/62، تفسير الكشاف 2/34، تفسير البيضاوي 2/312، تفسير المنار 7/487-491، تفسير القرطبي ص 2467-2469، 5662-5663، تفسير أبي السعود 2/245.

4- ملوك أول 16/19.

المصادر العربية، هو «اليسع بن أخطوب» من سبط أفرايم، وقيل ابن عم إلياس، وقال ابن عساكر: اسمه أسباط بن عدي بن شوليم بن أفرايم (1)، وفي تفسير الطبري: أن إلياس عند ما دعا على بني إسرائيل، فحبس المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والهوام والدواب و الشجر و جهد الناس جهدا شديدا، استخفى إلياس عن الناس شفقة على نفسه منهم، ثم إنه آوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له «اليسع بن أخطوب»، به ضرّ، فأوته وأخفت أمره، فدعا إلياس لابنها فعوفي من الضرّ الذي كان به، و اتبع اليسع إلياس، فأمن به و صدقه و لزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب (2).

ويذهب بعض المفسرين إلى أن «اليسع» معرب الاسم العبراني «يوشع» فهو اسم أعجمي دخلت عليه لام التعريف، على خلاف القياس، بينما ذهب آخرون إلى أنه اسم عربي منقول من «يسع» مضارع «وسع»، وأنه من ولد إسماعيل عليه السلام، ويذهب صاحب تفسير المنار إلى أنه تعريب «اليشع»، وهو أحد «أنبياء بني إسرائيل و كان خليفة إلياس (إيليا) و من المعهود في نقل الاسم العبري إلى العربي إبدال الشين المعجمة بالمهملة (3)، وهذا ما نميل إليه و نرجحه، روى عن وهبه بن منبه أن الله قبض حزقييل و عظمت في بني إسرائيل الأحداث، و نسوا ما كان من عهد الله إليهم، حتى نصبوا الأوثان و عبدوها دون الله، فبعث الله إليهم إلياس من ولدها هارون نبيا و إنما كانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، فكان إلياس مع ملك من ملوك بني إسرائيل يقال).

ص: 240

1- تاريخ ابن خلدون 2/ 129-130.

2- تفسير الطبري 23/ 93.

3- تفسير المنار 7/ 490-491 (القاهرة 1974)، تفسير القرطبي ص 2468-2469 (القاهرة 1970).

له «أحاب» كان اسم امرأته «أربل»، وكان يسمع منه ويصدقه، وكان إلياس يقيم له أمره، وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنما يعبدونه من دون الله يقال له «بعل» (1).

وقد جاءت قصة اليسع (اليشع) مفصلة في سفر الملوك الثاني (2-9) من العهد القديم، وعاش على أيام ملك إسرائيل «يهورام» (849-842 ق).

م) آخر ملوك أسرة عمري، وتقرأ في سفر الملوك الأول أن الرب أمر إيليا أن «امسح اليشع بن شافاط من آبل محوله، نبيا عوضا عنك»، فذهب إيليا ووجد اليشع «يحرث واثنا عشر فدان بقرا قدامه وهو مع الثاني عشر، فمر إيليا وطرح رداءه عليه، فترك البقر وركض وراء إيليا و قال: دعني أقبل أبي وأمي وأسير وراءك، فقال له اذهب راجعا لأنني ما ذا فعلت لك، فرجع من ورائه وأخذ فدان بقرا وذبحهما و سلق اللحم بأدوات البقر، وأعطى الشعب فأكلوا، ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه» (2)، ثم تولى الدعوة إلى الله تعالى بعد إلياس كما سار على نهجه و شريعته.

ص: 241

---

1- تفسير الطبري 92/23-93، تاريخ الطبري 1/461.

2- ملوك أول 19/16، 19-21.



جاء ذكر زكريا وولده يحيى عليهما السلام في عدة سور من القرآن الكريم، منها ما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فَنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسديداً وحسوراً ونبياً من الصالحين، قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقراً، قال كذلك الله يفعل ما يشاء، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار (1)، وفي قوله تعالى في سورة مريم: ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا، قَالَ رَبِّ

ص: 243

- 
- 1- سورة آل عمران: آية 37-41، وانظر: تفسير النسفي 1/155-157، تفسير روح المعاني 3/139-154، تفسير الطبري 3/243-262، في ظلال القرآن 1/393-396، تفسير الفخر الرازي 8/29-42، تفسير ابن كثير 1/539-542، البداية والنهاية 2/47-55، صفوة التفاسير 1/199-201، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 1/181-182، تفسير القرطبي ص 1314-1324.

أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا، قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا، فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا، يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (1)، كما جاء ذكرهما في سورتي الأنعام (آية 85) والأنبياء (الآيات 89-90).

و لعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك بين القصة، كما جاءت في سورتي آل عمران و مريم، بعض المقابلات، منها (أولاً) أن الله تعالى بين في سورة مريم أن زكريا دعا ربه و لم يبين الوقت، بينما بيته في آل عمران بقوله تعالى: كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، و المعنى أن زكريا لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع فيه في حق نفسه فدعا، و منها (ثانيا) أن الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادى هو الملائكة لقوله تعالى: فَنادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ، و في سورة مريم الأظهر أن المنادى بقوله تعالى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ هُوَ اللَّهُ تعالى، و لا- منافاة بين الأمرين، و منها (ثالثا) أنه قال في آل عمران: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ، فذكر أولاً كبير نفسه، ثم عمر المرأة، و في سورة مريم قال: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، و جوابه أن الواو لا تقتضي الترتيب، و منها (رابعا) قال

ص: 244

---

1- سورة مريم: آية 2-15، تفسير روح المعاني 16/58-74، تفسير الطبري 16/45-59، في ظلال القرآن 4/2301-2304، تفسير الفخر الرازي 21/179-194، تفسير النسفي 3/28-30، تفسير ابن كثير 3/179-185.

تعالى في آل عمران؛ آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا، وفي مريم: ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا، وقد دلت الآيتان أن المراد ثلاثة أيام بلياليهنَّ (1).

هذا وقد كان زكريا قد كفل مريم أم المسيح عليهم السلام، بعد وفاة أبيها عمران، فقد كان زوجها لخالتها، أو أختها، على الأرجح، كما سنرى إن شاء الله فيما بعد عند الحديث عن مريم البتول، واتخذ لها محرابا (2)، وهو المكان الشريف في المسجد، لا يدخله عليها أحد سواه، وقد شاء الله تعالى أن يطلعه على كرامة مريم، وجيل قدرها، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا: قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وكان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتيا، وكانت امرأته عاقرا، قال ابن عباس: كان ابن عشرين و مائة سنة، وكانت امرأته بنت تسع و تسعين (3)، فلما رأى من كرامات الله تعالى).

ص: 245

1- تفسير الفخر الرازي 195/21.

2- المحراب: هو الموضع العالي الشريف، واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى: إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، والتسور لا يكون إلا من علو، وقيل المحراب أشرف المجالس وأرفعها، قال أبو عبيدة: سيد المجالس وأشرفها ومقدمها، وكذلك هو من المسجد، بل هو المكان الشريف في المسجد أو موقف الإمام، ويقول الألويسي: اعلم أن الصلاة في المحاريب المشهورة الموجودة الآن في مساجد المسلمين قد كرهها جماعة من الأئمة، وإلى ذلك ذهب سيدنا الإمام على كرم الله وجهه في الجنة، وإبراهيم رحمه الله، فيما أخرجه عنهما ابن أبي شيبة، وهي من البدع التي لم تكن في العصر الأول، فعن أبي موسى الجهني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى»، وعن عبد الله بن أبي الجعد قال: «كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقولون: إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد»، وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا هذه المذابح»، يعني المحاريب، والروايات في ذلك كثيرة، ولالإمام السيوطي رسالة مستقلة فيها (تفسير روح المعاني 146/3، تفسير الفخر الرازي 30/8، تفسير البحر المحيط 433/2).

3- تذهب رواية أخرى إلى أن سن زكريا كان مائة، و سن زوجته تسعا و تسعين، وقيل كان له من العمر تسع و تسعون، وقيل اثنتان و تسعون، وقيل خمس و ثمانون، وقيل خمس و سبعون، وقيل سبعون، وقيل ستون (تفسير الفخر الرازي 39/8، 217/22، تفسير روح المعاني 149/3).

لمريم، البنية الصالحة المرزوقة، طمع في فضل الله ورحمته، يقول الفخر الرازي: و الجمهور الأعظم من المحققين و المفسرين أن زكريا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء، و من فاكهة الشتاء في الصيف، فلما رأى خوارق العادات عندها طمع في أن يخرقها الله تعالى في حقه أيضا، فيرزق الولد من الزوجة الشبيخة العاقر (1)، و من ثم فقد أخذت تحرك في نفسه، و هو الشيخ الذي لم يوهن ذرية، تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية، الرغبة في الذرية، و في الامتداد و في الخلف، و تلك الرغبة التي لا تموت في نفوس العباد الزهاد الذين وهبوا أنفسهم للعبادة و نذروها للهيكال، إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لحكمة عليا في امتداد الحياة و ارتقائها (2)، و من ثم فإنه يتوجه إلى ربه يناجيه، و يطلب منه أن يهب له من لدنه غلاما تقيا يرثه النبوة و هداية بني إسرائيل، و يجعله من عباده الصالحين:

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ (3) وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (4).

و هكذا تشير الآيات الكريمة إلى أن زكريا يشكو إلى ربه و هن العظم،

ص: 246

1- تفسير الفخر الرازي 32/8 - 33.

2- في ظلال القرآن 1/ 393.

3- اتفق أكثر المفسرين على أن «يعقوب» هنا، هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فإن زكريا من ولد هارون من نسل لاوى بن يعقوب، و كان متزوجا من أخت مريم بنت عمران، و هي من ولد سليمان بن داود من نسل يهوذا بن يعقوب، و إن ذهب آخرون (الكلبي و مقاتل) أن يعقوب هنا، هو يعقوب بن ماثان أخو عمران و ولد مريم البتول، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنه أخو زكريا نفسه (روح المعاني 16/ 62).

4- سورة مريم: آية 4-6، و انظر: آل عمران: آية 38-41.



و حين يهن العظم يكون الجسم كله وهن، فالعظم هو أصلب ما فيه و هو قوامه الذي يقوم به و يجتمع عليه، و يشكو إليه اشتعال الرأس شيئا، و التعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل، و يجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد، و وهن العظم و اشتعال الرأس شيئا كلاهما كناية عن الشيخوخة و ضعفها الذي يعانیه زكريا و يشكوه إلى ربه، و هو يعرض عليه حاله و رجائه، ثم يعقب عليه بقوله: **وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** معترفا بأن الله قد عوّده أن يستجيب إليه إذا دعاه، فلم يشق مع دعائه لربه، و هو في فتوته و قوته، فما أحوجه الآن في هرمه و كبرته أن يستجيب الله له و يتم نعمته عليه، و هذا و قد جاء في بعض الآثار أن العبد إذا قال في دعائه: يا رب، قال الله سبحانه و تعالى له: لبيك عبدي، و روى أن موسى عليه السلام قال يوما في دعائه: يا رب، فقال سبحانه و تعالى له: لبيك يا موسى، فقال موسى: أ هذا لي خاصة، فقال الله تبارك و تعالى: لا، و لكن لكل من يدعوني بالربوبية، و قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه، فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه و صفاته عز و جل (1).

هذا و قد اختلف العلماء في قوله تعالى: **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**، يرثي و يرث من آل يعقوب و اجعله رب رضى (2)، فأما «الموالي»، فيما يروي عن ابن عباس و مجاهد، عصبه الرجل، و عن ابن عباس أيضا و الحسن البصري: ورثته، و عن أبي صالح: الكلالة (3)، و عن الأصم بنو العم، و هم الذين يلونه في النسب،).

ص: 247

1- في ظلال القرآن 4/ 2302، روح المعاني 16/ 59-61.

2- سورة مريم: آية 5-6.

3- الكلالة: المراد هنا من يرثه من حواشيه، لا أصوله و لا فروع، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، أنه سئل عن الكلالة، فقال أقول فيها برأي، فإن يكن صوابا فمن الله، و إن يكن خطأ فمني و من الشيطان، و الله و رسوله بريئان منه، الكلالة: من لا ولد له، و لا والد، فلما ولي عمر رضي الله تعالى عنه، قال إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأيه، و روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن طاوس قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت آخر الناس بعمر فسمعته يقول: الكلالة من لا ولد له و لا والد، و هكذا قال الإمام علي و ابن مسعود، و به يقول الشعبي و النخعي و الحسن البصري و قتادة و جابر بن زيد و الحكم، و به يقول أهل المدينة و الكوفة و البصرة، و هو قول الفقهاء السبعة و الأئمة الأربعة و جمع السلف و الخلف، و قد حكى الإجماع عليه غير واحد، و إن روى عن ابن عباس أيضا أنه من لا ولد له، و الصحيح الأول (تفسير ابن كثير 1/ 693، تفسير الطبري 4/ 283-289).

وعن أبي مسلم المولي يراد به الناصر، وابن العم و المالك و الصاحب، و هو هنا من يقوم بميراثه مقام الولد، و المختار أن المراد من المولي الذين يخلفون بعده، إما في السياسة أو في المال الذي كان له في القيام بأمر الدين، فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب، فإنه كان متعينا في الحياة، و على أي حال، فهم على سائر الأقوال شرار بني إسرائيل فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافته في أمته، و كان زكريا يخشاهم ألا- يقوموا على تراثه بما يرضاه، و تراثه هو دعوته التي يقوم عليها، و هو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين، و أهله الذين يرعاهم، و منهم مريم البتول التي كان قيما عليها و هي تخدم المحراب الذي يتولاه، و ماله الذي يحسن تديره و إنفاقه في وجهه، و هو يخشى المولي من وراثه على هذا التراث كله، و يخشى ألا يسيروا فيه سيرته، لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث (1)، على أن هناك من يرى احتمال أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه لم يبق من أنبياء بني إسرائيل نبي له أب إلا واحد، فخاف أن يكون ذلك من بني عمه، إذ لم يكن له ولد، فسأل الله تعالى أن يهب له ولدا يكون هو ذلك النبي، و ذلك يقتضي أن يكون خائفا من أمر يهتم بمثله الأنبياء، و إن لم يدل على تفصيل ذلك، و لا يمتنع أن زكريا كان إليه، مع النبوة، السياسة من جهة الملك و ما يتصل بالإمامة، فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما، و من أجل ذلك

ص: 248

---

1- تفسير الفخر الرازي 182/21، في ظلال القرآن 4/2302.

دعا زكريا أن يهبه من لدنه وليا، أي ولدا من صلبه، ويؤيده (أولا) قوله تعالى في آل عمران حكاية عنه: قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، و (ثانيا) قوله تعالى في سورة مريم: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، و (ثالثا) قوله تعالى في الأنبياء: رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا، وهذا يدل على أنه سأل الولد، لأنه قد أخبر في سورة مريم أن له موالى، وأنه غير منفرد عن الورثة، وهذا، وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه، لكن حمله على الولد أظهر (1).

و أما قوله تعالى: يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، فقد اختلف العلماء في المراد بالميراث هنا على وجوه، أحدهما: أن المراد بالميراث في الموضوعين هو وراثته لمال، وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك، و ثانيهما: المراد في الموضوعين وراثته النبوة، وهو قول أبي صالح، و ثالثها:

يرثني المال (2)، و يرث من آل يعقوب النبوة، وهو قول السدي ومجاهد والشعبي، و روى أيضا عن ابن عباس والحسن البصري والضحاك، و عن أبي صالح قال: يرث مالي من آل يعقوب النبوة، وفي تفسير الطبري: يرثني من بعد وفاتي مالي، و يرث من آل يعقوب النبوة، و ذلك أن زكريا كان من ولد يعقوب، و رابعها: يرثني العلم و يرث من آل يعقوب النبوة، وهذا مروى عن مجاهد، و قال البيضاوي: المراد وراثته الشرع و العلم، فإن الأنبياء لا يورثون مالا، و قال النسفي: أي هب لي ولدا وارثا مني العلم و من آل يعقوب النبوة، و معنى وراثته النبوة أنه يصلح لأن يوحى إليه، و لم يرد أن نفس النبوة تورث، كما أشرنا من قبل إلى ذلك مرارا، و يقول الفخر الرازي: أن هذه

ص: 249

1- تفسير الفخر الرازي 183/21.

2- جاء في تفسير ابن كثير (1/179-180): وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا يأكل من عمل يده في التجارة، و من ثم فلم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يده، و مثل هذا لا يجمع مالا، و لا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهي المال و منصب الحبورة و العلم و النبوة و السيرة الحسنة، و لفظ الإرث مستعمل في كلها، أما في المال، فلقوله تعالى: **أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ،** و أما في العلم فلقوله تعالى:

**وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ،** و قال صلى الله عليه و سلم:

العلماء و رثة الأنبياء، و إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهما و إنما ورثوا العلم»، و ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»، و في رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»، و قال تعالى: **وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ،** و هذا يحتمل وراثة الملك و النبوة، و على أي حال، فلقد ثبت أن اللفظ محتمل لكل تلك الوجوه (1).

هذا و قد احتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر و المعقول، فأما الخبر فلقد أخرج ابن جرير في التفسير بسنده عن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من و رثة ماله حين يقول فهب لي من لدنك وليا، يرثني و يرث من آل يعقوب»، و عن قتادة: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه و سلم كان إذا قرأ هذه الآية، و أتى على «يرثني و يرث من آل يعقوب»، قال: رحم الله زكريا ما كان عليه من و رثته (2)، و ظاهر ذلك يدل على أن المراد إرث المال، و ثانيهما: أنه قال «و اجعله رب رضىا»، و لو كان المراد من الإرث إرث النبوة، لكان سأل جعل النبي رضىا، و هو غير جائز، لأن النبي لا يكون إلا رضىا معصوما، و أما قوله صلى الله عليه و سلم: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، فهذا لا يمنع أن يكون خاصا به، و أما من حمله على العلم أو المنصب و النبوة، فقد احتج بما علم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد).

ص: 250

1- تفسير البيضاوي 14/2، تفسير الفخر الرازي 184/21، تفسير النسفي 29/3، تفسير ابن كثير 180/3.

2- تفسير الطبري 48/16 (بيروت 1984).

بأمر المال، كما يشتد بأمر الدين، وقيل لعله أوتي من الدنيا ما كان عظيم النفع في الدين، فلهذا كان مهتما به (1).

هذا وقد استدل الشيعة بالآية (يرثي ويرث من آل يعقوب) على أن الأنبياء عليهم السلام تورث عنهم أموالهم، لأن الوراثة حقيقة في وراثة المال، ولا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، وقد ذكر الجلال السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي صالح أنهم قالوا في الآية: يرثي مالي، وأخرج عبد الرزق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم قال في الآية: «يرحم الله تعالى أخي زكريا ما كان عليه من ورثة»، وفي رواية: ما كان عليه ممن يرث ماله»، وقال بعضهم: إن الوراثة ظاهرة في ذلك ولا يجوز هاهنا حملها على وراثة النبوة لئلا يلغوا قوله: وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، ولا على وراثة العلم لأنه كسبي، والموروث حاصل بلا كسب، ومذهب أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام لا يرثون مالا، ولا يرثون، لما صح عندهم من الأخبار (2).

وعلى أي حال، فإن زكريا، النبي الصالح، إنما يختم دعاءه:

وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، وهكذا يصور أمه في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته بأن يجعله الله تعالى رضى، لا جبارا ولا غليظا، ولا متبطرا ولا طموعا، ولفظة «رضى» إنما تلقي هذه الظلال، فالرضى هو الذي يرضى ويرضى، وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله، يقول الطبري: واجعل يا رب الولي الذي تهبه لي مرضيا مرضاه أنت ويرضاه عبادك، دينا وخلقًا وخلقًا (3).

ويتقبل الله، سبحانه تعالى، دعاء عبده زكريا، وتحدث الاستجابة

ص: 251

1- تفسير الفخر الرازي 184/21.

2- تفسير روح المعاني 64/16 (بيروت 1978).

3- في ظلال القرآن 2302/4، تفسير الطبري 49/16.

التي لا تتقيد بسنن، ولا تتقيد بمألوف الناس، لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (1)، وهكذا بشرت الملائكة زكريا عليه السلام بمولود ذكر، اسمه معروف قبل مولده (يحيى)، وفي آية أخرى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (2)، وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد لوعده الله تعالى لزكريا عليه السلام، وتشريف ليحيى عليه السلام حيث تولى الله تعالى تسميته، ومن المعروف عادة أن كل الناس إنما يسميهم آبائهم وأمهاتهم بعد مولدهم، وأما يحيى عليه السلام فإن الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود، فكان ذلك من خواصه، فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية (3)، وأما قوله تعالى: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا، فقد اختلف المفسرون فيه على وجوه، أحدهما: وهو قول ابن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبيرة وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، وثانيها: أن المراد بالسمى النظير، كما في قوله تعالى: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا، أي شريكا في الاسم، وفي تفرد بهذا الاسم ضرب من التعظيم، ومزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام وهذا، كما قال الزمخشري، شاهد على أن الأسماء النادرة التي لا يكاد الناس يستعملونها جدية بالأثرة، وإياها كانت العرب تنحي في التسمية، لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبر، وثالثها: ما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، من أن العواقر لم تلد قبله مثله، وكما يقول ابن كثير).

ص: 252

1- سورة آل عمران: آية 39.

2- سورة مريم: آية 7.

3- تفسير الفخر الرازي 186/21، غير أننا نلاحظ أن هناك شبهة لهذا، ذلك أن إسحاق ويعقوب والمسيح عليهم السلام، قد بشر بهم، وسمعوا بأسمائهم قبل مولدهم (سورة آل عمران: آية 45، هود: آية 71، الصافات: آية 112)، بل إن التوراة تشير إلى أن إسماعيل قد بشر به وأعطى اسمه قبل أن يولد (تكوين 11/16).

وفي هذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقرا من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، لا لعقرهما (1) ولهذا قال: أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشَّرُونَ، مع أنه كان قد ولد له من قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (2) وأخرج الإمام أحمد في الزهد، وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد أن «سميا» بمعنى شبيها، وروى عن عطاء وابن حبير مثله أي لم نجعل له شبيها، حيث أنه لم يعصي ولم يهجم بمعصية، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من أحد من ولد آدم، إلا وقد أخطأ أو همّ بخطئ، إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام، لم يهجم بخطيئة ولم يعملها»، وعن ابن المسيب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد يلقي الله يوم القيامة إلا أذنب، إلا يحيى بن زكريا»، وقال قتادة: ما أذنب، ولا همّ بامرأة، والأخبار في ذلك متظافرة، وقيل لم يكن له شبيه لذلك (3).

هذا وقد وصف الله تعالى نبيه يحيى عليه السلام في سورة آل عمران بأربع صفات، قال تعالى: أَنْ اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ (3) مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ).

ص: 253

1- هذا صحيح بالنسبة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، أما السيدة سارة فقد كانت عجوز عقيم، كما أخبرنا القرآن الكريم في سورة الذاريات: آية 29.

2- سورة هود: آية 72-73، تفسير ابن كثير 3/ 181-182.

3- روى أنه سمي «يحيى» لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه أو لأن الله تعالى أحيا قلبها لإيمان والطاعة، والله تعالى سمي المطيع حيا والعاصي ميتا بقوله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَقَالَ تَعَالَى: إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، أو لأنه يحيى بإرشاد الخلق وهدايتهم أو لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يعصي أو يعم بمعصية أو لأنه استشهد، والشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى: بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وقيل غير ذلك (تفسير الفخر الرازي 21/ 186).

وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (1)، فأما الصفة الأولى، فقد وصفه الله تعالى بأنه كان «مصدقاً بكلمة من الله»، والمراد بالكلمة هنا عيسى بن مريم، أي مصدقاً بعيسى مؤمناً به، فهو أول من آمن به، و سمي عيسى كلمة الله لأن تكونه بكن بلا أب (2)، و رغم أن صاحب الظلال (3) يرى أنه ليس هناك ما يحتم هذا الفهم (أي التصديق بعيسى)، فإن المفسرين يروون عن ابن عباس أنه قال: إن يحيى كان أكبر سناً من عيسى بستة أشهر، و كان يحيى أول من آمن و صدق بأنه كلمة الله و روحه، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى، و أخرج الإمام أحمد عن مجاهد قال: قالت امرأة زكريا لمريم، إني أجد الذي في بطني يتحرك للذي في بطنك، و أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: كان يحيى و عيسى ابني خالة، و كانت أم يحيى تقول لمريم إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك»، فذلك تصديقه له، و كان أكبر من عيسى بستة أشهر، و قيل بثلاث سنين (4)، و في تفسير ابن كثير (5): روى العوفي و غيره عن ابن عباس، كما قال الحسن و قتادة و عكرمة و مجاهد و أبو الشعثاء و السدي و الربيع بن أنس و الضحاك و غيره في هذه الآية: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ أَي بَعِيسَى بِنِ مَرْيَمَ، و قال الربيع هو أول من صدق بعيسى بن مريم، و قال قتادة: و على سنته و منهاجه، غير أن هناك رواية أخرى تنسب إلى عبدة، و تذهب إلى أن معنى «بكلمة من الله»، بكتاب منه، و المراد به

ص: 254

1- سورة آل عمران: آية 39.

2- تفسير النسفي 1/ 156.

3- في ظلال القرآن 1/ 394.

4- تفسير روح المعاني 3/ 147، تفسير الطبري 3/ 253.

5- تفسير ابن كثير 1/ 450.



الإنجيل، وإطلاق الكلمة عليه كإطلاقها على العصيدة، غير أن الإمام الطبري إنما يعتبر ذلك جهلا بتأويل الكلمة، واجترأ على ترجمة القرآن (1).

و أما (ثانيا) فكان سيّدا: وقد فسره ابن عباس بالحليم والكريم والتقي، وقال الجبائي: إنه كان سيّدا للمؤمنين، رئيسا لهم في الدين، أعني في العلم والحلم والعبادة والورع، وقال مجاهد: الكريم على الله، وقال ابن المسيب: الفقيه العالم، وقال عكرمة: الذي لا يغلبه الغضب، وقال الضحاك: الحليم التقي؛ وقال ابن زيد السيد هو الشريف، وفي تفسير النسفي: السيد هو الذي يسود قومه، أي يفوقهم في الشرف، وكان يحيى فائقا على قومه لأنه لم يرتكب سيئة قط، ويا لها من سيادة، وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضا عن المكون، و قال القاضي: السيد هو المتقدم المرجوع إليه، فلما كان سيّدا في الدين وقدوة فيه، فتدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفة والزهد والورع (2).

و أما (ثالثا) فكان حصورا: والحصر في اللغة الحبس، يقال حصره حصرا، وحصر الرجل: أي اعتقل بطنه، والحصور الذي يكتم السر ويحبسه، والحصور الضيق البخيل، وأما المفسرون فلهم قولان، أحدهما:

أنه كان عاجزا عن إثبات النساء، فقد روى عن ابن مسعود وابن عباس سعيد بن جبير وأبي الشعثاء وعطية العوفي أنهم قالوا: الذي لا يأتي النساء، وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد ولا ماء له، ثم منهم من قال كان ذلك لصغر الآلة، ومنهم من قال كان ذلك لتعذر الإنزال، ومنهم من قال كان ذلك لعدم القدرة، وقد روى الحفاظ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ما معه عليه السلام كان كالأنملة، وفي بعض الروايات كالقذاة، وفي

ص: 255

1- تفسير الطبري 3/ 253-254، تفسير روح المعاني 3/ 147.

2- تفسير النسفي 1/ 156، تفسير الفخر الرازي 8/ 36.

أخرى كالنواة، وفي بعض كهدة الثوب، وتذهب جمهرة العلماء إلى أن هذا الرأي غير مقبول أصلاً، لأن هذه من صفات النقصان، وذكر صفة النقصان، في معرض المدح لا- يجوز، ولأنه على هذا التقدير لا يستحق به ثواباً ولا من تعظيماً، وأما القول الثاني، وهو اختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء، لا للعجز، بل للعفة والزهد، وذلك لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها، والمنع إنما يحصل أن لو كان المقتضى قائماً، فلولا أن القدرة والداعية كانتا موجودتين، وإلا لما كان حاصراً لنفسه، فضلاً عن أن يكون حصوراً، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والداعية والقدرة، وعلى هذا الحصور بمعنى الحاصر، فعول بمعنى فاعل (1).

وقال القاضي عياض في الشفا (2): اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان «حصوراً»، ليس كما قال بعضهم إنه كان هيوباً ولا ذكر له، بل قد أنكر ذلك حذاق المفسرين ونقاد العلماء وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل ليست له شهوة في النساء، وقد بان ذلك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه، درجة عليا، وهي درجة نبياً صلى الله عليه وسلم الذي لم تشغله كثرته عن عبادته ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحسينهن وقيامه عليهن وإكسابه).

ص: 256

- 
- 1- تفسير روح المعاني 3/ 148، تفسير الفخر الرازي 8/ 36-37، تفسير الطبري 3/ 255-256.
  - 2- القاضي عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى 1/ 88-89 (بيروت 1979)، شرح الشفا للملا على القاري 1/ 209-210 (دار الكتب العلمية- بيروت).

لهن و هدايته إياهن، بل وقد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حبب إلي من دنياكم»، و المقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور، ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم من الفواحش و القاذورات، و لا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال و غشيانهن و إيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم، حيث قال: هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً كأنه قال: ولدا له ذرية و نسل و عقب (1)، و أما ما أخرجه الحفاظ، على تقدير صحته، يمكن أن يقال إنه من باب التمثيل و الإشارة إلى عدم انتفاعه عليه السلام بما عنده لعدم ميله للنكاح لما أنه في شغل شاغل عن ذلك.

و من هنا قيل: إن التبتل لنوافل العبادات أفضل من الاشتغال بالنكاح، استدلالا بحال يحيى عليه السلام، و من ذهب إلى خلافه احتج بما أخرجه الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أربعة لعنوا في الدنيا و الآخرة و أمنت الملائكة، رجل جعله الله تعالى ذكرا فأنث نفسه و تشبهه بالنساء، و امرأة جعلها الله تعالى أنثى فتذكرت و تشبهت بالرجال، و الذي يضل الأعمى، و رجل حصور، و لم يجعل الله تعالى حصورا، إلا يحيى بن زكريا»، و في رواية «لعن الله تعالى و الملائكة رجلا تحصر بعد يحيى بن زكريا»، و يجوز أن يراد بالحصور المبالغ في حصر النفس و حبسها عن الشهوات مع المقدرة، و قد كان حاله عليه السلام كذلك، و أخرج عبد الرزاق عن قتادة موقوفا، و ابن عساكر عن معاذ بن جبل مرفوعا، أنه عليه السلام مرّ في صبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال: «ما للعب خلقت» (2).

و أما (رابعا) فكان نبيا من الصالحين: و هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى عليه

ص: 257

1- تفسير ابن كثير 1 / 541-542.

2- تفسير روح المعاني 3 / 148.

السلام بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله تعالى لأم موسى:

إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (1)، و أما الصلاح فالمراد به هنا ما فوق الصلاح الذي لا بد منه في منصب النبوة البتة من أقاصي مراتبه، وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام: وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (2)، و ذلك لأن للأنبياء قدرا من الصلاح لو انتقص لانفتت النبوة، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري مجرى حفظ الواجبات بالنسبة إلينا، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر، و كل من كان أكثر نصيبا منه كان أعلى قدرا (3).

و عودا على بدء، إلى زكريا عليه السلام، ذلك أن النبي الكريم قد عجب من أن يكون له غلام، على كبر سنه، و عقم زوجته، فقيل له كذلك يفعل الله ما يشاء، و طلب آية من ربه تدل على حمل امرأته، فقيل له آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، مع أنك سوى صحيح، و الغرض أن يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انِّي كُنْتُ نَذِيْرًا وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا، وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَ قَدْ خَلَقْتُنَا مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا، قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (4)، و قد ذكر المفسرون في تفسير الآية الأخيرة (مريم: آية 10) (5) وجوها، أحدها: أنه تعالى حسب لسانه ثلاثة أيام، فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزا، و الرمز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما، قال الطبري: الإيماء

ص: 258

1- سورة القصص: آية 7.

2- سورة النمل: آية 19.

3- تفسير الفخر الرازي 37/8.

4- سورة مريم: آية 8-10، و انظر: سورة آل عمران: آية 40-41.

5- و كذا: آية آل عمران 41 أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا.

بالشفقتين، وقد يستعمل في الحاجبين والعينين أحيانا، وفيه فائدتان، إحداهما: أن يكون ذلك آية على علوق الولد، والثانية: أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا، وأقدره على الذكر والتسبيح والتهليل، ليكون في تلك المدة مشتغلا بذكر الله تعالى، والشكر على تلك النعمة الجليلة، وعلى هذا التقدير يصير الشيء الواحد علامة على المقصود، وأداء لشكر تلك النعمة فيكون جامعا لكل المقاصد، هذا فضلا عن أن تلك الواقعة إنما كانت مشتملة على المعجز من وجوه، أحدهما: أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر، وعجزه عن الكلام بأمور الدنيا، من أعظم المعجزات، و ثانيهما:

أن حصول ذلك المعجزة في تلك الأيام المقدورة، مع سلامة البنية، واعتدال المزاج، من جملة المعجزات، وثالثها: أن إخباره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضا من المعجزات (1).

وولد يحيى عليه السلام، فشب على الطهر والاستقامة، وكان آية في ورعه وزهده وطاعته لربه، وبره بوالديه وآتاه الله العلم والحكمة و منّ عليه بالرسالة، وقد روى أنه لم يهجم بمعصية قط، ولم ينشغل في طفولته بما ينشغل به الأطفال، وكان يقول: ما للعب خلقت، وكان يحيى عليه السلام هو الآية الثانية لبني إسرائيل، وكانت الأولى ولادة مريم، وكانت أمها «حمنة» عقيما لا تلد، وأما الثالثة فكانت ولادة عيسى عليه السلام من غير أب (2)، وقد قدم الله تعالى قصة يحيى، وكذا مريم، على قصة عيسى، عليهم السلام، ذلك لأن خلق الولد من شيخين فانبين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد من غير أب، وأحسن الطرق في التعليم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقيا إلى الأصعب فالأصعب.

ص: 259

1- تفسير الطبري 260/3، تفسير الفخر الرازي 40/8.

2- محمد خليل هراس: المرجع السابق ص 183.

هذا وقد أثنى الله تعالى على يحيى عليه السلام بالثناء العاطر، ووصفه بالبر والتقوى والصلاح والاستقامة قال تعالى: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَرِكَاهًا وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا، وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (1).

ويقول المفسرون أن الله تعالى وصف يحيى عليه السلام في هذه الآيات بصفات تسع، منها (أولاً) أن الله تعالى أعطاه الكتاب، والكتاب هو التوراة، كتاب بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وعليه كان يقوم أنبيأؤهم يعلمون به ويحكمون وهو نعمة الله على بني إسرائيل، قال تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ (2)، ويقول ابن عطية:

أن الإجماع هو التوراة، على أن «أل» للعهد، ولا- معهود إذ ذاك سواها، فإن الإنجيل لم يكن موجوداً حينئذ، كما خص كثير من الأنبياء عليهم السلام بمثل ذلك، وقيل المراد بالكتاب صحف إبراهيم عليه السلام، وقيل المراد الجنس، أي كتاب الله تعالى، وعلى أي حال، فإن يحيى قد ورث أباه زكريا، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة (3).

ومنها (ثانياً) آتاه الله الحكم صبياً: وهكذا كان يحيى عليه السلام، فذا في زاده لينهض بالتبعة الكبرى، كما كان فذا في اسمه وفي ميلاده، فالحكمة تأتي متأخرة، ولكن يحيى قد زود بها صبياً (4)، أخرج أبو نعيم وابن مردويه والديلمي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ذلك: أعطى الفهم وهو ابن سبع سنين، وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعاً أيضاً، قال الغلطان ليحيى

ص: 260

1- سورة مريم: آية 12-15.

2- سورة الجاثية: آية 16.

3- تفسير روح المعاني 72/16، في ظلال القرآن 4/2304.

4- في ظلال القرآن 4/2304.

بن زكريا عليهما السلام: اذهب بنا نلعب، فقال: أَللَّعِبِ خَلَقْنَا، اذْهَبُوا نَصَلِّي، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَقَدْ اختلف العلماء في معنى «الحكم» هنا، فمن قائل أنها بمعنى الحكمة، وهي الفهم في التوراة والفقہ في الدين، قال الطبري: المعنى أعطيناها الفهم لكتاب في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، ومن قائل إنها بمعنى العقل والفراسة الصادقة، ومن قائل إنها النبوة وعليه كثير، قالوا: أوتيتها وهو ابن ثلاثين، وقبل وهو ابن سبع سنين أو ابن اثنتين، ولم يتنبأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين، وإن رأى البعض أن الحكم هنا ليس بمعنى النبوة، فهي على سن الأربعين، وإنما المراد الفهم والفقہ في الدين، وهو غير الحكمة المفسرة بالنبوة، كما في الآية (251) من سورة البقرة، والتي جاءت في حق داود عليه السلام (1).

هذا ويرجح الفخر الرازي في التفسير الكبير أنها النبوة، ذلك لأن الله تعالى قد أحكم عقله في صباه وأوحى إليه، وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام، وهما صبيان، لا كما بعث موسى ومحمد عليهما السلام، وقد بلغا الأشد، والأقرب حمل الحكم على النبوة لوجهين، الأول: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته، ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان، فذكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها، فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية، ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها، والثاني: أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق، وذلك لا يكون إلا بالنبوة، فإن قيل كيف يعقل حصول العقل والفتنة والنبوة حال الصبا؟ قلنا هذا السائل، إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع، فإن منع منه فقد سدَّ

ص: 261

---

1- تفسير الطبري 16/54-55، تفسير النسفي 3/30، تفسير ابن كثير 3/183، تفسير روح المعاني 16/72، صفوة التفاسير 2/213، تفسير الكشاف 2/504.

باب النبوات لأن الأنبياء بناء الأمر فيها على المعجزات، ولا معنى لها إلا خرق العادات، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد، فإنه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلا، أشد من استبعاد انشقاق القمر، وانفلاق البحر (1).

ومنها (ثالثا) وحنانا من لدنا: أي أن الله آتاه الحنان هبة لدية لا يتكلفه ولا يتعلمه، وإنما هو مطبوع عليه، ومطبوع به، والحنان صفة ضرورية للنبي المكلف رعاية القلوب والنفوس، وتألفها واجتذابها إلى الخير في رفق، وعن زيد أن الحنان هنا المحبة، وهو رواية عكرمة، أي و آتينا محبة من لدنا، والمراد جعلناه محببا عند الناس، فكل من رآه أحبه، نظير قوله تعالى: **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**، وعن عطاء بن رباح أي آتينا الحكم صبيا تعظيما، إذ جعلناه نبيا وهو صبي، ولا تعظيم أكثر من هذا، والدليل عليه ما روى أنه مرّ و ورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء، ويقول: أحد أحد، فقال: **والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لاتخذته حنانا أي معظما (2)**.

ومنها (رابعا) و زكاة: و الزكاة: الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك و ابن جريح: العمل الصالح الزكي، وقال العوفي عن ابن عباس: و زكاة، قال بركة، و المعنى آتاه الله الطهارة والعفة ونظافة القلب و الطبع يواجه بها أدران القلوب و دنس النفوس، فيطهرها و يزكياها (3)، و يقول الرازي (4): قوله تعالى: **وَزَكَاةً فِيهِ وَجْهٌ**، أحدهما: المراد و آتينا زكاة، أي عملا صالحا زكيا، كما روى عن ابن عباس و قتادة و الضحاك و ابن جريح، و ثانيها: عن الحسن البصري:

ص: 262

1- تفسير الفخر الرازي 21/ 191-192.

2- تفسير روح المعاني 16/ 73، تفسير الفخر الرازي 21/ 192-193.

3- تفسير ابن كثير 3/ 184، في ظلال القرآن 4/ 2304.

4- تفسير الفخر الرازي 21/ 193.



زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أذكىء، و ثالثها: زكينا بحسن الشئاء، كما تزكي الشهود الإنسان، و رابعها: عن الكلبي: صدقة تصدق الله تعالى بها على أبويه، و خامسها: بركة و نماء، و هو الذي قاله عيسى عليه السلام وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ.

و منها (خامسا): و كان تقيا: أي كان موصولا بالله، متحرجا معه، مراقبا له يخشاه و يستشعر رقابته عليه في سره و نجواه و أولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله و لا يهتم بمعصيته، و كان يحيى عليه السلام كذلك، و قد سبق أن أشرنا إلى عدة أحاديث تدل على ذلك، و منها قوله صلى الله عليه و سلم: «ما من أحد يلتقي الله يوم القيامة إلا أذنب، إلا يحيى بن زكريا»، و أخرج الأئمة مالك و أحمد في الزهد و عبد الله بن المبارك و أبو نعيم عن مجاهد قال: كان طعام يحيى بن زكريا عليهما السلام العشب و إنه كان ليبيكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه، و قد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه» (1).

و منها (سادسا): و برا بالديه: كان يحيى برا بالديه مسارعا في طاعتها و محبتها، غير عاق بهما، و ذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، و لهذا السبب قال تعالى: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (2).

ص: 263

#### 1- تفسير الطبري 58/16، تفسير روح المعاني 73/16.

2- سورة الإسراء: آية 23، هذا و قد جاء في بر الوالدين كثير من الأحاديث الشريفة، منها ما روي الإمام أحمد بسنده عن أنس و غيره أن النبي صلى الله عليه و سلم صعد المنبر ثم قال: آمين آمين آمين، قيل يا رسول الله علام ما أمنت، قال أتاني جبريل فقال يا محمد، رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل آمين فقلت آمين» (مسند الإمام أحمد 4/344)، و روى الإمام أحمد في مسنده (4/344) بسنده عن مالك بن عمرو القشيري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «من أعتق رقبة مسلم فهي فداؤه من النار، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه، و من أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز و جل، و من ضم يتيما من أبوين مسلمين إلى طعامه و شرابه حتى يغنيه الله و جبت له الجنة»، و روى الإمام أحمد في مسنده (5/29) عن أبي مالك القشيري قال قال النبي صلى الله عليه و سلم: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فابعده الله و أسحقه» (و رواه أبو داود الطيالسي عن شعبه)، و روى الإمام أحمد في مسنده (2/346) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك أبويه أو كلاهما عند الكبر، و لم يدخل الجنة» (و رواه الإمام مسلم في صحيحه 8/5 من حديث أبي عوانة و جرير و سليمان بن بلال عن سهيل)، و روى الإمام أحمد في مسنده (2/254) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ، و رغم أنف رجل دخل عليهم شهر رمضان فأنسلخ فلم يغفر له، و رغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم يدخله الجنة»، قال ربي: لا أعلمه إلا قال: «أو أحدهما»، و روى الإمام أحمد في مسنده (3/497) عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ جاء رجل من الأنصار، فقال يا رسول الله: هل بقي عليّ من برّ أبوي شيء بعد موتها أبرهما به، قال نعم خصال أربع: الصلاة عليهما، و الاستغفار لهما، و إنفاذ عهدهما، و إكرام صديقيهما، و صلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلها، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما» (و رواه أبو داود و ابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان، و هو ابن الغسيل (سنن ابن ماجه 2/1208، سنن أبي داود 2/629) و روى الإمام أحمد في مسنده (3/429) بسنده عن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، و جئتك أستشيرك، فقال: «فهل لك من أم» قال: نعم، قال: «فألزمها فإن الجنة عند رجلها»، ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول (و رواه النسائي و ابن ماجه من

حديث ابن جريح)، وروى الإمام أحمد في مسنده (132/4) بسنده عن المقدم بن معد يكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب» (وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش، سنن ابن ماجه 1207/2)، وروى الإمام أحمد في مسنده (64/4) بسنده عن رجل من بني يربوع قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعتة وهو يكلم الناس، يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»، وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: هل أديت حقها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة» أو كما قال: (وانظر: تفسير ابن كثير 57/3 - 60 - بيروت 1986).



ومنها (سابعاً): ولم يكن جباراً: لم يكن متكبراً متعالياً عن قبول الحق والإذعان له أو متطاولاً ولا على الخلق، وقيل الجبار: هو الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، وعن ابن عباس أنه هو الذي يقتل ويضرب على الغضب (1)، والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب، وذلك من صفات المؤمنين، وقد وصف الله تعالى نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (2)، قال الحسن البصري: هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله به، هذا ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل، ومعرفة ربه بالعظمة والكمال، ومن عرف نفسه بالذل، وعرف ربه بالكمال، كيف يليق به الترفع والتكبر، ولذا فإن إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعداً عن رحمة الله وعن الدين (3).

ومنها (ثامناً) ولم يكن عصياً: والعصي أبلغ من العاصي، كما أن العليم أبلغ من العالم، والمراد المبالغة في النقي، لا نفي المبالغة، وقيل:

عصياً: مخالفاً أمر مولاه عز وجل، وقيل: عاقاً لأبويه، ويقول الطبري: ولم يكن جباراً عصياً، أي لم يكن مستكبراً عن طاعة الله وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه، متواضعاً متذللاً، يأتمر لما أمر به، وينتهي عما نهى عنه، لا يعصي ربه ولا والديه (4).

ومنها (تاسعاً) «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً» وفيه أقوال، أحدهما: قال الطبري: وأمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان

ص: 265

- 
- 1- تفسير روح المعاني 73/16.
  - 2- سورة آل عمران: آية 159، وانظر: تفسير الطبري 150/4 - 153، تفسير ابن كثير 628/1 - 630 تفسير روح المعاني 105/4 - 106، في ظلال القرآن 500/1 - 501، تفسير النسفي 1/191.
  - 3- تفسير الفخر الرازي 193/21.
  - 4- تفسير الطبري 58/16.

من السوء بما ينال به بني آدم، و ثانيها: قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه، و يوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط، و يوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى عليه الصلاة و السلام، فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة، و ثالثها: قال عبد الله بن نبطويه: «و سلام عليه يوم ولد»، أي أول ما يرى الدنيا، و «يوم يموت» أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة، و «يوم يبعث حيا» أي أول يوم يرى فيه الجنة و النار، و هو يوم القيامة، و إنما قال «حيا» تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى: **بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**، و قال ابن عطية: الأظهر أن المراد بالسلام: التحية المتعارفة و التشريف بها، لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف و الحاجة و قلة الحيلة و الفقر إلى الله عز و جل، و روى ابن جرير في التفسير بسنده عن قتادة أن الحسن البصري قال: «إن يحيى و عيسى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني، فقال الآخر: استغفر لي، أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، و سلم الله عليك، فعرف و الله فضلها (و رواه الإمام أحمد في الزهد عن الحسن أيضا، كما ذكره الألويسي في روح المعاني) (1).

### استشهاد يحيى عليه السلام: -

ترجع المصادر النصرانية قتل يحيى عليه السلام، و هو يوحنا المعمدان عندهم، إلى أن «هيرودوس أنتباس» (6-39 م) حاكم اليهودية من قبل الرومان، أراد أن يتزوج من «هيروديا» امرأة أخيه «فيلبس»، إلا أن يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) أفتى بعدم الزواج لأنها لا تحل له، و من ثم فقد قرر هيرودوس التخلص منه، إلا أنه خشي غضب القوم الذين كانوا

ص: 266

---

1- تفسير الطبري 16/58-59، تفسير روح المعاني 16/74، تفسير الفخر الرازي 21/193-194، تفسير النسفي 3/30.

يعتقدون في نبوة يحيى عليه السلام، ولهذا فقد اكتفى بإلقائه في غياهب السجن، و تنتهز «هيروديا» فرصة الاحتفال بعيد ميلاد هيرودوس، و تتفق مع ابنتها «سالومي» على أن ترقص شبه عارية لعمها الملك، و حين تنتهي من رقصتها، ويفتن الملك بها، تطلب منه رأس يحيى على طبق، و تفعل سالومي ما أشارت به أمها، و يضطر هيرودوس إلى تنفيذ رغبة ابنة أخيه، بناء على وعد منه أن يعطيها ما تريد، أيا كان الذي تريد، و من ثم يأمر بقتل يحيى فوراً بالسيف و أن يؤتي برأسه على طبق ليكون هذا ختام الاحتفال، ثم يقدم الرأس الشريف إلى الداعرة سالومي التي قدمته بدورها إلى أمها، و عندئذ يسرع تلاميذ يحيى فيرفعوا الجسد و يدفنوه، ثم يخبروا السيد المسيح بالمأساة المروعة (1).

و الأمر بهذه الصورة يحتاج، فيما أرى إلى وقفة، (فأولاً) ليس هناك من ريب في أن سيدنا يحيى عليه السلام، و هو الذي يسميه النصارى يوحنا المعمدان، نبي من أنبياء الله المصطفين الأخيار، كما جاء في ذلك في القرآن الكريم، و كما رأينا من

ص: 267

---

1- أنظر: إنجيل متى 14/3-12، إنجيل مرقس 6/16-30، تاريخ يوسفوس ص 214، قاموس الكتاب المقدس 1011/2، فيلب حتى: المرجع السابق ص 420-422، عبد الرازق نوفل: يوحنا المعمدان- القاهرة 1977 م ص 61-68، و كذا، yranoitciD elbiB، 1970، p. 472، F. M reGNU, s'regnU- ثم قارن: ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/301-302، تاريخ الطبري 1/585-593، تاريخ ابن خلدون 2/172، مروج الذهب للمسعودي 1/75-76، غير أن المراجع العربية مضطربة في تأريخها لهذه الفترة، حتى أنها تذهب إلى أن الله تعالى قد سلط على اليهود «بختنصر» (نبوخذ نصر 605-562 ق.م) جزاء وفاقاً لما ارتكبه في حق النبي الكريم يحيى عليه السلام، و أنه قتل منهم سبعين ألف رجل و امرأته، هذا مع العلم بأن تاريخ «نبوخذ نصر» أصبح الآن من الحقائق التاريخية المسلم بها، و هو أنه كان يعيش في أواخر القرن السابع، و حتى عام 562 من القرن السادس قبل الميلاد، و أن سيدنا يحيى كان يعيش بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون و نصف القرن، حيث أنه عاصر المسيح عليه السلام.

قبل، وليس كما يقول إنجيل متى «لأنه كان عندهم مثل نبي» (1) أو أنه «رجل بار وقديس» كما يقول إنجيل مرقس (2)، (و ثانيا) لما ذا يمنع يوحنا المعمدان (3) هذا الزواج، و مبلغ علمي أن التوراة، والتي كان على شريعتها كل من هيرودوس و هيروديا، لا تمنع ذلك الزواج، بل تفرضه على المؤمنين بها، بل إنها إنما تفرض كذلك أن ينسب الأبناء من هذا الزواج الجديد إلى الأخ المتوفي (4) و إذا كان ذلك صحيحا فإن التفسير الآنف الذكر للحدث الخطير المحزن إنما هو تفسير أناجيل النصارى، و ما كان هيرودوس نصرانيا، إنما كان ملكا يهوديا أدوميا على مملكة أدومية يهودية، فالتاريخ حتى تلك اللحظة ما كان يتعامل مع ملوك أو حتى شعوب نصرانية، كما أن يحيى عليه السلام لم يكن نصرانيا حتى يفتى بشريعة النصارى، بل إن السيد المسيح نفسه لم يكن حتى ذلك الوقت قد بعث رسولا نبيا، وبالتالي لم يكن يحكم بشريعة الإنجيل، و من ثم فلا بد أن يكون هناك سبب آخر يمنع هذا الزواج، و هنا نجد رواية تذهب إلى أن هيرودوس إنما كان قد ألقى بأخيه فيلبس، زوج هيروديا، في غياهب السجون، ثم أمر به فقتل، ثم أراد أن يتزوج من امرأته، و لعل هذا هو السبب في ثورة النبي الكريم على هذا الزواج و معارضته بشدة (5).

على أن المراجع العربية إنما تقدم روايات تختلف عن الرواية السابقة، فتذهب في أسباب قتل يحيى عليه السلام إلى أن ملك دمشق وقت

ص: 268

- 
- 1- متى 5/14.
  - 2- مرقس 6/20.
  - 3- يسمى النصارى يحيى عليه السلام «يوحنا المعمدان»، فأما يوحنا فهو اسمه، و أما المعمدان، فلأنه، طبقا لما جاء في الأناجيل، إنما كان يعمّد القوم، أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا، و قد عمّد يحيى السيد المسيح نفسه (متى 3/1-16).
  - 4- سفر التكوين 6/38-11.
  - 5- محمد بيومي مهران: إسرائيل 1147/2-1149.

ذاك أراد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له أن يتزوجها، فنهاه يحيى عن ذلك، فتبقى في نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله، وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها، فيقال إنها هلكت من فورها و ساعتهها، وقيل بل أحبه امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله و أحضر إليها رأسه ودمه في طشت.

و أما مكان قتله، فذهب فريق إلى أنه قتل على الصخرة التي بيت المقدس، و ذهب فريق آخر إلى أنه قتل في دمشق، و تذهب رواية لابن عساكر عن قاسم مولى معاوية إلى أن «هداد بن هداد» ملك دمشق كان قد زوج ابنه بابنة أخيه «أريل» ملك صيدا، فحلف بطلاقها ثلاثا ثم أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال له: لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك، فحققت عليه و سألت الملك رأس يحيى، و ذلك بإشارة من أمها، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك، و بعث إليه و هو قائم يصلي في مسجد حبرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته إلى أمها، و هو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدي أمها خسفت بها الأرض إلى قدميها، ثم إلى حقويها ثم إلى منكبها، فأمرت أمها بقطع رأسها لتتسلى برأسها، فلفظت الأرض جثتها، و لم يزل دم يحيى يفور حتى قدم «بخت نصر» (نبوخذ نصر) فقتل عليه خمسة و سبعين ألفا، ثم ما زال الدم يفور حتى وقف عنده إرميا النبي، فقال: أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن ياذن الله، فسكن فرجع السيف، و هرب نبو هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم نبوخذ نصر إليها فقتل منهم خلقا كثيرا لا يحصون كثرة، و سبى منهم ثم رجع عنهم (1).

ص: 269



وهذه الروايات، وإن كان فيها بعض الشبه من رواية الأناجيل، ففيها كذلك بعض نقاط ضعف، منها (أولا) أن يحيى عليه السلام إنما كان من أنبياء بني إسرائيل، ولم يكن أبدا من أنبياء الآراميين سكان دمشق، وبنو إسرائيل لم يكونوا في دمشق، وإنما كانوا في فلسطين، وبالتالي فإن حادث مقتل النبي الكريم إنما كان في بيت المقدس ولم يكن في دمشق، ومنها (ثانيا) أن دمشق كانت على أيام يحيى عليه السلام، بل وبالتحديد منذ عام 64 قبل مولد المسيح، مستعمرة رومانية، وبالتالي فلم يكن بها ملك، وإنما كان بها وال روماني (1)، ومنها (ثالثا) أن «هدد» (بنحدد) إنما كان ملك الآراميين في دمشق، وذلك في القرن التاسع قبل الميلاد، وقد اشترك في موقعه «قرقر» عام 853 ق. م ضد الملك الأشوري «شلمنصر الثالث (859-824 ق. م)، إلى جانب «أخاب» ملك إسرائيل وغيره من حكام ولايات سورية وفلسطين، ومن ثم فهو قد عاش قبل عهد يحيى عليه السلام بأكثر من ثمانية قرون، ومنها (رابعا) أن حاكم دمشق، أيا كان اسمه، لم يكن أبدا أخا لملك صيدا، فالأولى ولاية آرامية، والثانية فينيقية، ومنها (خامسا) ما أشرنا إليه من قبل من أن عهد يحيى عليه السلام إنما كان بعد عهد «بخت نصر» (نبوخذ نصر).

ص: 270

1- افتتح القائد الروماني «بومبي» (yepmoP) مدينة دمشق عام 64 ق. م، وفي عام 63 ق. م، وفي يوم سبت احتل مدينة القدس ودمر حصونها وقتل رجالها، وبذا أصبحت كل من دمشق والقدس ولاية رومانية ثم سرعان ما بدأ «بومبي» تنظيماته الجديدة، فأدخل سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد هو «ولاية سورية» (airyS aicnivorP) وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية القديمة وأصبحت عاصمتها «أنطاكية»، بينما جعلت «قلقيا» ولاية قائمة بذاتها، وأبقت اليهودية ولاية خاضعة ضمن إطار ولاية سورية، وبعد فترة منحت المدن ذات الدساتير اليونانية حرية داخلية في ظل حكام الولايات الرومان، وشكلت عشرة من هذه المدن اتحادا عرف باسم «الديكابوليس» ثم انضمت إليها مدن أخرى فيما بعد، وعلى أية حال فلقد ظلت سورية وفلسطين، طوال عصر مجد الامبراطورية الرومانية مجرد ولايات رومانية (أنظر: التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1136/2-1139).

605-562 ق.م) بأكثر من خمسة قرون ونصف القرن، ومن ثم فلا علاقة بين الحادثين.

ومنها (سادسا) أن فتوى يحيى عليه السلام بشأن المرأة التي طلقها زوجها ثلاثا، بأنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، إنما هي فتوى إسلامية على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، وليس الأمر كذلك في شريعة موسى، كما جاءت في التوراة المتداولة اليوم، وليس لدينا غيرها عن شريعة موسى (إلا بنص من الكتاب أو السنة يبطل هذا الحكم) وقد كان يحيى يفتي بشريعة التوراة، والتي اشترطت في الطلاق أن يعطي الرجل امرأته المطلقة وثيقة تسريح، ثم لها بعد ذلك أن تتزوج من غيره ولكنها لا تعود إلى زوجها الأول، إذا ما طلقت من زوجها الثاني أو حتى في حالة وفاة هذا الزوج الثاني (1)، تقول التوراة في سفر التثنية «إذا أخذ الرجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو مات الرجل الآخر الذي اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست» (2).

بقيت الإشارة إلى أن سيدنا يحيى عليه السلام، وقد عاصر المسيح عليه السلام، فإنه من ثم يكون قد عاش على أيام القيصر «أوغسطس» (27 ق.م - 14 م) والقيصر «تيريوس» (14 - 37 م)، كما عاصر من حكام القدس من قبل الرومان «هيرودوس الكبير» (37 - 4 ق.م) وولده «أرخيلاس» (4 ق.م).

م- 6 م) ثم ولده الثاني «هيرودوس أنتيباس» (6 - 39 م)، ومن الحكام العرب من الأنباط «الحارث الرابع» (9 ق.م - 40 م).

ص: 271

1- أنظر عن الزواج والطلاق في التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل 4/ 239-286).

2- تثنية 1/ 24-4.







تذهب الروايات إلى أن «حنة» امرأة عمران، وأم مريم البتول كانت قد أمسك عنها الولد حتى أسنت، وكانوا أهل بيت من الله، جل ثناؤه، بمكان، فبينما هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخا له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولدا، فحملت مريم، وهلك عمران أثناء الحمل، فلما عرفت أن في بطنها جنينا، جعلته لله نذيرة، والنذيرة أن تعبده لله فتجعله حبسا في الكنيسة، لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا (1)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (2)، وكانت حتى تظن أن ما في بطنها ذكرا، ذلك لأن الذكر (3) أقوى على الخدمة

ص: 275

1- تفسير الطبري 3/235، وانظر: تفسير أبي السعود 1/230، تفسير النسفي 1/155، روح المعاني 3/133.

2- سورة آل عمران: آية 35.

3- كانت المرأة اليهودية المقالات تنذر لربها، إن رزقت أطفالا وعاشوا، فإنها تهب أكبرهم للإله (يهوه)، ومن ثم يصبح هذا الطفل خادما للكهنة وحارسا للمعبد، وربما يصبح كاهنا، كما يمكن اقتداء الطفل بدفع مبلغ من المال للمعبد (لاويون 1/27-8)، وطبقا لرواية التوراة في سفري الخروج وصموئيل أول، فقد جندت بعض النساء للخدمة، عند باب خيمة الاجتماع، غير أن هذين النصين إنما هما تعديل لاحق، كما أنهما ليسا واضحين، وإن كانت روايتهما عن خدم المعبد والأشخاص المتدينين الذين يعيشون بداخله، أو النساء المتدينات المشتركات في الأعياد (أنظر: P, tic-، 1929). B. A 356. p، siraP, learsI'd noitasiliviC al ed eriotSiH, telohtre. A 449- 448 po, sdoL. و كذا.

وأقوم بها، وأن الأثنى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعترضها من الحيض والنفاس (1)، ومن ثم فإن النذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان ليخدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل، ولكن «حنة» رزقت بأثنى، ومن ثم فهي تتوجه إلى ربها في نعمة أسيفة: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (2)، وهكذا تودع الأم هديتها بين يدي ربها وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به وذريتها من الشيطان الرجيم، وهذه كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص، فما تود لوليدتها أمرا خيرا من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم (3) واستجاب الله لها فأعادها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلا، أخرج الشيخان، البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولد يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه صارخا، إلا مريم وابنها»، و في رواية: «ما من ولد يولد، إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا من مسة الشيطان، إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة:

اقرأوا إن شئتم: «وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» (4)، وهكذا قبل الله تعالى نذر حنة، قال تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا

ص: 276

1- تفسير الطبري 3/ 237.

2- سورة آل عمران: آية 36.

3- في ظلال القرآن 1/ 392-293 (بيروت 1982).

4- صحيح البخاري 6/ 42، صحيح مسلم 7/ 96-97، وانظر روايات أخرى للحديث الشريف في: تفسير الطبري 3/ 238-240، تفسير روح المعاني 3/ 137، تفسير ابن كثير 1/ 538-539، تاريخ ابن خلدون 2/ 168-169.

حَسَنًا (1) جزء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر، وإعداد لها أن تستقبل نفخة الروح وكلمة الله، وأن تلد عيسى عليه السلام، على غير مثال من ولادة البشر (2).

هذا وقد روى عن ابن عباس، حبر الأمة و ترجمان القرآن، أن حنة لما وضعت مريم خشيت أن لا تقبل الأثى محررة، فلفتها في خرقة و وضعتها في بيت المقدس عند القراء، فتساهم القراء عليها لأنها كانت ابنة إمامهم، أيهم يأخذها (3)، فقال زكريا، وهو رأس الأحبار: أنا آخذها وأنا أحقهم بها لأن خالتها عندي، فقالت القراء: ولكننا نتساهم عليها فمن خرج سهمه فهو أحق بها، فدعوا بأقلامهم التي يكتبون بها الوحي و جمعوها في موضع ثم غطوها، وقال زكريا لبعض من الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم ممن في بيت المقدس:

أدخل يدك فأخرج، فأدخل يده فأخرج قلم زكريا، فقالوا: لا نرضى ولكن نلقي الأقلام في الماء فمن خرج قلمه جرية الماء ثم ارتفع فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم في نهر الأردن فارتفع قلم زكريا في جري الماء، فقالوا: نقترع الثالثة: فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم فجرى قلم زكريا مع الماء و ارتفعت أقلامهم في جرية الماء، وقبضها عند ذلك زكريا (4)، ويقول الفخر الرازي أن المراد بالأقلام التي يكتبون بها التوراة و سائر كتب الله تعالى، و كان القراع على أن كل من جرى قلمه عكس الماء، فالحق معه، فلما فعلوا ذلك

ص: 277

1- سورة آل عمران: آية 37.

2- في ظلال القرآن 1/ 393.

3- يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير (46/8): اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعة، فليل لأن عمران أبها كان رئيسا لهم و مقدا عليهم، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها، و قيل لأن أمها حررتها لعبادة الله و خدمة بيته، و قيل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها و أمر عيسى عليه السلام حاصلًا فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا.

4- تفسير روح المعاني 3/ 138.



صار قلم زكريا كذلك، فسلموا الأمر له، وهذا قول الأكثرين (1)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (2)، والنص القرآني يشير إلى حادث لم يذكره العهد القديم، ولا العهد الجديد، المتداولان، ولكن لا بد أنه كان معروفا عند الأحرار والرهبان، حادث إلقاء أقلام سدنة الهيكل، لمعرفة من تكون مريم من نصيبه، والنص القرآني لا يفصل الحادث ربما اعتمادا على أنه كان معروفا لسامعيه، أو لأنه لا يزيد شيئا في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة (3).

وهكذا كفل زكريا مريم أم المسيح عليهم السلام، بعد وفاة أبيها عمران، فقد كان زوجا لخالتها، أو أختها، كما ورد في الصحيح: «إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»، وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير من أنه كان زوجا لخالتها، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها، امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال صلى الله عليه وسلم: «الخالة بمنزلة الأم» (4)، وعلى أية حال، فلقد اتخذ زكريا لمريم محرابا، والمحراب مقدم كل مسجد ومصلي، وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها، وكذلك هو من المساجد، أو هو المكان الشريف من المسجد، لا يدخله عليها أحد سواه، وقد شاء الله أن يطلعه على كرامة مريم وجليل قدرها، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى:).

ص: 278

1- تفسير الفخر الرازي 45/8.

2- سورة آل عمران: آية 44.

3- في ظلال القرآن 1/396.

4- تفسير ابن كثير 1/539 (بيروت 1986).

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (1)، روى الطبري عن السدي قال: جعلها زكريا معه في بيت، وهو المحراب، فكان يدخل عليها في الشتاء، فيجد عندها فاكهة الصيف، ويدخل في الصيف فيجد عندها فاكهة الشتاء، وعن ابن عباس قال: وجد عندها ثمار الجنة، فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف (2).

وروى الحافظ أبو يعلي عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئا، فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء آكله فأني جائع، فقالت: لا، بأبي أنت وأمي، فلما خرج من عندها، بعث إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها، وقالت: والله لأؤثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعا محتاجين إلى شعبة طعام، فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها، فقالت: بأبي أنت وأمي، قد أتى الله بشيء فخباته لك، قال: هلمي يا بنية، قالت فأتيته بالجفنة، فكشفت عنها، فإذا هي مملوءة خبزا ولحما، فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصليت على نبيه، وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه حمد الله وقال: من أين لك هذا يا بنية، قالت يا أبت: «هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»، فحمد الله وقال: الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا وسئلت عنه قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي، ثم أكل رسول).

ص: 279

1- سورة آل عمران: آية 37.

2- تفسير الطبري 3/ 245-246 (بيروت 1984).

اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكَلَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَجَمِيعُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ حَتَّى شَبِعُوا جَمِيعًا،  
قَالَتْ: وَبَقِيَتِ الْجَفْنَةُ كَمَا هِيَ، فَأَوْسَعَتْ بِبَقِيَّتِهَا عَلَى جَمِيعِ الْجِيرَانِ، وَجَعَلَ اللّٰهُ فِيهَا بَرَكَةً وَخَيْرًا كَثِيرًا (1).

وَهَكَذَا نَشَأَتْ مَرْيَمُ الْبَتُولُ عَلَى الطَّهَارَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْبَعْدَ عَنِ الدَّنَسِ وَرِذَائِلِ الْأُمُورِ، قَالَ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهُ اصْطَفَاكِ  
وَطَهَّرَكِ وَاصَّ طَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (2)، وَيَقُولُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: (3) اعْلَمْ أَنَّ  
الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

أَوَّلًا هُوَ الْاصْطِفَاءُ، وَثَانِيًا التَّطْهِيرُ، وَثَالِثًا الْاصْطِفَاءُ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَلا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْاصْطِفَاءُ الْأَوَّلُ مِنَ الْاصْطِفَاءِ الثَّانِي، لِمَا أَنَّ  
التَّصْرِيحَ بِالتَّكْرِيرِ غَيْرِ لَائِقٍ، فَلَا بَدَّ مِنْ صَرْفِ الْاصْطِفَاءِ الْأَوَّلِ إِلَى مَا اتَّفَقَ لَهَا مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ فِي أَوَّلِ عَمَرِهَا، وَالْاصْطِفَاءِ الثَّانِي إِلَى مَا  
اتَّفَقَ لَهَا فِي آخِرِ عَمَرِهَا، وَمِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْاصْطِفَاءِ أُمُورٌ: أَنَّهُ تَعَالَى قَبْلَ تَحْرِيرِهَا، مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ أُنْثَى، وَلَمْ يَحْصُلْ مِثْلَ هَذَا الْمَعْنَى  
لِغَيْرِهَا مِنَ الْإِنَاثِ، وَثَانِيًا: قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ أُمَّهَا لَمَّا وَضَعَتْهَا مَا غَذَّتْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، بَلَّ أَلْقَتَهَا إِلَى زَكْرِيَّا، وَكَانَ رِزْقُهَا يَأْتِيهَا مِنَ الْجَنَّةِ،  
وَثَالِثًا: أَنَّهُ تَعَالَى فَرَّغَهَا لِعِبَادَتِهِ وَخَصَّهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى بِأَنْوَاعِ اللَّطْفِ وَالْعِنَايَةِ وَالصَّحَّةِ، وَرَابِعًا: أَنَّهُ كَفَّاهَا أَمْرَ مَعِيشَتِهَا، فَكَانَ رِزْقُهَا يَأْتِيهَا  
مِنَ عِنْدِ اللّٰهِ تَعَالَى عَلَى مَا قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: أَنِّي لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ، وَخَامِسًا: أَنَّهُ تَعَالَى أَسْمَعَهَا كَلَامَ الْمَلَائِكَةِ شَفَاهَا، وَلَمْ يَتَّفَقْ  
ذَلِكَ لِأُنْثَى غَيْرِهَا، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْاصْطِفَاءِ الْأَوَّلِ، وَأَمَّا التَّطْهِيرُ فَفِيهِ وَجُوهٌ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى طَهَّرَهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَثَانِيًا:

أَنَّهُ طَهَّرَهَا عَنِ مَسِيْسِ الرِّجَالِ، وَثَالِثًا: طَهَّرَهَا مِنَ الْحَيْضِ، قَالُوا كَانَتْ

ص: 280

1- تفسير ابن كثير 1/ 539-540، تفسير روح المعاني 3/ 141.

2- سورة آل عمران: آية 42-43.

3- تفسير الفخر الرازي 8/ 43.

مريم لا تحيض، و رابعها: طهرها من الأفعال الذميمة و العادات القبيحة، و خامسها: طهرها من مقالة اليهود و تهمتهم و كذبهم، و أما الاصطفاء الثاني:

فالمراد أنه تعالى و هب لها عيسى عليه السلام من غير أب، و أنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، و جعلها و ابنها آية للعالمين، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة.

هذا و قد ناقش العلامة الألوسي في تفسيره: «روح المعاني» قضية اصطفاء مريم على نساء العالمين (1)، و قيل على جميع النساء في سائر الأعصر، و استدل به على أفضليتها على السيدة فاطمة الزهراء، و أمها السيدة خديجة، و السيدة عائشة رضي الله تعالى عنهن، و أن ذلك بما أخرجه ابن عساكر في أحد الطرق عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: سيدة نساء أهل الجنة: مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون»، و بما أخرجه ابن جرير عن فاطمة، صلى الله تعالى على أبيها و عليها و سلم، أنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم: أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول».

و أما القول الثاني: فالمراد عالمها، فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها (2)، و يقول ابن كثير: يحتمل أن يكون عالمي زمانها، كقوله تعالى لموسى: إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ، و كقوله عن بني إسرائيل: وَ لَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، و معلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى و أن محمدا صلى الله عليه و سلم أفضل منهما، و كذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها و أكثر عددا و أفضل علما و أزكى عملا من بني إسرائيل و غيرهم (3).

ص: 281

---

1- روى الطبري و ابن كثير عدة أحاديث شريفة في فضل السيدة مريم (تفسير الطبري 1/ 263-264، تفسير ابن كثير 1/ 542-544، البداية و النهاية 2/ 59-63).

2- تفسير روح المعاني 3/ 155.

3- ابن كثير: البداية و النهاية 2/ 59.

و يؤيد الألويسي قوله بأن اصطفاء مريم على نساء عالمها، ولا يلزم منه أفضليتها على الزهراء، بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم و أفضلهن عالما فاطمة»، و ما رواه الحرث بن أسامة في مسنده بسند صحيح، لكنه مرسل «مريم خير نساء عالمها»، و إلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه (أي الإمام محمد الباقر)، و هو المشهور عن أئمة أهل البيت، و الذي أميل إليه (أي العلامة الألويسي): أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات و المتأخرات من حيث أنها بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل و من حيثيات أخرى أيضا، و لا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات و بحيشية من حيثيات، و به يجمع بين الآثار، و هذا شائع على القول بنبوة مريم أيضا، إذ البضعية من روح الوجود و سيد كل موجود صلى الله عليه وسلم لا أرها تقابل بشيء، و أين الثريا من يد المتناول، و من هنا يعلم أفضليتها على عائشة، رضي الله تعالى عنها، الذاهب إلى خلافها الكثير، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء» و قوله صلى الله عليه وسلم:

«فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، و بأن عائشة يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، و فاطمة يومئذ فيها مع زوجها علي، كرم الله تعالى وجهه في الجنة، و فرق عظيم بين مقام النبي صلى الله عليه وسلم و مقام علي كرم الله وجهه.

و أنت تعلم ما في هذا الاستدلال، و أنه ليس بنص على أفضلية الحميراء على الزهراء، أما (أولا) فلأن قصارى ما في الحديث الأول، على تقدير ثبوته، إثبات أنها عالمة إلى حيث يؤخذ منها ثلثا الدين، و هذا لا يدل على نفي العلم المماثل لعلمها عن بضعته الزهراء صلى الله عليه وسلم، و لعلمه صلى الله عليه وسلم أنها لا تبقى بعده زمنا معتدا به يمكن أخذ الدين منها فيه لم يقل فيها ذلك، و لو علم لربما

قال: خذوا كل دينكم عن الزهراء، وعدم هذا القول في حق من دل العقل والنقل على علمه، لا يدل على مفضوليته، وإلا لكانت عائشة أفضل من أبيها، رضي الله تعالى عنه، لأنه لم يرو عنه في الدين إلا قليل، لقلة لبثه وكثرة غائته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن قوله صلى الله عليه وسلم: «إني تركت فيكم الثقلين، كتاب الله تعالى وعترتي، لا يفترقان حتى يردا على الحوض»، يقام مقام ذلك الخبر وزيادة، كما لا يخفي، كيف لا، وفاطمة، رضي الله تعالى عنها، سيدة تلك العترة؟.

و أما (ثانيا) فلأن الحديث الثاني معارض بما يدل على أفضلية غيرها، رضي الله تعالى عليها، فقد أخرج ابن جرير عن عمار بن سعد أنه قال، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين» بل هذا الحديث أظهر في الأفضلية وأكمل في المدح، عند من انجاب عن عين بصيرته عين التعصب والتعسف، لأن ذلك الخبر، وإن كان ظاهرا في الأفضلية، لكنه قيل، ولو على بعد، إن «أل» في النساء فيه للعهد، والمراد بها الأزواج الطاهرات الموجودات حين الإخبار، ولم يقل مثل ذلك في هذا الحديث، و أما (ثالثا) فلأن الدليل الثالث يستدعي أن يكون سائر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، لأن مقامهم بلا ريب، ليس كمقام المحمود صلى الله عليه وسلم فلو كانت الشركة في المنزل مستدعية للأفضلية، لزم ذلك قطعاً، ولا قائل به.

وبعد هذا كله، الذي يدور في خلدي: أن أفضل النساء قاطبة: فاطمة ثم أمها (خديجة) ثم عائشة، بل لو قال قائل إن سائر بنات النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من عائشة، لا أرى عليه بأساً، وعندى بين مريم وفاطمة توقف نظراً للأفضلية المطلقة، وأما بالنظر إلى الحيثية، فقد علمت ما أميل إليه، وقد سئل الإمام السبكي، عن هذه المسألة فقال: الذي نختاره وندين الله تعالى به، أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم أفضل، ثم أمها ثم عائشة، وواقفه في ذلك البلقيني،

وقد صحح ابن العماد أن خديجة أيضا أفضل من عائشة، لما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة، حين قالت: قد رزقك الله خيرا منها، فقال لها: لا والله ما رزقني الله تعالى خيرا منها، آمنت بي حين كذبتني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس، وأيد هذا بأن عائشة أقرأها السلام النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل، وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربها، وبعضهم لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها، وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر الأروشي منا، وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم، وأشكل ما في هذا الباب حديث الثريد، ولعل كثرة الأخبار الناطقة بخلافه تهون تأويله، وتأويل واحد لكثير أهون من تأويل كثير لواحد، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل (1).

ص: 284

---

1- تفسير روح المعاني 3/ 155-156 (دار الفكر- بيروت 1978).

السيد المسيح عيسى بن مريم: اسمه عيسى، ولقبه المسيح، ويكنى ابن مريم، نسبة إلى أمه مريم بنت عمران، وأما سبب تقديم اللقب على الاسم، فذلك، فيما يرى الفخر الرازي، لأن المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفا رفيع الدرجة مثل الصديق و الفاروق، فذكره الله تعالى أولا بلقبه ليفيد علو درجته، ثم ذكره باسمه الخاص، وأما نسبه لأمه، فلأن الأنبياء إنما ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات، فلما نسبه الله تعالى إلى الأم، دون الأب، كان ذلك إعلاما لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سببا لزيادة فضله و علو درجته (1).

وكلمة المسيح عند أهل الكتاب تعني المخلص المنتظر الذي يتم على يديه خلاص الشعب المختار، ومن ثم فقد أطلق على أتباع المسيح لفظ «المسيحيين» تمييزا لهم عن اليهود (2)، وربما تعني كلمة المسيح، الممسوح بزيت البركة، كما كان اليهود يفعلون عند تنصيب ملك جديد (3)، وأما كلمة «يسوع» التي استعملت في الأناجيل فهي الصيغة الهيلينية لكلمة «يشوع»،

ص: 285

1- تفسير الفخر الرازي 50/8.

2- جواد علي: المرجع السابق 585/6.

3- صموئيل أول 1/10.



و هو بالعربية تعني «يهوه هو الخلاص» (1)، على أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه اللفظة اليونانية لم تستعمل في القرآن الكريم، وكذا المؤلفات العربية القديمة، فضلا عن الشعر الجاهلي، فالكلمة على ما يبدو من الكلمات المتأخرة (2)، وإن ذهب بعض علماء المسلمين إلى أن عيسى معرب يشوع ومعناه «السيد» (3).

و أما كلمة المسيح عند المسلمين فهي: لقب من الألقاب المشرفة كالصديق و الفاروق، و أصله مشيحا بالعبرية و معناه المبارك، و قيل بمعنى مسح الله فطهره من الذنوب، و قيل لأنه مسح بالبركة، و عن إبراهيم النخعي بمعنى الصديق، و عن أبي عمرو بن العلاء بمعنى الملك، و عن كثير من السلف أن المسيح مشتق من المسح، و اختلفوا في وجه إطلاقه على عيسى عليه السلام، فقيل لأنه مسح بالبركة و اليمن، و قد روى ذلك عن الحسن البصري و سعيد بن جبير، و عن ابن عباس لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا برئ، و عن الكلبي لأنه كان يمسح عين الأكمة فيبصر، و عن الجبائي لأنه كان يمسح بدهن زيت بورك فيه، و كانت الأنبياء تمسح به، و لا يمسح به غيرهم، و أن هذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيا، و قيل لأن جبريل مسحه بجناحيه وقت الولادة ليكون عوذه من الشيطان الرجيم، و قيل لأنه حين مسح الله تعالى ظهر آدم عليه السلام، فاستخرج منه ذرات ذريته لم يرده (أي المسيح) إلى مقامه كما فعل بباقي الذرات بل حفظه عنده حتى ألقاه إلى مريم قد بقي عليه اسم المسيح أي الممسوح، و قيل لأنه كان مسيح القدمين لا أخصص لهما، و قيل لكثرة سياحته، فقد كان يمسح الأرض بالسياحة لا

ص: 286

1- فيلب حتى: المرجع السابق ص 363.

2- .P, malsI fo yranoitciD, sehguH 431 .

3- تفسير روح المعاني 161 / 3.

يستوطن مكانا، أو لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى، أو لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن (1).

و أما أتباع المسيح فيسمون «النصارى»، و النصارى جمع واحد «نصراني»، بإسقاط الياء فيما يرى «سيوييه»، و الأنتى «نصرانية» و هي نكرة يعرف بالألف و اللام، و ذهب الخليل إلى أن واحد النصارى «نصري» هذا و قد سمع في جمعهم أنصار، و الكلمة ليست عربية أصلية، و إنما معربة عن السريانية من كلمة «نصريو أو نصرايا» على رأي (2)، و من التسمية العبرية «الناصريين» أو «النذيريين» حيث أطلقها اليهود على أتباع السيد المسيح، على رأي آخر (3)، على أن البعض إنما يرى أن للكلمة صلة بالناصرة، بلد المسيح عليه السلام، فعن ابن عباس: إنما سميت النصارى نصارى، لأن قرية عيسى بن مريم كانت تسمى «الناصرة»، و كان أصحابها يسمون «الناصريين» و كان يقال لعيسى «الناصري»، أو نسبة إلى الناصريين إحدى الفرق اليهودية القديمة المنتصرة، أو أنهم سموا النصارى لتناصرهم فيما بينهم، و قد يقال لهم أنصار أيضا، كما قال عيسى عليه السلام: «من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله» (4)، و قد بقي اليهود يطلقون كلمة النصارى على من اتبع دين المسيح، و بهذا المعنى وردت الكلمة في

ص: 287

- 
- 1- تفسير الطبري 270/3 تفسير ابن كثير 545/1، تفسير روح المعاني 161/3، تفسير الكشاف 278/1، صفوة التفاسير 201/1، لسان العرب 594/2، تفسير النسفي 158/1، تفسير الفخر الرازي 49/8-50، تفسير المنار 251/3-252.
  - 2- لسان العرب 68/7، تفسير الطبري 318/1، تفسير القرطبي ص 369، تفسير ابن كثير 156/1، تفسير البحر المحيط 238/1، معاني القرآن للفراء 44/1، أمالي ابن الشجري 79/1، 371، غرائب اللغة ص 207، و كذا.. P, III, IE .848.
  - 3- أعمال الرسل 5/24، و كذا.. ERE, sgnitsaH. J 574. p. 3.
  - 4- تفسير الطبري 318/1، تفسير ابن كثير 156/1.

القرآن الكريم، و من ثم فقد أصبحت النصرانية علما على ديانة المسيح عند المسلمين (1).

و أما النصارى أنفسهم فقد كان القدامى منهم ينظرون إلى السيد المسيح نظرتهم إلى «المعلم»، و من ثم فقد كانوا يسمون أنفسهم «التلاميذ» و «تلاميذ المسيح» (2)، و الأمر كذلك بالنسبة إلى نظرتهم إلى «الحواريين» (و هي لفظة آرامية على رأي، و عربية على رأي آخر، و حبشية على رأي ثالث) (3)، كما دعوا أنفسهم «الأخوة» و «الأخوة في الله»، على أساس أن العقيدة الدينية قد آخت بينهم (4)، ثم سرعان ما أصبحت الكلمة مقصورة على رجال الدين الذين دعوا أنفسهم «القديسين» و «الأخوة المؤمنين في المسيح» و «المقديسين في المسيح يسوع المدعويين قديسين» (5)، هذا و قد عرف النصارى كذلك «بالمسيحيين»، و نقرأ في أعمال الرسل أن «برنابا» قد خرج إلى طرطوس، و هناك التقى بشاؤل حيث جاء به إلى أنطاكية و بقيا هناك عاما يعلمان جمعا غفيرا من الكنيسة و دعي التلاميذ «مسيحيين» في أنطاكية أولا (6)، كما نقرأ أيضا «فقال أغريباس لبولس بقليل تقنعني أن أصير مسيحيا» (7)، و ربما كانت الكلمة نسبة إلى السيد المسيح، هذا و قد أطلق

ص: 288

- 1- سورة البقرة: آية 62، المائدة: آية 18، 51، 69، 82، التوبة: آية 30، الحج: آية 17، و انظر: محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة الإسكندرية 1978 ص 59-70، 103-107.
- 2- , 1936 p. J 192. H. J. SgnitsaH, fo yranoitciD, elbiB.
- 3- الأب لويس شيخو: النصرانية و آدابها بين عرب الجاهلية- بيروت 1933 ص 189، المشرق- السنة السابقة 1904 م ص 620.
- 4- .P, tic- po, sgnitsaH. J 104 .
- 5- أعمال الرسل 15/1-16، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 2/1، 10.
- 6- أعمال الرسل 11/25-26.
- 7- أعمال الرسل 11/26، 26/28، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 4/16، و كذا.. P, tic- po, sgnitsaH. J 127 .

القرآن الكريم على النصارى «أهل الإنجيل» في قوله تعالى: وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (1).

وعلى أي حال، فالمسيح عيسى بن مريم هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين، ويمثل المسيح عليه السلام آخر طور من أطوار الديانة الإسرائيلية، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد جعله الله عز وجل، هو وأمه، آية في ولادتهما ونشأتهما، قال تعالى:

وَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (2)، يقول الرازي: و أما مريم فأياتها كثيرة، أحدها: ظهور الحبل فيها، لا من ذكر، فصار ذلك آية ومعجزة خارقة عن العادة، وثانيها:

أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة، وهو قوله تعالى: أَنَّى لَكَ هَذَا، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، و ثالثها ورابعها: قال الحسن البصري: إنها لم تلتم ثديا يوما قط، و تكلمت هي أيضا في صباها، كما تكلم عيسى عليه السلام (3)، و أما آيات عيسى عليه السلام، فسوف نتحدث عنها بالتفصيل في مكانها من هذه الدراسة، و يقول تعالى: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً، وَ أَوْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ (4)، أما الآية فهي آية غير مسبوقة و لا ملحوقه (أعني ولادة مريم للمسيح من غير مسيس)، آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعا، ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لتأمل البشرية في أجيالها

ص: 289

1- سورة المائدة: آية 47.

2- سورة الأنبياء: آية 91.

3- تفسير الفخر الرازي 218/22.

4- سورة المؤمنون: آية 50.

جميعا، و تدرك يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس (1).

وأما الربوة المشار إليها في الآية الكريمة، فقد اختلفت الروايات في تحديدها، بين مصر و دمشق و بيت المقدس (2)، ورغم أنه ليس المهم تحديد موضعها، وإنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء لمريم و ابنها في مكان طيب، ينضرب فيه النبات، و يسيل فيه الماء، و يجدان فيه الرعاية و الإيواء (3)، و على آية حال، فلقد ذهبت رواية الإنجيل إلى أنها مصر (4)، و إلى هذا ذهب الطبري في التاريخ (5)، و كذا ابن خلدون الذي يرى أنهما أقاما بمصر اثني عشر سنة (6)، و كذا ابن كثير الذي يروي عن وهب بن منبه أن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا (بيت المقدس) فقدم عليه يوسف ابن خال أمه، فحملها على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا، و أقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل و علمه التوراة و أعطاه إحياء الموتى و إبراء الأسقام و العلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، و تحدث الناس بقدومه و فرعوا لما كان يأتي من العجائب فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره (7)، و كذا ذهب اليعقوبي و ابن الأثير في تاريخهما، و الألوسي في تفسيره، إلى أنها مصر (8).

ص: 290

- 1- في ظلال القرآن 4 / 2395.
- 2- أنظر: تفسير الطبري 18 / 26-28، تفسير روح المعاني 18 / 37-39، تفسير ابن كثير 3 / 394-395، تفسير النسفي 3 / 121، تفسير الفخر الرازي 23 / 102-103.
- 3- في ظلال القرآن 4 / 2469.
- 4- إنجيل متى 2 / 13-15.
- 5- تاريخ الطبري 1 / 597.
- 6- تاريخ ابن خلدون 2 / 172.
- 7- ابن كثير: البداية و النهاية 2 / 77.
- 8- تاريخ اليعقوبي 1 / 69، الكامل لابن الأثير 1 / 178، تفسير روح المعاني 18 / 38-39.

وأي كان مكان هذه الربوة، فما يهمننا الآن الإشارة إلى أن الشعب الإسرائيلي في ذلك الوقت إنما كان قد فقد الروح الديني الصحيح، وجمد على الطقوس والمراسيم وأشكال العبادة، وارتكب الجرائم المروعة التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها (1)، فأراد الله أن يهز في هذا الشعب ما جمد من عواطفه، ويحرك فيه المعاني الروحية التي نسيها، فأجرى له ثلاث آيات كبار، جاءت متتابعة متقاربة، الأولى في ولادة مريم، والثانية في ولادة يحيى، وأما الثالثة فكانت في ولادة المسيح، وذلك أن مريم البتول ما أن بلغت مبلغ النساء، حتى أراد الله أن يجعل لها من الكرامة ما لم يتيسر لغيرها من نساء العالمين، فهياً لها الحمل دون تتوافر لها أسبابه، وذلك بأن جاءها جبريل، في أرجح الآراء، في صورة فتى غض الشباب فتملكها الرعب والخوف، وظنت أنه يريد بها سوء، ومن ثم فهي تنتفض منه انتفاضة العذراء يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستشير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتخرج من رقابته في هذا المكان الخالي «قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً»، فالتقى ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان (2).

وروى عن ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوى الخلقة (3)، قال المفسرون: إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولوبدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودل على عفافها ورعها أنها تعودت بالله من تلك الصورة الجمالية الفائقة في الحسن (4)، ويقول الفخر الرازي إن في

ص: 291

1- أنظر: سورة آل عمران: آية 36، النساء: آية 160-161.

2- في ظلال القرآن 4/2305.

3- زاد المسير 5/217.

4- تفسير البحر المحيط 6/180، تفسير النسفي 3/31.

قوله تعالى: قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا وَجْهَهُ، أحدها:

أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله و يحصل ذلك بالاستعاذة بالله، فإني عائذة به منك، وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي، وهو كقوله: وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، أي أن شرط الإيمان يوجب هذا، لا أن الله يخشى في حال دون حال، و ثانيها: أن معناه ما كنت تقيا حين استحلت النظر إلي و خلوت بي، و ثالثها: أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه «تقيا» يتبع النساء فظنت مريم أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي، و الأول هو الوجه (1)، و من ثم ذهب الألوسي إلى أن من قال إن «تقيا» اسم رجل صالح أو حتى طالح، ليس بسديد (2).

و على أية حال، فلقد أخبرها جبريل عليه السلام أن الله تعالى أرسله إليها ليهب لها غلاما زكيا، يكون له شأن عجيب، و يهبه الله النبوة و الحكمة و حينئذ تملكها العجب، و أدركتها شجاعة الأثني المهددة في عرضها، فتسأل في صراحة أئني يكون لي غلامٌ و لم يمسنني بشرٌ و لم أك بغياً، و يبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاما، إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر و الأثني، و هذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري، قال كذلك قال ربك هو علي هينٌ و لنجعلهُ آيةً للناسِ و رحمةً منا (3). و في سورة آل عمران تفصيل أكثر عن الغلام المبشر به قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم و جيباً في الدنيا و الآخرة و من المقربين، و يكلمهم الناس في المهدي و كهلاً و من الصالحين (4)، و هكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح

ص: 292

1- تفسير الفخر الرازي 197/21 - 198.

2- تفسير روح المعاني 77/16.

3- سورة مريم: آية 20-21، في ظلال القرآن 4/2306.

4- سورة آل عمران: آية 45-46، و انظر: تفسير الطبري 3/269-273، تفسير ابن كثير 1/545، تفسير النسفي 1/158، تفسير روح المعاني 3/159-164، تفسير الفخر الرازي 8/46-52، تفسير الكشاف 1/277-278، تفسير القرطبي ص 1330-1331، تفسير المنار 3/249-255، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 1/182-183.

عيسى ابن مريم، فتضمنت البشارة نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه، وظهر من هذا النسب أن مرجعه لأمه، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه وحيهاً في الدنيا والآخرة ومن المُقَرَّبِينَ، كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، ولمحة من مستقبله «و كهلاً»، وسمته والموكب الذي ينتسب إليه «و من الصالحين»، فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بما لوف البشر في الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت إلى ربها تناجيه وتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي يحير عقل الإنسان: أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ نَبِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب وتزول الحيرة ويطمئن القلب، وهكذا كان القرآن يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة، ويقر الأمر في القلوب وفي العقول سواء (1).

وعلى أية حال، فليس هناك من ريب في أن ولادة المسيح عيسى بن مريم، على هذا الوضع العجيب آية بالغة على كمال قدرة الله على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، يقول ابن كثير: فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه (2)، وعلى هذا المنوال الأخير من الخلق (أي من ذكر وأنثى) جرت سنة الله التي وضعها لا امتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في

ص: 293

1- في ظلال القرآن 1/ 398.

2- تفسير ابن كثير 3/ 187.



جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر و أنثى متميزان، تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير و التأنيث، جرت هذه السنة أحقابا طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة، و نسوا الحادث الأول، حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس، فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى بن مريم عليه السلام، ليذكرهم بحرية القدرة و طلاقة الإرادة، و أنها لا تحبس داخل النواميس التي تختارها، و لم يتكرر حادث عيسى، لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله، و أن ينفذ الناموس الذي اختاره، و هذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلما بارزا على حرية المشيئة، و عدم احتباسها داخل حدود النواميس و لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ، و نظرا لغرابة الحادث و ضخامته، فقد عزّ على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته و أن تدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تضيفي على عيسى بن مريم عليه السلام، صفات الألوهية، و تصوغ حول مولده الخرافات و الأساطير، و تعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب، و هي إثبات القدرة الإلهية التي لا نتقيد، تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد (1)، بينما تدنت آراء أخرى إلى الحضيض، فاتهمت الطاهرة البتول بما هي منه براء.

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه من البشارات التي جاءت في الإنجيل عن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم قول المسيح عليه السلام: «ذاك يمجدني» (2)، و القرآن الكريم، كما رأينا من قبل، حافل بآيات الدفاع عن السيد المسيح و أمه الطاهرة البتول، و دفع الشبهات عنه بالحجة البالغة، و الاعتراف به عبدا لله تعالى، و رسولا إلى بني إسرائيل، و قد أيدته الله تعالى بالإنجيل و الروح القدس، و من البدهي أنه ليس هناك من تمجيد، أرفع، و لا

ص: 294

1- في ظلال القرآن 4/ 2304-2305.

2- إنجيل يوحنا 14/16.

دفاع أقوى وأشرف، مما جاء في كتاب الله الكريم- القرآن الكريم (1)- من ثناء و تقدير و تكريم للسيد المسيح عليه السلام، و تبرئه لعرضه، و عرض أمه مريم الطاهرة البتول العذراء مما اتهمها به اليهود (2)، من ذلك قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

ص: 295

1- أنظر مثلا: سورة آل عمران: آية 35-37، 42-51، سورة مريم: آية 16-35.

2- يروى التلمود أن يسوع الناصري (و حاشاه أن يكون كما وصفه اليهود كذبا و افتراء) ارتد عن ديانة اليهود و عبد الأوثان، و كل مسيحي لم يتهود فهو و ثني عدو لليهود، كما يسمى التلمود السيد المسيح «ابن البخار» (ربما يقصد اليهود يوسف البخار خطيب السيدة مريم الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل) على نحو ما كان اليهود يطلقون عليه أثناء حياته، و يصفه بأنه كان ساحرا و وثنيا و مجنونا و كافرا لا يعرف الله، و من ثم فإن المسيحيين إنما هم كفرة مثله، و أن الطقوس الدينية المسيحية نوع من عبادة الأصنام، و أن أمه مريم قد أتت به من العسكري الروماني «باندارا» بمباشرة الزنا. و يشير اليهود إلى «يوسف باندارا» الذي عاش في الجليل، و عرف بالفسق و الفجور، إلى جانب شكله الحسن، ثم أقدم على التغير بالفتاة «ميريام» (مريم) ابنة الأرملة، و هناك كتاب يهودي يحكي القصة بأكملها، و يرجع تاريخه إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي، استخدمه اليهود في الهجوم على المسيحية و تحقيرها و يسمى «سفر حياة يسوع» (L fo efiL tsirhC fo frodtlA eanataS aengI aleT, liesnegeW hpotsirhC nnshoJ) و يبدو أن الكتاب قد وقع في أيدي الكنيسة في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، و قد نشر الراهب الدومينيكي «ريموند مارتن» (1225-1284 م) بعض من مقتطفات من «سفر حياة يسوع» دون ذكر اسمه في مقدمة كتابه «خنجر الإيمان أو سيف الدين»، (soeaduJ te soruaM susrevdA iediF oiguP, nitraM dnumyaR) الذي نشره للدفاع عن الدين المسيحي ضد تحديات اليهود و أكاذيبهم المفتراة، ثم قام «مارتن لوثر» (1483-1546 م) زعيم الإصلاح البروتستانتي، بترجمة «سفر حياة يسوع» إلى الألمانية، كما نشره المستشرق الألماني «يوحنا كريستوني فاجنزابل»، فوضع النص اللاتيني مقابل النص العبري في مجموعته الشهيرة التي ضمت العديد من النصوص و الكتابات اليهودية التي تضمنر العداء للمسيحية، ثم عكف على دحض كل ما فيها من تهجمات و افتراءات، (1681 frodtlA eanataS aengI aleT, liesnegeW hpotsirhC nnshoJ) و انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل- الكتاب الثالث- التوراة و التلمود- الاسكندرية 1979 ص 445-451.

العالمين (1)، وهنا يجب أن نلاحظ أمرين: أحدهما: أن القرآن الكريم لم يذكر اسم أية امرأة، إلا مريم بنت عمران، أم المسيح عليهما السلام، والهدف واضح هو ألا يكون في براءتها و طهرها أية ريبة لمستريب، و ثانيهما: أن القرآن الكريم قد أطلق اسمها على سورة من سوره، الأمر الذي لم يحدث لغيرها من النساء، وفي حاشية الصاوي على الجلالين: قال بعض العلماء: إن الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها، إلا «مريم» هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته، فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس و لينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب له، و لهذا قال تعالى: اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (2).

و يستمر السياق القرآني فيذكر مشهدا جديدا من القصة، يقول تعالى:

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيدًا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسِيًّا مَسِيًّا (3)، و لا يذكر السياق القرآني كيف حملت مريم وليدها المبارك، و لا كم حملته، و هل كان حملا عاديا كما تحمل النساء، و تكون النفخة قد بعثت الحياة و النشاط في البويضة فإذا هي علقه فمضغة فعظام ثم تكسى باللحم و يستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط و النمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، و النفخة تكون قد أدت دور التلقيح فصارت البويضة سيرتها الطبيعية، كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة ألا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتتخصر المراحل اختصارا، و يعقبها تكوين

ص: 296

- 
- 1- سورة آل عمران: آية 42، وانظر: تفسير الفخر الرازي 42/8-44، تفسير الطبري 262/3-264، تفسير ابن كثير 542/1-544، تفسير النسفي 157/1-158، تفسير روح المعاني 154/3-156، تفسير القرطبي ص 1324-1326، تفسير الكريم الرحمن 1/182، تفسير المنار 246/3-247.
  - 2- صفوة التفاسير 1/204.
  - 3- سورة مريم: آية 22-23.

الجنين ونموه و اكتماله في فترة وجيزة، ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين (1)، و من ثم فقد اختلف العلماء في مدة حمل مريم بعيسى على وجوه، الأول: قول ابن عباس أنها كانت تسعة أشهر، كما في سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدانحها في هذا الموضع، فلو كانت عاداتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر، و الثاني: أنها كانت ثمانية أشهر، و لم يعش مولود وضع لثمانية، إلا عيسى بن مريم عليه السلام، و الثالث: قول عطاء و أبي العالية و الضحاك سبعة أشهر، و الرابع: أنها كانت ستة أشهر، و الخامس: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، و صور في ساعة، و وضعته في ساعة، و السادس: قول آخر لابن عباس كانت مدة الحمل ساعة واحدة، ما هي إلا أن حملت فوضعت، و استدل عليه من وجهين، أولهما:

قوله تعالى: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا، و الفاء للتعقيب فدلّت هذه الفاءات على أن كل واحدة من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل، و ذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة، لا يقال انتبأها مكانا قصيا كيف يحصل في ساعة واحدة، لأن السدى فسرها بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها، و ثانيهما: أن الله تعالى قال في وصف عيسى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فثبت أن عيسى كما قاله الله تعالى: كُنْ فَيَكُونُ، و هذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، و إنما تعقل المدة في حق من يتولد من النطفة (2)، و أخيرا فإن «إليان» و أشياعه من النصارى إنما يذهبون إلى أن مريم لم تحبل بعيسى تسعة أشهر، و إنما مرّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، و خرجت من حيث يخرج الولد من

ص: 297

1- في ظلال القرآن 4/ 2306.

2- تفسير الفخر الرازي 21/ 202، تفسير روح المعاني 16/ 79-80 و انظر: تفسير الطبري 16/ 65، تفسير النسفي 3/ 32، تفسير ابن كثير 3/ 188-189، البداية و النهاية 2/ 65-66، الكامل لابن الأثير 1/ 176.

ساعتها (1)، هذا و اختلفوا كذلك في سن مريم يوم حملت بالسيد المسيح، بين أن تكون بنت عشر سنين أو خمس عشرة أو سبع عشرة أو عشرين، وقيل أنها كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال (2).

وأيما كان الأمر، فلقد حملت مريم الطاهرة البتول بالمسيح، كلمة الله وروحه، ثم انتبذت به مكانا قصيا، وقد اختلف المفسرون في المكان الذي انتبذت مريم بعيسى لوضعه، وأجاءها إليه المخاض، فقال بعضهم:

كان ذلك في أدنى أرض مصر، و آخر أرض الشام، و ذلك أنها هربت من قومها لما حملت، فتوجهت نحو مصر هاربة منهم (3)، على أن هناك رواية أخرى، وهي الأرجح، أنها ولدته في «بيت لحم» (4)، و يؤكد أنه أحاديث الإسراء من رواية النسائي عن أنس، و البيهقي عن شداد بن أنس، أن ذلك كان في بيت لحم، و هو المشهور، و لا يشك النصارى أن المسيح ولد في بيت لحم (5)، و في مروج الذهب يقول المسعودي أن مولد المسيح كان في يوم الأربعاء (الثلاثاء عند اليعقوبي) لأربع و عشرين ليلة خلت من كانون الأول (ديسمبر) (6)، و قال ابن العميد، مؤرخ النصارى، فيما يروي عنه ابن

ص: 298

1- في ظلال القرآن 2/ 864.

2- تفسير الفخر الرازي 21/ 201، تفسير النسفي 3/ 32 مروج الذهب للمسعودي 1/ 76، الكامل لابن الأثير 1/ 175.

3- تفسير الطبري 16/ 64 (بيروت 1984).

4- بيت لحم: مدينة على مبعده خمسة أميال جنوب القدس، و قد بنت الامبراطور «هيلانة» حوالي عام 330 م كنيسة هناك فوق المغارة التي يظن النصارى أن المسيح ولد فيها، و هي أقدم كنيسة مسيحية في العالم (قاموس الكتاب المقدس 1/ 205-206 و كذا. P, tic- 140 po, regnU. F. M) و لكن القرآن الكريم يذكر أنه ولد عند جذع نخلة (مريم آية 23) و من ثم فالصحيح أنه ولد عند جذع نخلة أو عند بيت لحم، و ليس في مغارة.

5- تفسير ابن كثير 3/ 189، تاريخ ابن خلدون 2/ 171، و انظر: إنجيل متى 2/ 1-6، لوقا 2/ 4-6.

6- مروج الذهب للمسعودي 1/ 76، تاريخ اليعقوبي 1/ 68.

خلدون، ولد المسيح لثلاثة أشهر من ولادة يحيى بن زكريا، عليهم السلام، وإحدى و ثلاثين من دولة هيرودوس الأكبر، و لاثنتين و أربعين من ملك أو غسطس قيصر (1).

على أن المؤرخين المحدثين إنما يختلفون في تاريخ مولد السيد المسيح، وإن كان الخلاف محصورا في سنوات قلائل، فلقد كان مولد المسيح على أيام أول قياصرة روما «أوغسطس» (27 ق.م - 14 م)، و على أيام «هيرودوس الكبير» (37-4 ق.م) حاكم اليهودية من قبل الحاكم الروماني «بلاطس النبطي»، و على أيام «الحارث الرابع» (9 ق.م - 40 م) ملك الأنباط، هذا و يذهب البعض إلى أن السيد المسيح إنما قد ولد فيما بين عامي 6، 2 قبل الميلاد، بينما يذهب فريق ثان إلى أنه ولد عام 5 قبل الميلاد أو أوائل عام 4 قبل الميلاد، أما الاحتفال بمولده في 25 ديسمبر، فقد بدأ في القرن الرابع الميلادي، و من ثم فرما كان مولده في 25 ديسمبر عام 5 ق.

م، و هذا يجعله سابقا للتاريخ الذي وضعه «ديونيسيوس» في 25 ديسمبر عام 1 م، بخمس سنوات، على أن هناك فريقا رابعا يرى أن مولد المسيح كان في عام 4 م، و أنه رفع إلى السماء في عام 27 م، و ربما في 23 مارس عام 29 م، و هذا يجعله و كأنه عاش 23 سنة أو 25 سنة، مع أن المشهور أنه عاش ثلاثا و ثلاثين سنة، و أخيرا فهناك من يرى أن المسيح عليه السلام إنما بدأ دعوته، و قد ناهز الثلاثين من عمره في عهد الامبراطور «تبريوس» (14-37 م)، و كان حاكم اليهودية من قبل الرومان «هيرودوس أنتيباس» (6-39 م) الابن الثاني لهيرودوس الكبير (2).

ص: 299

1- تاريخ ابن خلدون 171 / 2.

2- ه. ج. ويلز: تاريخ العالم - القاهرة 1967 ص 172 - 416 (مترجم)، فيلب حتى: المرجع السابق 1 / 311 - 312، 263، محمد بيومي مهران: إسرائيل 1 / 359، 2 / 145، و كذا، J, raW hsiweI, III, I, 8, . 8، 3، 5، XV، 6، 4، suhpesoJ، A، seitiuqitn، VIX، ehT

هذا وقد يحدثنا العهد الجديد أن هيرودوس علم أن مجوسا من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم يسألون عن المولود ملك اليهود، و من ثم فقد جمع رؤساء الكهنة وسألهم أين يولد المسيح، فأخبروه أنه يولد في بيت لحم، و من ثم فقد أسرع الطاغية فأمر بقتل جميع الأطفال في بيت لحم وفي كل تخومها، من ابن سنتين فما دونها، و هنا رأى يوسف النجار، فيما يرى النائم، من يأمره بأن يأخذ الصبي و أمه (المسيح و مريم البتول) و أن يلجأ بهم إلى أرض الكنانة، حيث بقوا هناك إلى مات هيرودوس، ثم عادوا من مصر إلى اليهودية، و لكنهم لم يقيموا في بيت لحم وإنما أقاموا في الناصرة بأرض الجليل، خوفا على السيد المسيح من «أرخيلاوس» ابن هيرودوس و خليفته (1).

و أما مكان الولادة فكان، كما جاء في القرآن الكريم، عند جذع نخلة، قال تعالى: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ (2)، و قال الزمخشري في الكشاف: كان جذع نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس و لا ثمر و لا خضرة، و كان الوقت شتاء، و التعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم و الصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره، و إما أن يكون تعريف الجنس، أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة، كان الله قد أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، و لأن النخلة أقل الأشياء صبرا على البرد، و لا تثمر إلا عند اللقاح، و إذا قطعت رأسها تثمر، فكانه تعالى قال: كما أن الأثني لا تلد إلا مع الذكر، فكذا النخلة لا تثمر إلا مع اللقاح، ثم إنني أظهر الرطب من غير لقاح، ليدل ذلك

ص: 300

1- متى 1/2 - 23 و كذا. P, tic- po, regnU. M 471. و كذا. P, tic- po, htoR. C 109.

2- سورة مريم: آية 23.

على ظهور الولد من غير ذكر (1).

وعلى أية حال، فبينما كانت البتول الطاهرة تستند إلى جذع النخلة إبان الوضع: قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (2)، مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها، وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها و ابنها آية للعالمين (3)، و إنما قالت ذلك استحياء من الناس و خوفا من لائمهم، أو حذرا من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها، قال ابن كثير: في الآية دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى و تمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، و لا يصدقونها في خبرها، و بعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، و من ثم قالت و هي تطلق من الحبل استحياء من الناس، فيما يروي عن ابن عباس و السدي، يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، و الحزن بولادتي المولود من غير بعل، و هكذا تمت الموت، و تمني الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه، نعم يكره تمنيه لضرر نزل بالإنسان من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، ففي صحيح مسلم و غيره، قال صلى الله عليه و سلم: لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل، فإن كان لا بد متمنيا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، و توفي لي إذا كانت الوفاة خيرا لي»، و من ظن أن تمنيتها ذلك كان لشدة الوجع، فقد أساء الظن، و العياذ بالله (4).

و في حدة الألم و غمرة الهول، تقع المفاجأة الكبرى فنأداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، و هزّي إليك بحذع النخلة  
تساقط

ص: 301

1- تفسير الفخر الرازي 203/21.

2- سورة مريم: آية 23.

3- تفسير الفخر الرازي 203/21.

4- تفسير ابن كثير 189/3، تفسير روح المعاني 81/16-82.



عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا، فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا، فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلَّمُ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (1)، و قد اختلف في المنادى على قولين، الأول أنه عيسى عليه السلام، وهو قول الحسن البصري وسعيد بن جبير، واستظهر أبو حيان كون المنادى عيسى، والضمير لمريم، والفاء فصيحة، أي فولدت غلاما فأنطقه الله تعالى حين الولادة، فنادها المولود من تحتها، وروى ذلك أيضا عن مجاهد وهب وابن جرير وابن زيد، والثاني أنه جبريل، ونقل في البحر عن الحسن أنه قال: نادها جبريل وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها، ولعله إنما كان موقفه هناك إجلالا لها، وتحاشيا من حضوره بين يديها في تلك الحال، والقول بأنه عليه السلام كان تحتها يقبل الولد مما لا ينبغي أن يقال لما فيه من نسبة ما لا يليق بشأن أمين وحي الملك المتعال، ويعضد الفخر الرازي القول الأول بأدلة منها: الأول أن قوله: فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا بِفَتْحِ الْمِيمِ، إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحدا، والذي علم كونه حاصلا تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادى جبريل عليه السلام، والثاني: أن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة، وذلك لا يليق بالملائكة، والثالث: أن قوله فنادها فعل، ولا بد أن يكون فاعله قد تقدم ذكره، ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وعيسى عليهما السلام، إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى:

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ وَالضَّمِيرُ هُنَا عَائِدٌ إِلَى الْمَسِيحِ فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ أُولَى، والرابع: هو دليل الإمام الحسن بن علي عليه السلام، أن عيسى لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق، فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام، فأما من قال إن المنادى هو عيسى عليه السلام، فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطيبا لقلبها وإزالة للوحشة عنها، حتى تشاهد في أول الأمر ما

ص: 302

بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد، و من قال إن المنادى جبريل قال إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بما تقدم من أصناف البشارات، وأولى القولين عند جمهرة المفسرين أن المنادى هو عيسى عليه السلام (1).

و أما السرى، فقد اتفق المفسرون، إلا الحسن البصري و عبد الرحمن بن زيد، أنه النهر و الجدول، سمي لأن الماء يسرى فيه، قال ذلك البراء بن عازب و ابن عباس و عمرو بن ميمون و قتادة و إبراهيم النخعي و ابن منبه، و اختاره الطبري، و روى عن ابن عباس أنه جدول من الأردن أجراه الله تعالى منه لما أصابها العطش، و روى أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً، و قيل فعل ذلك عيسى عليه السلام، و هو المروي عن أبي جعفر الباقر، رضي الله تعالى عنه، و قيل كان ذلك موجوداً من قبل، إلا أن الله تعالى نبهها عليه، و الأرجح، عند صاحب الظلال، أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل، و عن الحسن و ابن زيد و الجبائي أن المراد بالسرى عيسى عليه السلام، و هو من السرو بمعنى الرفعة، كما قال الراغب، أي جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن سامي القدر، و روى أن الحسن البصري رجع عنه، فقد تلا هذه الآية، و جنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري: قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا، فقال إن كان لسريا، و إن كان لكريماً، فقال له حميد: يا أبا سعيد إنما هو الجدول، فقال له الحسن: من ثم تعجبنا مجالستك، و روى أن خالد بن صفوان قال له: إن العرب تسمي الجدول سرياً، فقال له الحسن:

صدقت و رجع إلى قوله، و احتج من قال إنه النهر بوجهين، أحدهما: أن النبي صلى الله عليه و سلم سئل عن السرى، فقال هو الجدول، و ثانيهما: أن قوله تعالى:

ص: 303

---

1- تفسير الفخر الرازي 204/21، تفسير روح المعاني 82/16، تفسير الطبري 68/16-69، تفسير ابن كثير 190/3، تفسير النسفي 3/32، الكامل لابن الأثير 177/1.

فَكُلِّي وَ اشْرَبِي يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب، فتأكل و تشرب (1).

وعلى أي حال، فإن الله تعالى أمرها أن تهز النخلة فتساقط عليها رطباً جنياً فتأكل منه، قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع، بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً، وذلك ليسكن أمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله، فكلِّي وَ اشْرَبِي أي كلي من هذا الرطب الشهي، و اشربي من هذا الماء العذب السلسبيل (2)، وهكذا أعطاه الله تعالى طعاماً و شراباً، و الطعام الحلو مناسب للنفساء، و الرطب و التمر من أجود طعام النفساء، و نحسبها قد دهشت طويلاً، قبل أن تمديدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنياً، ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها، و إلى أن حجتها معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهمد، فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها (3).

و أت الطاهرة البتول بوليدها المبارك تحمله: قالوا يا مَرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا، يا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا (4)، وهكذا بدأت السنة القوم بالتقريع و التأنيب، ثم سرعان ما تحولت إلى تهكم مرير، قائلين: يا شبيهة هارون في الصلاح و العبادة، ما كان أبوك رجلاً فاجراً، و ما كانت أمك زانية، فكيف صدر هذا منك، و أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح و العبادة، قال قتادة: كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبها به، و ليس بهارون أخي موسى،

ص: 304

- 
- 1- تفسير روح المعاني 83 / 16، تفسير ابن كثير 190 / 3، تفسير الفخر الرازي 205 / 21، تفسير الطبري 69 / 16 - 71، تفسير النسفي 3 / 32، في ظلال القرآن 4 / 2307.
  - 2- صفوة التفاسير 2 / 214 - 215.
  - 3- في ظلال القرآن 4 / 2307.
  - 4- سورة مريم: آية 27 - 28.

عليهما السلام، لأن بينهما ما يزيد على ألف عام، وقال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، وليس بهارون بن عمران النبي، فإن بينهما دهرا طويلا، و من ثم فقد أخطأ كثيرا جدا من قال أنها أخت هارون النبي لأبيه و أمه، كما أنها أخت موسى عليه السلام، التي قصت أثره، و قد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني و بينه نبي»، و أخرج الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى نجران فقالوا: أ رأيت ما تقرأون «يا أخت هارون» و موسى قبل عيسى بكذا و كذا، قال فرجعت فذكرت ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: أ لا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء و الصالحين قبلهم» (1)، و عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن كعبا قال: إن قوله: «يا أخت هارون»، ليس بهارون أخي موسى، قال، فقالت له عائشة: كذبت، قال يا أم المؤمنين: إن كان النبي صلى الله عليه و سلم قاله فهو أعلم و أخبر، و إلا فإني أجد بينهما ست مائة سنة، قال:

«فسكتت» قال ابن كثير: و في هذا التاريخ نظر (2)، و هذا صحيح لأن ما بين موسى و عيسى عليهما السلام قرابة اثنين و عشرين قرنا.

و اشتد القوم على الطاهرة البتول: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (3)، قال السدي: لما أشارت غضبوا و قالوا: لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، أي من هو موجود في مهده في حالة صباه و صغره، كيف يتكلم؟ قال الرازي في التفسير الكبير: روى أنه كان يرضع فلما سمع

ص: 305

- 
- 1- تفسير روح المعاني 88/16، تفسير ابن كثير 193/3، تفسير الطبري 77/16-78، مسند الإمام أحمد 252/4، صحيح مسلم 16/171، تحفة الأحوذى 601/5.
  - 2- تفسير الطبري 77/16، تفسير ابن كثير 193/3.
  - 3- سورة مريم: آية 29.

ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان، وقيل إن زكريا عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها، فقال لعيسى عليه السلام: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عيسى عند ذلك: «(1) إني عبدُ الله أتاني الكتابُ وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أين ما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دُمْتُ حياً، وبرا بوالدي و لم يجعلني جباراً شقيماً والسلامُ عليَّ يومَ وُلِدْتُ و يومَ أُمُوتُ و يومَ أُبعثُ حياً (2)».

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله، فليس هو ابنه كما تدعى فرقة، وليس هو إليها كما تدعى فرقة، وليس هو ثالث ثلاثة، هم إله واحد، وهم ثلاثة، كما تدعى فرقة، ويعلن أن الله جعله نبياً، لا ولداً ولا شريكاً، وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبر بوالديه والتواضع مع عشيرته، فله إذن حياة محدودة ذات أمد، وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حياً، والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه، وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولا جدالاً (3).

ص: 306

---

1- تفسير ابن كثير 3/ 193، تفسير الفخر الرازي 21/ 208، تفسير روح المعاني 16/ 89.

2- سورة مريم: آية 30-33.

3- في ظلال القرآن 4/ 2308.

[1] نبوة المسيح:-

لم يذكر القرآن الكريم متى بدأت نبوة المسيح عليه السلام، ولا كيف كان ذلك، ولكن عبارات الإنجيل اتفقت على أن نبوته كانت على رأس ثلاثين من عمره، وعلى ذلك جرى المؤرخون وكثير من المفسرين، يقول الألويسي في تفسير روح المعاني: واختلف في زمن رسالته عليه السلام، ف قيل في الصبا وهو ابن ثلاث سنين، وفي البحر: أن الوحي أتاه بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، قيل و ثلاثة أشهر و ثلاثة أيام، ثم رفع إلى السماء، وهو القول المشهور (1)، وفي تفسير الطبري عن وهب بن منبه: لما صار عيسى ابن اثنتي عشرة سنة أوحى الله إلى أمه، وهي بأرض مصر، وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر، أن اطلعي به إلى الشام، ففعلت الذي أمرت به، فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته بثلاث سنين، ثم رفعه الله إليه (2)، ويقول ابن الأثير في الكامل: أتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة، وظل رسولا سنتين، إذ رفع إلى السماء، وهو ابن اثنتين و ثلاثين سنة وأياما، ويقول

ص: 307

1- تفسير روح المعاني 167/3.

2- تفسير الطبري 278/3.

علماء التوحيد إن النبوة تكون على رأس الأربعين من العمر، أما عيسى عليه السلام فقد نبيء على رأس الثلاثين، وهذه خصوصية له عليه السلام، لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سن الأربعين (1)، ويذهب الدكتور الطيب النجار إلى أنه لا بأس من ذلك، أي أن نبوة المسيح كانت على رأس الثلاثين، فإن سن الأربعين ليست شرطاً لتحديد بدء نبوة الأنبياء، فلقد أوتي يحيى عليه السلام العلم والحكمة وهو صبي وبدأت نبوته قبل أن يبلغ الثلاثين (2).

على أن الدكتور الشريف إنما يحدد ابتداء نبوة المسيح من منطوق الآيات (29-33 من سورة مريم) يقول تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (3). وظاهر الآيات الكريمة إنما يفيد أن المسيح نبيء وهو في المهدي، ولا غرابة في ذلك، فالقرآن يقول في شأن يحيى بن زكريا عليهما السلام:

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، هذا فضلا عن اعتراف المسيح في الآية (30 مريم) وهو ما يزال في المهدي، بأن الله جعله نبيا وآتاه الكتاب، والتعبير بصيغة الماضي في (آتاني وجعلني)، كل ذلك يرجح أنه بعث في المهدي وهو صبي صغير، ولا حاجة بنا بعدئذ لأن نجاري البعض الذين قالوا إن المسيح نبيء على رأس الثلاثين، ولا برهان لهم على هذا، إلا من تكلف من

ص: 308

- 1- محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص 198، محمد بن الشريف: الأديان في القرآن، جده 1979، ص 157، ابن الأثير 1/179.
- 2- محمد الطيب النجار: المرجع السابق، ص 278.
- 3- سورة مريم: آية 29-33، وانظر تفسير الطبري 16/78-82، تفسير ابن كثير 3/191-194، تفسير الفخر الرازي 21/207-216، تفسير روح المعاني 16/88-91 تفسير النسفي 3/34-35. في ظلال القرآن 4/2308، تفسير القرطبي ص 4140-4144.

تمحلات لغوية، ولا أن نقول كما قال بعض علماء التوحيد إن الرسالة لا تكون إلا بعد الأربعين، ولا غرو فنحن أمام شخصية جعلها الإعداد الإلهي، والإعجاز الإلهي لا تسير على سنن العادة، فعيسى مخلوق غير عادي في مولده وفي مبعثه وفي مماته (1)، عليه صلوات الله وسلامه.

و جاء في تفسير النسفي: روى عن الحسن أنه كان في المهدي نبيا وكلامه معجزته، وقيل إن معناه أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد (2)، ويقول الفخر الرازي: إن قوله: وَجَعَلَنِي نَبِيًّا يدل على أن ذلك قد حصل من قبل، إما ملاصقا لذلك الكلام أو متقدما عليه بأزمان، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيا، بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلي الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة، فقبل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه، وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة، وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها، فلهذا أشارت إليه بالكلام، ثم يرد الإمام الرازي على من قال إنه نبي، ولكنه ما كان رسولا، لأنه في ذلك الوقت ما جاء بالشريعة، ومعنى كونه نبيا أنه رفيع القدر على الدرجة، فيقول إن هذا ضعيف، لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة، خصوصا إذا قرن إليه ذكر الشرع، وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة (3).

و أما دليل نبوة المسيح في القرآن الكريم، فقوله تعالى: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ (4) وقوله

ص: 309

1- محمود بن الشريف: الأديان في القرآن ص 157-158.

2- تفسير النسفي 3/34.

3- تفسير الفخر الرازي 21/214.

4- سورة آل عمران: آية 48-49، وانظر: تفسير الطبري 3/273-275، تفسير الفخر الرازي 8/53-54، تفسير النسفي 1/158، تفسير ابن كثير 1/545-546، تفسير روح المعاني 3/166-167، تفسير الظلال 1/399-400، تفسير المنار 3/249-256، تفسير القرطبي ص 1335-1337.



تعالى: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (1).

هذا ومن المعروف أن دعوة المسيح عليه السلام، شأنها في ذلك شأن دعوات كل الرسل الكرام قبل بعثة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما هي دعوة خاصة إلى بني إسرائيل، كما جاء في القرآن الكريم (2)، وكما يقول الإنجيل على لسان المسيح «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (3)، ومن ثم فقد اتجه السيد المسيح عليه السلام بدعوته إلى بني إسرائيل يبغى من ورائها هداية خراف بيت إسرائيل الضالة، وأما الذي عمم الدعوة فهم تلاميذ المسيح، أو بالأحرى، فقد عممها «بولس» الذي زعم أن المسيح تراءى له، وجعله تلميذا له، مع أنه لم يره، وذلك بعد تكرارها على بني إسرائيل، ولجأجتهم في الإعراض عنها، ومن ثم فقد وجهت إلى كل مستمع لها، مقبل عليها، وقال لهم: إن العاملين بالخير هم ذرية إبراهيم الخليل، أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة إليه بالسلالة، لأنهم أبناؤه بالروح (4)، ومع ذلك تبقى دعوة المسيح في صميمها، دعوة خاصة، وأما الدعوة العامة فهي دعوة سيدنا و مولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسل إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وصدق الله العظيم حيث يقول: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا

ص: 310

1- سورة الصف: آية 6.

2- سورة آل عمران: آية 48-49، الصف: آية 6.

3- متى 24/15.

4- متى 23/15-28، عباس العقاد: مطلع النور ص 96، محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة ص 61-62.

وَ نَذِيرًا (1)، و يقول: وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (2)، و يقول: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (3) هذا فضلًا عن أن المسيح عيسى بن مريم إنما هو واحد من أولى العزم الخمسة، خيار ولد آدم قاطبة، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ذكروا في القرآن الكريم تخصيصًا من بين الأنبياء جميعًا في آيتين، الأولى قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (4)، والثانية:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (5).

## [2] معجزات المسيح:-

### إشارة

لا ريب في أن مولد المسيح معجزة، وحياته معجزة، ووفاته معجزة، فعيسى عليه السلام، كما قلنا، غير عادي في مولده وفي مبعثه وفي مماته، فأما مولده، فلقد شاء الله، بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة، أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقًا معينًا، طريق التقاء ذكر وأنثى، و اجتماع بويضة و خلية تذكير، فيتم الإخصاب، ويتم الإنسال، و البويضة حية غير ميتة، و الخلية حية كذلك متحركة، و مضى مألوف الناس على هذه القاعدة، حتى

ص: 311

1- سورة سبأ: آية 28.

2- سورة النساء: آية 79.

3- سورة الأعراف: آية 158 و انظر: سورة إبراهيم: آية 1، 52، الحج: آية 49، الفرقان آية 1، الأحزاب: آية 40، ص: آية 87.

4- سورة الأحزاب: آية 7.

5- سورة الشورى: آية 13، و انظر تفسير الطبري 14/25-16، تفسير القرطبي 9/16-12 (الغالب 1967)، تفسير البيضاوي 2/354-

355، تفسير روح المعاني 25/21-22، تفسير الفخر الرازي 27/154، تفسير الكشاف 3/463-464، تفسير الرحمن في تفسير كلام

المنان 7/96-97 (مكة المكرمة 1398 هـ).

شاء الله تعالى أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان، فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى، وإن لم تكن مثلها تماما، أنثى فقط تتلقى النفخة التي تنشئ الحياة ابتداء، فتنشأ فيها الحياة (1)، وهكذا جاء عيسى بن مريم إلى هذه الدنيا بطريقة أشبه بتلك التي جاء بها آدم عليه السلام، وصدق الله العظيم حيث يقول: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (2).**

صحيح أن ولادة عيسى عجيبة حقا بالقياس إلى مألوف الناس، ولكنه صحيح كذلك أنه لا غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر، وأهل الكتاب الذين يناظرون ويجادلون حول عيسى بسبب مولده، ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب، أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية، على حين أن العنصر الذي صار به آدم إنسانا هو ذاته العنصر الذي ولد به عيسى من غير أب، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا الكلمة «كن» تنشئ ما تتراد له النشأة «فيكون» وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة، حقيقة عيسى وحقيقة آدم وحقيقة الخلق كله، وتدخل إلى النفس في يسر، وفي وضوح، حتى ليعجب الإنسان، كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنة الكبرى، سنة الخلق والنشأة جميعا (3).

ص: 312

- 
- 1- في ظلال القرآن 1/ 398.
  - 2- سورة آل عمران: آية 59، وانظر: تفسير الفخر الرازي 8/ 74-76، تفسير الطبري 3/ 295-297، تفسير ابن كثير 1/ 550-552، تفسير النسفي 1/ 160-161، تفسير روح المعاني 3/ 186-187.
  - 3- في ظلال القرآن 1/ 404-405.

و أما معجزات المسيح عليه السلام، فقد جاءت في عدة آيات من آي الذكر الحكيم (1)، نذكر منها (أولاً) أن الله تعالى يعلمه الكتاب و الحكمة و التوراة و الإنجيل، فأما «الكتاب» فقد يراد به الكتابة، و كان عليه السلام أحسن الناس خطا في زمانه (2)، و قد يكون هو التوراة و الإنجيل، و أما «الحكمة» فهي حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها و إدراك الصواب و اتباعه، و هي خير كثير (3)، أو هي السنة التي يوحىها الله إليه في غير كتاب، و أما «التوراة»، فهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، و أما «الإنجيل» فهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، و قد كان عيسى يحفظ هذا و ذاك (4).

و لعل مما تجدر الإشارة إليه أن التوراة إنما كانت كتاب عيسى كالإنجيل، فهي أساس الدين الذي جاء به، و الإنجيل تكملة و إحياء لروح التوراة، و لروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل، و هذا ما يخطئ الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة، و هي قاعدة دين المسيح عليه السلام، و فيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع، و لم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل (5)، و من ثم فإن الله تعالى يقول على لسان المسيح: وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (6)، يقول ابن كثير: و فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، و هو الصحيح،

ص: 313

1- أنظر: سورة آل عمران: آية 47-50، المائة: آية 110-115، مريم: آية 29-33.

2- تفسير النسفي 1/158.

3- تفسير الظلال 1/399.

4- تفسير ابن كثير 1/546.

5- في ظلال القرآن 1/399.

6- سورة آل عمران: آية 50.

وقد قال بعض العلماء: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كان يتنازعون فيه خطأ وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: **وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَحْتَلِفُونَ فِيهِ (1)**، ويقول الطبري: إن عيسى كان مؤمناً بالتوراة مقرباً، وأنها من عند الله (2)، وكذلك الأنبياء كلهم يصدقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلفت بعض شرائع أحكامهم لمخالفة الله بينهم في ذلك، مع أن عيسى كان، فيما بلغنا، عاملاً بالتوراة لم يخالف شيئاً من أحكامها، إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشدداً عليهم فيها (3)، وجاء في التفسير الكبير عن وهب بن منبه: أن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام، كان يقرر السبب ويستقبل بيت المقدس، ثم إنه فسر قوله: **وَلَا أُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ بِأَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ الْأَحْبَارَ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا مِنْ عِنْدِ**

ص: 314

1- تفسير ابن كثير 546/1.

2- نرى لزاماً علينا أن نبين هنا: أن التوراة التي كان عيسى عليه السلام مؤمناً بها مقرباً بها، إنما هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، فيها هدى ونور، فهي تقرر وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن كل مظاهر النقص، والتي تركز على الاعتراف باليوم الآخر، والإيمان بما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار، والتي تضمنت عظات وأفكاراً وشريعة لبني إسرائيل يحكم بها أبناؤهم، والتي تقرر عصمة هؤلاء الأنبياء، غير أن هذه التوراة الأصلية ببندوها ونصوصها وتعاليمها، لا وجود لها بهذه الصورة الإلهية في التوراة المتداولة اليوم، فلقد امتدت إليها يد أئيمة من أحبار يهود فحرفت وبدلت، ثم كتبت سواها بما يتلاءم مع يهود، ويتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا بعد كل هذا، أنها التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام: **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا**، هذا فضلاً عن أن توراة موسى شيء، والعهد القديم شيء آخر، فالتوراة لا تعدو خمسة أسفار من أسفار العهد القديم، البالغ عددها 39 سفراً، عند البروتستانت، وأكثر من ذلك بسبعة أسفار، عند الكاثوليك، فضلاً عن أسفار الأبوكريف، والأسفار المفقودة أو الخفية (قدم المؤلف دراسة مفصلة عن التوراة: أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 1/3 - 379- الاسكندرية 1979).

3- تفسير الطبري 281/3.

أنفسهم شرائع باطلة و نسبوها إلى موسى، فجاء عيسى و رفعها و أبطلها، و أعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام، و ثانيهما: أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات، كما قال تعالى: **فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**، ثم بقي هذا التحريم حتى جاء عيسى عليه السلام، و رفع تلك التشديدات عنهم، و قال آخرون: إن عيسى رفع كثيرا من أحكام التوراة، و لم يكن ذلك قادحا في كونه مصدقا بالتوراة على ما بيناه، و رفع السبب و وضع الأحد قائما مقامه، و كان محققا في كل ما عمل لأن الناسخ و المنسوخ كلاهما حق و صدق (1).

و من ثم فإن قوله تعالى: **وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**، إنما يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة، فالتوراة التي تنزلت على موسى، و هي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان، و ملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام و جاءت رسالته مصدقة لها، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، و كان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاص و انحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالا لهم، ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم (2)، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن الربيع أنه قال: كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى عليهما السلام، و كان فيما حرم عليهم فيما جاء به موسى، لحوم الإبل و الثروب فأحلها لهم على لسان عيسى،

ص: 315

1- تفسير الفخر الرازي 59/8.

2- في ظلال القرآن 400/1.

و حرمت عليهم شحوم الإبل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك وفي أشياء من الطير، مما لا صيصة له، وفي أشياء أخرى حرمت عليهم و شدد عليهم فيها، فجاء عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل، و هذا يدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام تغيّر ما في التوراة، و أن شريعة عيسى نسخت بعض شريعة موسى، و لا يخل ذلك بكونه مصدقا للتوراة، فإن النسخ بيان لانتهاه زمان الحكم الأول، لا رفع و إبطال (1).

هذا و قد جاء في إنجيل متى، على لسان السيد المسيح، «لا تظنوا أنني جئت لأتقض الناموس و الأنبياء، ما جئت لأتقض بل لأأكمل، فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء و الأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (2) و ليس هناك من شك في أن التصديق بالكتب السابقة يعني أن الكتب المتأخرة إنما هي تجديد للمتقدمة و تذكير بها، فلا تبدل معنى و لا تغيّر حكما، و إنما الواقع غير ذلك، فقد جاء الإنجيل بتغيير بعض أحكام التوراة، كما جاء القرآن بتبديل بعض أحكام الإنجيل، و لكن يجب أن يفهم أن هذا و ذلك لم يكن من المتأخرة تقصا للمتقدم، و لا إنكارا لحكمة أحكامه في إبانها، و إنما كان وقوفا عند وقتها المناسب، و أجلها المقدر (3)، و من هنا كان قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق» (4).

و هكذا يمكن القول أن الإنجيل إنما كان نفحة إحياء و تجديد لروح الدين، و تهذيب لضمير الإنسان، بوصلة مباشرة بالله من وراء النصوص،

ص: 316

---

1- تفسير روح المعاني 3/ 171، تفسير الطبري 1/ 282.

2- إنجيل 17/5-18.

3- محمد عبد الله دزار: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان- القاهرة 1969 ص 185-186.

4- عبد الحليم محمود: دلائل النبوة و معجزات الرسول- القاهرة 1974 ص 462.

هذا الإحياء و هذا التهذيب، هما اللذان جاء بهما المسيح و جاهد لهما حتى مكرت يهود به عليه السلام (1).

و منها (ثانيا) أن الله تعالى جعله يكلم الناس في المهد و كهلا: فأما المهد فهو حجر الأم أو مضجع الصبي وقت الرضاع، و المراد أن المسيح عليه السلام يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد، و لا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد، و أما الكهل في اللغة فهو ما اجتمع قوته و كمل شبابه، و هو مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات إذا قوي (2)، و المراد أن المسيح يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالة الطفولة و حالة الكهولة التي يستحكم فيها العقل، و يستنبأ فيها الأنبياء، و أما كلامه في المهد (3)، فدلالة على براءة أمه مما قذفه بها المفترون، و حجة على نبوته، قال ابن عباس: كان كلامه في).

ص: 317

1- في ظلال القرآن 399 / 1.

2- نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثا و ثلاثين و ستة أشهر، و على هذا فهو ما بلغ الكهولة، و الجواب من وجهين، الأول: أن الكهل في أصل اللغة هو الكامل التام، و أكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين و الأربعين، فصح وصفه بكونه كهلا في هذا الوقت، و الثاني هو قول الحسين بن الفضل البجلي: أن المراد بقوله: «كهلا» أن يكون كهلا بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، و يكلم الناس و يقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: و في هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة و السلام سينزل إلى الأرض، و من ثم فقد ذهب سعيد بن المسيب و زيد بن أسلم و غيرهما أنه عليه السلام رفع إلى السماء، و هو ابن ثلاث و ثلاثين سنة، و أنه سينزل إلى الأرض و يبقى حيًا فيها أربعين سنة، كما رواه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأبحار، و يؤيده ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: قد كلمهم عيسى في المهد، و سيكلمهم إذا قتل الدجال و هو يومئذ كهل (تفسير الفخر الرازي 52 / 8، تفسير روح المعاني 164 / 3، تفسير الطبري 273 - 272 / 3، تفسير القرطبي ص 1332 - 1334، تفسير المنار 252 / 3 - 255).

3- روى ابن إسحاق عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى و صاحب جريح»، و في رواية أخرى قال صلى الله عليه و سلم: لم يتكلم في المهد إلا ثلاث: عيسى و صبي كان في زمن جريح و صبي آخر» (تفسير ابن كثير 1 / 545).



المهد ساعة واحدة بما قصى الله تعالى لنا، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، على أن ابن الأخشيد إنما يذهب إلى أنه كان يتكلم دائما، و كان كلامه فيه تأسيسا لنبوته، وإرهاصا لها، وعليه يكون قوله: وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا إخبارا عما يؤول إليه، وقال الجبائي: إنه سبحانه أكمل عقله عليه السلام إذ ذاك وأوحى إليه بما تكلم به مقرونا بالنبوته و جَوَّزَ أن يكون ذلك كرامة لمريم دالة على طهارتها وبراءة ساحتها مما نسبته أهل الإفك إليها، و أما كلامه في الكهولة فقد ذكر، رغم أنه غير معجز، لأسباب منها بيان كونه متقلبا في الأحوال من الصبا إلى الكهولة، و التغيير على الله تعالى محال، و المراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلها، و منها أن يكلم الناس في المهد مرة واحدة لإظهار براءة أمه ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي و النبوة، و منها أنه يكلم الناس حال كونه في المهد و كهلا على حد واحد، و صفة واحدة، و ذلك لا شك أنه في غاية المعجز، و منها أن المراد أنه سيبلغ الكهولة (1).

بقيت الإشارة إلى أن النصراني أنكرت كلام المسيح في المهد، محتجين بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور و أغربها، و بأنه لو حدث لشهده الجمع العظيم الذي يحصل القطع و اليقين بقولهم، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد و الاثنین لا يجوز، و متى حدثت الواقعة العجيبة جدا عند حضور الجمع العظيم فلا بد و أن تتوافر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغا حد التواتر، و إخفاء ما يكون بالغا إلى حد التواتر ممتنع، كما أن الإخفاء ممتنع لأن النصراني بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلها، و من كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه و فضائله، بل ربما

ص: 318

---

1- تفسير الفخر الرازي 8/ 51-52، تفسير الطبري 3/ 271-273، تفسير ابن كثير 1/ 545، تفسير النسفي 1/ 158، تفسير الكشاف 1/ 278، تفسير روح المعاني 3/ 162-164.

يجعل الواحد ألفا، فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان النصرارى أولى الناس بمعرفتها، ولما أطبقوا على إنكارها، علمنا أنه ما كان موجود البتة.

ورد المتكلمون عليهم بأن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة مريم عليها السلام من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعا قليلين، فالسامعون لذلك الكلام كان جمعا قليلا، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير أن يذكروا ذلك، إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضا سكتوا لهذه العلة، فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوما إلى أن أخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بذلك، وأيضا فليس كل النصرارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه: لما قرأ علي النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام، بذرة (1).

ومنها (ثالثا) شفاء المرضى وإبراء الأكمة وإحياء الموتى والإخبار عن بعض المغيبات، قال تعالى، على لسان المسيح: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (2)، ولعل من الأهمية بمكان، وقبل الحديث عن هذه الخوارق المعجزة، الإشارة إلى أنه في هذه الآية (آل عمران 49) وفي آية المائدة (110) أن النص القرآني الكريم يذكر، على لسان المسيح، أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله تعالى، كما حرص النص على ذكر

ص: 319

1- تفسير الفخر الرازي 52/8-53، تفسير روح المعاني 3/163.

2- سورة آل عمران: آية 49.

اللّٰه بكل واحدة منها تفصيلا و تحديدا، و لم يدع القول يتم حتى يذكر في نهايته إذن اللّٰه زيادة في الاحتياط، و هذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أوردتها، أورد العافية و هي فرع عن الحياة، و رؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية، و هي في صميمها تتسق مع مولد عيسى و منهج الوجود و الحياة على غير مثال، إلا مثال آدم عليه السلام، و إذا كان اللّٰه قادرا على أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال، و لا حاجة إذن لكل الشبهات و الأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص، متى رد الأمر إلى مشيئة اللّٰه الطليقة، و لم يقيد الإنسان اللّٰه، سبحانه و تعالى، بمألوف الإنسان (1).

**و أما هذه المعجزات التي جاءت في هذه الآية و في غيرها فهي:-**

**أولا: كان المسيح يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن اللّٰه تعالى:-**

و المراد بالخلق هنا، فيما يرى صاحب روح المعاني، التصوير و الإبراز على مقدار معين، لا الإيجاد من العدم، و المعنى أنني أقدر، لأجل تحصيل إيمانكم و دفع تكذيبكم إياي، أن اجعل من الطين شيئا مثل الطير المهيا أو هيئة كائنة كهيئته، فأنفخ فيه فيكون طيرا حيا طيارا كسائر الطيور، و في تفسير النسفي أي أقدر لكم شيئا مثل صورة الطير، أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، فيصير طيرا كسائر الطيور، و في التفسير الكبير:

أي أقدر و أصور، فالخلق هو التقدير و التصوير، و ذلك لأن العبد لا يكون خالقا بمعنى التكوين و الإبداع، فوجب تفسير كونه خالقا بالتقدير و التسوية، و هكذا كان المسيح عليه السلام يصور من الطين شكل، طير، ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن اللّٰه عز و جل، الذي جعل هذا معجزة له، تدل على أنه تعالى

ص: 320

1- في ظلال القرآن / 1 / 399.

أرسله، و من ثم فقد جَوَّز بعض المفسرين أن يقال: إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية بحيث متى نفخ في شيء، كان نفخه فيه موجبا لصيرورة ذلك الشيء حيا، أو يقال ليس الأمر كذلك، بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخه عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات، وهذا القول الثاني هو الحق لقوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، و حكى عن إبراهيم عليه السلام إنه قال في مناظرته مع الملك رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فلو حصل لغيره هذه الصفة، لبطل ذلك الاستدلال.

و أظهر المعجزات أنهم أخذوا يتعتون عليه و طالبوه بخلق خفاش، فأخذ طينا و صوره، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء و الأرض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا، ثم اختلف الناس فقال قوم لم يخلق غير الخفاش، و قال آخرون: إنه خلق أنواعا من الطير (1).

### ثانيا: إبراء الأكمة و الأبرص بإذن الله تعالى:-

و قد اختلف العلماء في معنى الأكمة، فمن قائل إنه الذي ولد أعمى، و كما روى عن ابن عباس و قتادة: كنا نتحدث أن الأكمة الذي ولد و هو أعمى مضموم العينين، و قال الخليل و غيره: هو الذي عمى بعد أن كان بصيرا، و أخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء عن ابن عباس: أنه الممسوح العين الذي لم يشق بصره، و لم يخلق له حدقة، قيل: و لم يكن في صدر هذه الأمة أكمة بهذا المعنى، غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير، و عن

ص: 321

---

1- تفسير الفخر الرازي 56/8، تفسير روح المعاني 168/3، تفسير النسفي 159/1، تفسير ابن كثير 546/1، تفسير الطبري 275/3، الكامل لابن الأثير 179/1، تفسير القرطبي ص 1335-1336، تفسير المنار 255/3-257.

مجاهد: الأكمة هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، فهو يتكلمه، وعن عكرمة أنه الأعمش، وأما الأبرص فهو الذي به الوضع المعروف، يقول الإمام الطبري: وإنما أخبر الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه يقول ذلك لبني إسرائيل، احتجاجاً منه بهذه العبر والآيات عليهم في نبوته، وذلك أن الأكمة والأبرص لا علاج لهما، فيقدر على إبرائه ذو طب بعلاج، فكان ذلك من أدلته على صدق قبيله إنه لله رسول لأنه من المعجزات مع سائر الآيات التي أعطاه الله إياها دلالة على نبوته، وأما ما قاله عكرمة من أن الكمه هو العمش، وما قاله مجاهد من أنه سوء البصر بالليل، فلا معنى لهما، لأن الله لا يحتج على خلقه بحجة تكون لهم السبيل إلى معارضته فيها، ولو كان ما احتج به عيسى على بني إسرائيل في نبوته أنه يبرئ الأعمش أو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل لقد رواه على معارضته بحجة أن فيهم خلقاً يعالجون ذلك، وليسوا لله أنبياء ورسلاً، هذا وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً، من أطلق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله (1).

### ثالثاً: إحياء الموتى بإذن الله:-

قيد الله الإحياء بالإذن، كما فعل في المعجزات السابقة، لأنه خارق عظيم يكاد يتوهم منه ألوهية فاعلة، لأنه ليس من جنس أفعال البشر، و كان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله، يدعو لهم فتستجاب له، قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات، بياحي يا قيوم، وأحيا عازر وكان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره فخرج حياً، ومرّ على ابن ميث لعجوز فدعا الله فنزل عن سريره حياً، ورجع إلى أهله و ولد له (2).

ص: 322

1- تفسير الفخر الرازي 57/8، تفسير روح المعاني 169/3، تفسير الطبري 277/3-278.

2- تفسير روح المعاني 169/3، تفسير الفخر الرازي 57/8.

## رابعاً: إخبار القوم بما يأكلون و ما يدخرون في بيوتهم: -

وقد اختلف العلماء في وقت هذا الإخبار على قولين، أحدهما: أنه عليه السلام كان يخبر عن الغيوب من أول أمره، أخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمر و بن العاصي، و كذا روى عن السدي: أنه كان يلعب مع الصبيان، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم و أمهاتهم، و كان يخبر الصبي بأن أمك خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله و يبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء، ثم قالوا لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر، و جمعوهم في بيت، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا له: ليسوا في البيت، فقال فمن في البيت، قالوا خنازير، قال عيسى كذلك يكونون، فإذا هم خنازير، و أما القول الثاني:

فإن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة، و ذلك لأن القوم نهوا عن الإخبار، فكانوا يحزنون و يدخرون، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم، و قد أيد ذلك ما أخرجه عبد الرزاق و غيره عن عمار بن ياسر في الآية أنه قال:

وَأُنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ مِنَ الْمَائِدَةِ وَ مَا تَدْخُرُونَ مِنْهَا، وَ كَانَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَائِدَةِ حِينَ نَزَلَتْ أَنْ يَأْكُلُوا وَ لَا يَدْخُرُوا، فَادْخُرُوا وَ خَانُوا، فَجَعَلُوا قِرْدَةً وَ خَنَازِيرَ (1).

و بدهي أن الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، ذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك، إلا عن سؤال تتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآله و يتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيرا، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة و لا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى، و هذا هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب و إخبارهم عنها، و بين علم سائر المتكذبة على الله أو المدعية علم ذلك، ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

ص: 323

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، يعني بذلك السيد المسيح: إن في خلقي من الطين الطير يأذن الله، وفي إبرائي الأكمه و الأبرص، وإحيائي الموتى، و  
إبنائي إياكم بما تأكلون و ما تدخرون في بيوتكم، ابتداء من غير حساب و لا تنجيم، و لا كهانة و لا عرافة، لعبرة لكم، و متفكرا تتفكرون في  
ذلك، فتعتبرون به أني محق في قلبي لكم: إني رسول من ربكم إليكم، و تعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله و نهيه، صادق، إن كنتم  
مؤمنين، يعني إن كنتم مصدقين حجج الله و آياته مقرنين بتوحيده و نبيه موسى، و التوراة التي جاءكم بها (1).

ص: 324

---

1- تفسير الطبري 281 / 3، تفسير الفخر الرازي 58 / 8، تفسير القرطبي ص 1337.

إشارة

ليس هناك من ريب في أن الخلاف الأساسي و الأصيل بين المسلمين و المسيحيين حول السيد المسيح عليه السلام، إنما يدور حول دعوى النصارى بألوهية المسيح و صلبه.

[1] دعوى التأليه:-

يعرض القرآن الكريم أكثر من مرة لعبودية المسيح لله تعالى، و أنه عبد الله و رسوله، و كفاه فخرا بهذه العبودية لله تعالى، كما اعتبر القرآن من ألوهيا المسيح كفارا، و من ثم فإنه يؤكد كثيرا أن عيسى بن مريم بشر، و أنه رسول من الله، مؤيد بكتاب إلهي، و بوحى سماوي، و أنه نادى بعقيدة التوحيد، فدعا إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد، و يذهب صاحب الظلال (1) إلى أن عقيدة التوحيد عاشت بعد المسيح عليه السلام في تلامذته و في أتباعهم، و أحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت، و هو إنجيل «برنابا» يتحدث عن عيسى عليه السلام بوصفه رسولا من عند الله، ثم وقعت بينهم الاختلافات، فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل، و من قائل: إنه رسول نعم، و لكن له بالله صلة خاصة، و من قائل: إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب، و لكنه على هذا

ص: 325



مخلوق لله، و من قائل: إنه ابن الله، و ليس مخلوقا، بل له صفة القدم كالأب.

و لتصفية هذه الخلافات عقد «مجمع نيقية» عام 325 م الذي اجتمع فيه ثمانية و أربعون ألفا من البطارقة و الأساقفة، و قد اختار المجمع مقالة من كانوا يقولون بألوهية المسيح، و هي مقالة «بولس الرسول» و مقالة الثلاثمائة و ثمانية عشر أسقفا، و قد اختار الإمبراطور الروماني «قسطنطين» (306-337 م) <sup>(1)</sup> هذا الرأي و سلط أصحابه على مخالفيهم و شرد أصحاب سائر المذاهب، خاصة القائلين بألوهية الأب وحده، و ناسوتية المسيح، و قد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار: إن الجامعة المقدسة و الكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه، و أنه لم يوجد قبل أن يولد، و أنه وجد من لا شيء، أو من يقول: إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب، و كل من يؤمن أنه مخلوق أو من يقول إنه قابل للتغيير و يعتريه ظل دوران»، و لكن هذا المجمع بقرارته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع «آريوس» و قد غلبت على القسطنطينية و أنطاكية و بابل و الاسكندرية و مصر.

ثم سار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم هو «إله» و قال آخرون ليس ياله، فاجتمع مجمع القسطنطينية الأول عام 381 م، و فيه تقررت ألوهية روح القدس، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية عام

ص: 326

---

1- يذهب البعض إلى أن قسطنطين لم يعترف بالمسيحية كديانة رسمية فحسب، بل إنه هو نفسه اعتنق المسيحية في عام 312 م، بينما يذهب آخرون إلى أنه بقي وثنيا طوال حياته، و لم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض، و قد بنت أمه «هيلانة» كنيسة القيامة في القدس عام 326 م نتيجة اعتقاد خاطئ أن جثمان المسيح دفن في مكان هذه الكنيسة ثم رفع إلى السماء (عمر كمال توفيق: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص 29، فيلب حتى: المرجع السابق ص 387 ثم قارن. 9، 2، suilesuE، XI، hC. و كذا 4، sunemozoS، I، KB، hC.

ثم ثار خلاف آخر حول طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية، أو اللاهوت و الناسوت كما يقولون، فقد رأى «نسطور» بطريرك القسطنطينية أن هناك أفنوما وطبيعة، فأفنوم الألوهية من الأب و تنسب إليه، و طبيعة الإنسان و قد ولدت من مريم، فمريم أم الإنسان في المسيح، وليست أم الإله، و يقول في المسيح الذي ظهر بين الناس و خاطبهم، كما نقله عنه ابن البطريق، ثم يقول: «إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلها في حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة و النعمة، أو هو ملهم من الله، فلم يرتكب خطئة و ما أتى أمرا إذا»، و خالفه في هذا الرأي أسقف روما و بطريرك الاسكندرية و أساقفة أنطاكية فاتفقوا على عقد مجمع رابع، و انعقد مجمع «أفسس» عام 431 م، و قرر: «أن مريم العذراء و الدة الله، و أن المسيح إله حق و إنسان، معروف بطبيعتين، متوحد في الأفنوم»، و لعنوا نسطور.

ثم خرجت كنيسة الاسكندرية برأي جديد، انعقد له «مجمع أفسس الثاني» الذي قرر «أن المسيح طبيعة واحدة، اجتمع فيها اللاهوت و الناسوت»، و لكن هذا الرأي لم يسلم، و استمرت الخلافات الحادة، فاجتمع مجمع «خلقدونية» عام 451 م، و قرر: «أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة، و أن اللاهوت طبيعة وحدها، و الناسوت طبيعة وحدها، التقتا في المسيح»، و لعنوا مجمع أفسس الثاني، و لم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع، و وقعت بين المذهب المصري «المنوفيسية» و المذهب «الملوكاني» الذي تبنته الدولة البيزنطية ما وقع من الخلافات الدامية (1).

ص: 327

و ظل الأمر كذلك حتى بعث الله تعالى خاتم النبيين و سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم بالرسالة العامة، و نزل القرآن الكريم ليبيّن للناس أن النصرارى على فرق ثلاثة في عقيدتهم في المسيح، عبد الله و رسوله إلى بني إسرائيل ففرقه تزعم أنه الله، و أخرى تؤمن بعقيدة التثليث، و ثلاثة تزعم أنه ابن الله.

1- تزعم الفرقة الأولى أنه الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، و أن الله تعالى تجسم و تجسد في صورة يسوع المسيح و نزل إلى الأرض ليخلص الناس من آثامهم، و إلى هذا الفريق يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (1)، و يقول تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ (2)، و يقول تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (3)، و يقول تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ، وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (4).

و هكذا يفرق القرآن الكريم بين ذات الله تعالى و طبيعته و مشيئته و سلطانه، و بين ذات عيسى، عليه السلام، و كذا ذات أمه، و كل ذات أخرى، في نصاعة قاطعة حاسمة، فذات الله، سبحانه و تعالى، واحدة،

ص: 328

1- سورة المائدة: آية 72.

2- سورة المائدة: آية 75.

3- سورة المائدة: آية 17.

4- سورة النساء: آية 172.

و مشيئته مطلقة، و سلطانه متفرد، و لا يملك أحد شيئاً في رد مشيئته أو دفع سلطانه، إن أراد أن يهلك المسيح و أمه و من في الأرض جميعاً، و هو سبحانه و تعالى، مالك كل شيء، و خالق كل شيء، و الخالق غير المخلوق، و كل شيء مخلوق: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، و كذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، و وضوحها و بساطتها، و تزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات و التصورات و الأساطير و الوثنيات و المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب، و تبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية في تقرير حقيقة الألوهية، و حقيقة العبودية، و الفصل التام الحاسم بين الحقيقتين، بلا غش و لا شبهة و لا غموض (1).

2- يزعم الفريق الثاني أن الله ثالث ثلاثة: و هذا الفريق هو الذي يعتقد بعقيدة التثليث، و هي عقيدة تزخر بمزاعم و أضاليل و أباطيل، فهي تزعم أن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ثالث ثلاثة (2)، و أنه ثلاثة أصول (أقانيم) متساوية: الله الأب و الله الابن، و الله الروح القدس، فالمسيح عيسى ابن مريم إله، و هو ابن إله، و في الوقت نفسه هو بشر و إله، هو لاهوت و ناسوت، هو الله و ابن الله، و أصل من الأصول الثلاثة المكونة لله، و يصدر القرآن الكريم حكمه في هذه العقيدة، فيحكم بكفر من اعتنقها و اعتقد.

ص: 329

1- في ظلال القرآن 2/ 866.

2- يحكي المتكلمون عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم، أب و ابن و روح القدس، و هذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص و الشعاع و الحرارة، و عنوا بالأب الذات، و بالابن الكلمة، و بالروح الحياة، و أثبتوا الذات و الكلمة و الحياة، و قالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمير، و اختلاط الماء باللبن، و زعموا أن الأب إله، و الابن إله، و الروح إله، و الكل واحد، و اعلم إن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً، و الواحد لا يكون ثلاثة (تفسير الفخر الرازي 60/12).

فيها (1)، يقول تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ، وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (2)، ويقول تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (3).

وقال الزجاج: لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وذلك لأن القرآن يدل على أن النصارى يقولون: إن الله و المسيح و مريم ثلاثة آلهة، و الدليل عليه قوله تعالى: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (4)، و قال الفراء: و لا تقولوا هم ثلاثة كقوله: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً، وَ ذَلِكَ لِأَن ذَكَرَ عِيسَى وَ مَرْيَمَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ يَوْمَ كَوْنِهِمَا إِلَهَيْنِ، وَ بِالْجُمْلَةِ فَلَا نَرَى مَذْهَبًا فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ رِكَازَةً وَ بَعْدًا عَنِ الْعَقْلِ مِنْ مَذْهَبِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، ثُمَّ أَكَّدَ التَّوْحِيدَ بِقَوْلِهِ: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، ثُمَّ نَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَنِ الْوَلَدِ بِقَوْلِهِ: سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ (5).

و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم إنما يقرن لفظ المسيح أو عيسى بكلمة: ابْنِ مَرْيَمَ ليقرب آذان النصارى بأنه «ابن مريم»، و ليس «ابن الله»، كما ينبه القرآن الكريم المسيحيين إلى أن

ص: 330

1- محمد بن الشريف: المرجع السابق ص 190.

2- سورة المائدة: آية 73.

3- سورة النساء: آية 171.

4- سورة المائدة: آية 116.

5- تفسير الفخر الرازي 115/11-116.

المسيح و أمه كانا يأكلان الطعام، يقول تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ (1)، و من البيّن أن الذي يأكل الطعام فيتحول في جسمه دما و لحما و عظما، و ينضح عرقا، و يخرج فضلة لو بقيت في الجسم لأضرته، من الواضح أن كائنا من هذا النمط لا يمكن إلا أن يكون بشرا خاضعا لكل قوانين البشر التي لا تؤدي إلى نقص في مرتبته كرسول (2)، و يقول الفخر الرازي اعلم أن المقصود من قوله تعالى: كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ الاستدلال على فساد قول النصارى، و بيانه من وجوه، الأول: أن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، و كل من كان كذلك كان مخلوقا، لا إلهها، و الثاني: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، و الإله هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون (المحتاج) إلهها، و الثالث أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، و هذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بآله، و الرابع: أن الإله هو القادر على الخلق و الإيجاد، فلو كان إلهها لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام و الشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه، كيف يعقل أن يكون إلهها للعالمين، و بالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل (3).

و أما قوله تعالى: قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (4)، فهذا، كما يقول الفخر الرازي، دليل آخر على فساد قول النصارى، و هو يحتمل أنواعا من الحجّة، الأول: أن اليهود كانوا يعادونه و يقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، و كان أنصاره و صحابته

ص: 331

1- سورة المائدة: آية 75.

2- عبد الحلیم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام- القاهرة 1964 ص 74.

3- تفسير الفخر الرازي 61/12.

4- سورة المائدة: آية 76.

يحبونه، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، و العاجز عن الإضرار و النفع، كيف يعقل أن يكون إلهها، و الثاني أن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه و مزقوا أضلاعهم، و لما عطش و طلب الماء منهم، صبوا الخل في منخريه، و من كان في الضعف هكذا، كيف يعقل أن يكون إلهها، و الثالث: أن إله العالم يجب أن يكون غنيا عن كل ما سواه، و يكون كل ما سواه محتاجا إليه، فلو كان عيسى كذلك لا-متنع كونه مشغولا بعبادة الله تعالى، لأن الإله لا يعبد شيئا، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، و لما عرف بالتواتر كونه كان مواظبا على الطاعات و العبادات، علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجا في تحصيل المنافع و دفع المضار إلى غيره، و من كان كذلك، كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد و دفع المضار عنهم، و إذا كان كذلك كان عبدا كسائر العبيد، و هذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، حيث قال لأبيه: لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (1).

ثم إن الإله موجود، واجب الوجود لذاته، و يجب ألا يكون جسما و لا متحيزا و لا عرضا، و عيسى عليه السلام عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وجد بعد أن كان معدوما، و قتل بعد أن كان حيا على قول النصارى، و كان طفلا أولا ثم صار مترعرا ثم صار شابا، و كان يأكل و يشرب و يحدث و ينام و يستيقظ، و قد تقرر في بدهة العقول أن المحدث لا يكون قديما، و المحتاج لا يكون غنيا، و الممكن لا يكون دائما، كما أن النصارى يقولون بأن اليهود أخذوه و صلبوه و تركوه حيا على الخشبة، و قد مزقوا ضلعه، و أنه كان يحتال في الهرب منهم، و في الاختفاء عنهم، و حين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد (2)، فإذا كان إلهها أو أن الإله كان حالا فيه، «.

ص: 332

1- تفسير الفخر الرازي 62/12.

2- جاء في إنجيل متى (27/46-50) «و صرح يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلي إيلي لما شبقنتي، أي إلهي إلهي لما ذا تركتني، فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيليا، و للوقت ركض واحد منهم و أخذ اسفنجة و ملاًها خلا، و جعلها على قصبه و سقاه، و أما الباقون فقالوا: اترك لنرى هل يأتي إيليا يخلصه، فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم و أسلم الروح».

أو كان جزءاً من الإله حال فيه فلم لم يدفعهم عن نفسه؟ ولم لم يهلكهم بالكلية؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم، والاحتياط في الفرار منهم؟

كما يظهر بطلان القول بألوهية المسيح مما ثبت بالتواتر من أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى، ولو كان إلهاً لاستحال ذلك، لأن الإله لا يعبد نفسه، ثم لو كان المسيح حقاً إلهاً، وقد قتله اليهود وصلبوه، فهذا يعني أن اليهود قتلوا إله العالم، فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير إله، ثم إن اليهود إنما هم أشد الناس ذلاً ودناءة، ومن ثم فإن الإله الذي تقتله اليهود إنما هو إله في غاية العجز (1).

هذا ويسجل القرآن الكريم أن دعوة المسيح عيسى بن مريم رسول الله، إنما كانت إلى التوحيد الكامل يقول تعالى: وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (2) وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْبِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (3).

ص: 333

1- تفسير الفخر الرازي / 78-79.

2- سورة المائدة: آية 72.

3- سورة المائدة: آية 116-117، وانظر: تفسير روح المعاني 7/ 64-70، تفسير ابن كثير 2/ 192-195، تفسير الفخر الرازي 12/

133-137، تفسير النسفي 1/ 310-311، تفسير البحر المحيط 4/ 58-59.



و يقول الألوسي (1): استشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحدا من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهًا، وأجيب عنه بأجوبة، الأول: أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهًا، ألزمهم أن يجعلوا والدته أيضا كذلك لأن الولد من جنس من يلدته فذكر «إلهين» على طريق الإلزام لهم، والثاني: أنهم لما عظموها تعظم الإله أطلق عليها اسم الإله (2)، كما أطلق اسم الرب على الأخبار و الرهبان في قوله تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، كما أنهم عظموهم تعظيم الرب، والثالث:

أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك (3).

و أيا ما كان الأمر، فإن النصوص القرآنية ستظل أبد الدهر، بما تحمل من قول المسيح، أو اعترافه، إن جاز هذا التعبير، بأنه بشر يتبرأ من دعوى الألوهية، وينفي ما لصقه به المنحرفون و المنحرفون من أتباعه و أشياعه، و بأن علمه محدود، و أجله محدود، و أنه عبد الله و رسوله، لا يبلغ إلا ما أمر الله مولاة أن يبلغه، و كذا بما تحمل من دلائل على جوهر المسيحية، الحققة، و نقائها، ستظل مسجلة على أهل التثليث غلوهم و كفرهم، و لعلمهم، إن كانوا أتباع المسيح حقا، أن يثوبوا إلى عقيدته الحققة (4)، و أن يؤمنوا بما بشر به، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم و ما أنزل عليه، فقد جاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه و سلم: «و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني، و لا يؤمن بي إلا دخل النار» (5).

و من عجب أن أناجيل النصارى إنما تشير إلى غير ما يزعمون، فهناك).

ص: 334

1- تفسير روح المعاني 65/7.

2- انظر: تفسير الفخر الرازي 134/12.

3- أنظر: ديتلف نلسن و آخرون: التاريخ العربي القديم ص 242-243.

4- محمود بن الشريف: المرجع السابق ص 192.

5- صحيح مسلم 367/1 (القاهرة 1971).

نصوص تشير إلى عبودية المسيح (1) لله تعالى و إلى رسالته (2) و إلى وحدانية الله (3)، و إلى إنسانية المسيح وأمه، و إلى أنه ابن الإنسان (تعني ابن مريم) و ليس ابن الله كما يزعمون (4).

و لعل سائلا يتساءل: من أين جاءت عقيدة التثليث هذه لديانة المسيح التوحيدية؟ و الجواب أن ذلك إنما كان من تأثير الديانات الوثنية التي كانت شائعة وقت ذلك في الشرق الأدنى القديم، و ربما المصرية بصفة خاصة، و التي شاعت فيها عقائد التثليث، حتى كان لكل مدينة ثالوثها الخاص بها، و المكون من الإله الأب، و الإله الأم، و الإله الابن، فمثلا ثالوث طيبة (الأقصر الحالية) يتكون من الإله آمون (الأب) و الإلهة موت (الأم) و الإله خونسو (الابن)، و في مدينة منف (ميت رهينة بمركز البدرشين بمحافظة الجيزة) يتكون الثالوث من الإله «بتاح» (الأب) و الإلهة سمخت (الأم) و الإله نفرتوم (الابن)، و في اليفانتين (جزيرة أسوان) يتكون الثالوث من الإله خنوم و عنقت و سات، هذا فضلا عن ثالوث أوزير المشهور، حيث يمثل أوزير الإله الأب، و تمثل إيزة الإلهة الأم، و يمثل حور الإله الابن (5).

ص: 335

1- يوحنا 17/20.

2- يوحنا 14/24.

3- متى 9/23، 22، مرقس 12/28-33، حيث يقول: «فجاء واحد من الكتبة و سمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هي أول الكل، فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، و تحب الرب إلهك من كل قلبك و من كل نفسك و من كل فكرك و من كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، و ثانية مثلها: هي تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب جيدا يا معلم، بالحق قلت لأنه الله واحد، و ليس آخر سواه، و محبته من كل القلب و من كل الفهم و من كل النفس، و من كل القدرة، و محبة القريب كالنفس هي أفضل من جميع المحرقات و الذبائح».

4- متى 1/1-17، 8/20، 13/37، 26/64، يوحنا 1/51، 3/17.

5- أنظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة- الاسكندرية 1984 ص 243-361.

و الأمر كذلك بالنسبة إلى بلاد الرافدين (العراق القديم) وسورية وفينيقيا، فضلا عن بلاد العرب، حيث نرى اللات والعزى ومناة الثالثة في الشمال، و حيث سادت في الجنوب عبادة ثالوث من الكواكب هي القمر والشمس والزهرة، ويمثل القمر في هذا الثالوث دور الأب، و تمثل الشمس دور الأم، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن، و لم يكن بنو إسرائيل بعيدين عن عقيدة التثليث هذه، فقد وجد عندهم ثالوث (يهوه و بعل و عشتارت)، و قد كان هذا الثالوث يقدس عند العبرانيين في عصر الملوك بين جميع أفراد الشعب (1)، و إن كانت عبادة «بعل» على أيام الملك الإسرائيلي «أخاب» (869-850 ق. م) معاصر النبي «إيليا»، و هو إلياس عليه السلام فيما نرجح (2)، أوضح من غيرها (3)، و قد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الصافات (4)، و لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا نجد عند بني إسرائيل تلك الظاهرة العربية، أعني أن الشمس كان ينظر إليها كإلهة أم و مؤنثة، كما في زواج «يهوه» رب يهود الشمس، و في جميع الحالات ترد الشمس كإلهة مؤنثة، بينما ترد الزهرة (عشر) مذكورة (5)، و كان العربانيون يعظمون بعلا كثيرا، حتى حمل كثير منهم اسم «بعل» كجزء من أسمائهم مثل «إيشبعل» و «مريبعل» و «يربعل» و «بعلزكار» و «بعلاة» (6)، كما تقبلوا «كيموش» كإله للقوم، و كذا «بلزيوب» إله عقرون، و ملكوم إله عمون و غيرهم (7)، و رغم

ص: 336

- 
- 1- ديتلف نالسن: المرجع السابق ص 236.
  - 2- أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل 910/2-916.
  - 3- ملوك أول 30/16-34.
  - 4- سورة الصافات: آية 122-128.
  - 5- ديتلف نالسن: المرجع السابق ص 236، محمد بيومي مهران: إسرائيل 21/4-22.
  - 6- أخبار أيام أول 33-34، 39-40، أخبار أيام ثان 7/14، 28/27، قضاة 6/32، 1/7، 9/8، 1/9، محمد بيومي مهران: إسرائيل 24/4-25، 32-33، و كذا، 1911، RTH, noyL. G D 143-136. p.
  - 7- قضاة 24/11، محمد بيومي مهران: إسرائيل 25/4.

أن البعض حاول أن يفسر ذلك على أنه نوع من النزعة الانفصالية التي كانت تتملك نفوس القوم من الناحيتين السياسية والاقتصادية والتي أدت إلى ما يمكن أن يسمى استقلالاً دينياً (1)، إلا أن ذلك لن يغير من الحقيقة شيئاً، وهو أنه شرك محض، وانطلاقاً من هذا، وكما يقول أنجل، فإن الوحدانية التي كان يدركها الإسرائيليون في ذلك الزمن إنما كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب (2).

وهكذا لم يمض القرن الأول الميلادي حتى كانت ديانة المسيح، وهي ديانة توحيدية في أصلها وجوهرها، لا تختلف كثيراً عن ديانات الشرق القديم الوثنية، بل إنها لم تعد ديانة توحيدية، وإنما عدت ديانة متعددة الآلهة، فالمسيح وأمه كانا يقدسان فيها ككائنين إلهيين، و نافست الديانات المنتشرة وقت ذلك في عقيدة التثليث (3).

3- يزعم الفريق الثالث من النصارى أن المسيح إنما هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)، ويقول تعالى: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (5)، وإذا كان النصارى يعجبون من أمر عيسى لأنه ولد بدون أب، فأمر آدم عليه السلام أعجب، لأنه خلق بدون أب وبدون أم، فالذي خلق آدم من تراب وقال له كن فيكون، هو

ص: 337

1- ول ديورانت: قصة الحضارة- الجزء الثاني من المجلد الأول- ترجمة محمد بدران- القاهرة 1961 ص 243.

2- عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء دار الهلال- ص 122.

3- ديتلف نلسن: المرجع السابق ص 242-243.

4- سورة التوبة: آية 30.

5- سورة النساء: آية 171.

الذي خلق عيسى من غير أب، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (1)، وقد أجمع المفسرون أن آية آل عمران (59) نزلت عند حضور وفد نجران على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه (أي عيسى) لا أب له من البشر، وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم: إن آدم ما كان له أب ولا أم، ولم يلزم أن يكون ابنا لله تعالى، فكذا القول في عيسى عليه السلام، وأيضا إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب، فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم، بل هذا أقرب إلى العقل، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم، أقرب من تولده من التراب اليابس (2).

وأخرج في الدلائل بسنده عن ابن عباس: أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم، منهم السيد، وهو الكبير، والعاقب، وهو الذي يكون بعده وصاحب رأيهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما، قالا أسلما قال ما أسلمتما، قالا بلى قد أسلما قبلك، قال كذبتما، يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما: عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، و زعمكما أن لله ولدا، ونزل «إن مثل عيسى» الآية، فلما قرأها عليهم قالوا: ما نعرف ما تقول، ونزل «فمن حاجك» الآية، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى قد أمرني، إن لم تقبلوا هذا، أن أباهلكم، فقالوا يا أبا

ص: 338

- 
- 1- سورة آل عمران: آية 59-61، وانظر: تفسير الفخر الرازي 74/8، تفسير النسفي 160/1-162، تفسير روح المعاني 186/3-193، تفسير الطبري 295/3-298، تفسير ابن كثير 550/1-555، في ظلال القرآن 1/404-406، تفسير المنار.
  - 2- صفوة التفاسير 1/206-207.

القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فخلا بعضهم ببعض و تصادقوا فيما بينهم، قال السيد للعاقب: قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل، ولئن لاعتموه أنه لاستئصالكم، وما لاعن قوم نبيا قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، فإن أنتم لم تتبعوه وأبيتم، إلا إلف دينكم، فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أنا دعوت فأمنوا أنتم، فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية»، وروي أن أسقف نجران لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا، ومعه علي والحسن وفاطمة، رضي الله عنهم، قال: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوها، لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا وتهلكوا»، وفي التفسير الكبير أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد احتضن الحسين، وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه، خلفها، وهو يقول:

«إذا دعوت فأمنوا، قال أسقف نجران: يا معشر النصارى: إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة» (1).

ولا ريب أن هذه القصة أوضح دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم، قال أبو حيان في البحر: وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم (2)، كما أن في دلالتها على فضل آل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أي أهل البيت، مما لا يمتري فيها مؤمن (3)، كما تدل على أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعد أن يدعو أبناءه، فدعا الحسن والحسين، فوجب أن يكونوا أبنية، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة

ص: 339

1- تفسير الفخر الرازي 8/80، تفسير روح المعاني 3/188-189.

2- تفسير البحر المحيط 2/480.

3- تفسير روح المعاني 3/189.

الأنعام: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ ... إلى قوله وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ معلوم أن عيسى عليه السلام إنما انتسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأم، لا بالأب، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ولداً، وكذا ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج في المرط الأسود، فجاء الحسن رضي الله عنه، فأدخله، ثم جاء الحسين رضي الله عنه، فأدخله، ثم فاطمة ثم علي رضي الله عنهما، ثم قال:

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً، و اعلم أن هذه الرواية كالمتمفق على صحتها بين أهل التفسير و الحديث (1).

هذا و قد استدلت الشيعة بقصة المباهلة هذه على أولوية الإمام علي كرم الله وجهه بالخلافة، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على رواية مجيء علي كرم الله تعالى وجهه، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، و وجه أن المراد حينئذ بأبنائنا الحسن و الحسين و بنسائنا فاطمة، و بأنفسنا الأُمير، و إذا صار نفس الرسول، و ظاهران المعنى الحقيقي مستحيل، تعني أن يكون المراد المساواة، و من كان مساوياً للنبي صلى الله عليه وسلم فهو أفضل و أولى بالتصرف من غيره، و لا معنى للخلافة إلا ذلك (2). و هكذا كان سائر الشيعة قديماً و حديثاً يستدلون بهذه الآية (آل عمران آية 61) على أن علياً رضي الله عنه، مثل نفس محمد صلى الله عليه وسلم، إلا فيما خصه الله بالنبوة، و كان نفس محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم، فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضاً من سائر الصحابة (3).

## [2] دعوى الصلب: -

تمثل عقيدة الصلب عند النصارى (4) موضوع الخلاف الثاني بينهم

ص: 340

- 1- تفسير الفخر الرازي 80/8.
- 2- تفسير روح المعاني 3/189.
- 3- تفسير الفخر الرازي 8/81.
- 4- أنظر القصة بالتفصيل (إنجيل متى 1/26 - 20/28، إنجيل مرقس 1/14 - 20/16، إنجيل لوقا 1/22 - 53/24، إنجيل يوحنا 18/1 - 25/21).







بل نبهمه كما أبهمه الله تعالى، و من أراد أن يقطع فعليه دليل ما قطع به، و تقويض العلم إلى الله تعالى أسلم في العاقبة، و أكثر احتياطا للدين، فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد به على نفسه، و ليس عنده عليه سلطان مبين (1).

و يقول صاحب الظلال: لقد أراد اليهود صلب عيسى عليه السلام و قتله، و أراد الله أن يتوفاه، و أن يرفعه إليه، و أن يطهره من مخالفة الذين كفروا و البقاء بينهم، و هم رجس و دنس، إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك و رافعك إلي و مطهرك من الذين كفروا، فأما كيف كانت وفاته، و كيف كان رفعه، فهي أمور غيبية تدخل في المشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، و لا طائل وراء البحث فيها، لا في عقيدة و لا في شريعة، و الذين يجرون وراءها، و يجعلونها مادة للجدل ينتهي بهم الحال إلى المرء و إلى التخليط و إلى التعقيد، دونما جزم بحقيقة، و دون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله (2).

و على أي حال، و كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير

ص: 343

---

1- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص 423.

2- في ظلال القرآن 1 / 403.

المنار، فإن للعلماء هنا طريقتين، إحداهما، وهي المشهورة، أنه رفع بجسمة حيًا، وأنه سينزل في آخر الزمان، فيحكم بين الناس بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يتوفاه الله تعالى (1)، ويقول الفخر الرازي: معنى قوله: إني مُتَوَفِّيكَ أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك، وهذا تأويل حسن، وهناك وجه آخر في تأويل الآية هو: أن الواو في قوله:

مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ تفييد الترتيب، فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي، وورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه سينزل و يقتل الدجال» ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك (2).

وأما الطريقة الثانية، فيما يرى الأستاذ الإمام، فهي أن الآية على ظاهرها، وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر منه وهو «الإماتة العادية» وأن الرفع يكون بعده، وهو رفع الروح (3)، يقول الفخر الرازي: إني «متوفيك» أي مميتك، وهو مروى عن ابن العباس ومحمد بن إسحاق، قالوا:

والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله، ثم أنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء، ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه، أحدها: قال وهب توفي ثلاث ساعات، ثم رفع، وأخرج الحاكم عنه أن الله تعالى توفي عيسى سبع ساعات ثم أحياه، وأن مريم حملت به ولها ثلاث عشرة سنة وأنه رفع وهو ابن ثلاث و ثلاثين، وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين، و ثانيها: قال محمد بن إسحاق توفي سبع ساعات (وهو قول لوهب كما رأينا) ثم أحياه الله ورفع، و ثالثها، قال الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال

ص: 344

1- تفسير المنار 3/ 260.

2- تفسير الفخر الرازي 8/ 67.

3- تفسير المنار 3/ 260.

تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا (1)، وروى عن الربيع أيضا وعن الحسن أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وهو نائم، رفقا به (2).

وهكذا وجد عندنا رأيان، الأول، وهو رأي الجمهور، ويذهب إلى أن المسيح عليه السلام رفع إلى السماء حيا، بجسده وروحه، وأنه الآن ما يزال حيا يرزق عند ربه، وفي رفعه إلى أي سماء خلاف، والذي اختاره الكثير من العارفين أنه رفع إلى السماء الرابعة، وعن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، أنه رفع إلى السماء الدنيا، فهو فيها يسبح مع الملائكة ثم يهبه الله تعالى عند ظهور الدجال على صخرة بيت المقدس (3)، ويستدل الذي ينادون بأن المسيح رفع حيا إلى السماء بآيتي سورة النساء (157-158) الآتفتي الذكر، وكذا بقوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (4)، فهي تفيد أن عيسى سينزل آخر الزمان، وإذا نزل آمن به كل من كان موجودا حينئذ من أهل الكتاب لأنه سينزل ليحكم بشريعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول الإمام القرطبي في تفسيره: إن الضمير يعود على عيسى عليه السلام، أي قبل موت عيسى، ثم يذكر رواية عن يزيد بن زريع عن الحسن البصري يقول فيها: «و الله إنه لحي الآن عند الله، ولكن إذا نزل آمن به أجمعون» (5)، وروى ابن أبي

ص: 345

1- تفسير الفخر الرازي 67/8، تفسير روح المعاني 179/3.

2- تفسير روح المعاني 179/3.

3- تفسير روح المعاني 182/3.

4- سورة النساء: آية 159، وانظر: تفسير الطبري 6/18-23، تفسير ابن كثير 1/876-878، تفسير النسفي 1/162-163، تفسير روح

المعاني 6/12-13، في ظلال القرآن 2/802-803.

5- تفسير القرطبي ص 2007-2008.

حاتم عن جويرية بن بشير، قال: سمعت رجلا قال للحسن يا أبا سعيد، قول الله تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، قال: قبل موت عيسى، إن الله رفع إليه عيسى، وهو باعته قبل يوم القيامة مقاما يؤمن به البر والفاجر، وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد (1).

ويقول الإمام الطبري في التفسير: أن أولى الأقوال بالصحة قول من قال إنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام، إلا آمن به (أي عيسى) قبل موت عيسى عليه السلام، ولا شك أن الذي قاله ابن جرير، فيما يرى ابن كثير، هو الصحيح، لأن المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله تعالى أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الظلالة ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ أَي قبل موت عيسى عليه السلام، الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب (2).

و أما الأحاديث الشريفة المتواترة (3) بذلك، فمنها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «و الذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا،».

ص: 346

1- تفسير ابن كثير 1/ 877.

2- تفسير الطبري 6/ 21، تفسير ابن كثير 1/ 878.

3- أنظر: تفسير ابن كثير 1/ 879-889 (بيروت 1986).

فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خير له من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (1).

وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلواني وعبد بن حميد (2)، كلاهما عن يعقوب به، وأخرجه البخاري و مسلم أيضا من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري به، وأخرجه من طريق الليث عن الزهري به (3)، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليهلن عيسى بن مريم بفتح الروحاء بالحج أو العمرة أو ليشبههما جميعا» (4)، وكذا رواه مسلم منفردا به من حديث سفيان بن عيينة و الليث بن سعد و يونس بن يزيد، ثلاثتهم عن الزهري به (5)، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ينزل عيسى بن مريم، فيقتل الخنزير ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة، ويعطى المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعها»، قال و تلا أبو هريرة: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ الْآيَةَ (6)، وأخرج البخاري عن ابن شهاب عن نافع مولي أبي قادة الأنصاري أن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم و إمامكم منكم» (7)، وروى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «و ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا،

ص: 347

- 1- صحيح البخاري 205 / 4.
- 2- صحيح مسلم 93 / 1، صحيح البخاري 178 / 3.
- 3- صحيح البخاري 107 / 3، صحيح مسلم 93 / 1.
- 4- مسند الإمام أحمد 513 / 2.
- 5- صحيح مسلم 60 / 4.
- 6- مسند الإمام أحمد 260 / 2.
- 7- صحيح البخاري 250 / 4، ورواه أيضا الإمام أحمد و مسلم.

فيقول لا، إن بعضهم أمير بعض تكرمه الله لهذه الأمة» (1).

هذا ويستدل القائلون بنزول عيسى قبل يوم القيامة أيضا بآية الزخرف: **وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ (2)**، وفيها قراءتان الأولى: «وإنه لعلم للساعة» بمعنى أنه يعلم بقرب مجيئها، والقراءة الثانية: «وإنه لعلم للساعة» بمعنى أمانة وعلامة، وكلاهما قريب من قريب (3)، وهذه القراءة الأخيرة (بفتح العين واللام) قرأ بها ابن عباس وقتادة الأعمش، والمعنى أمانة وعلامة على اقتراب الساعة، قال ابن عباس في قوله: «وإنه لعلم للساعة» هو خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة»، رواه الإمام أحمد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه هو والذهبي، وقد رواه ابن حبان في صحيحه، وقال مجاهد: «وإنه لعلم للساعة»، أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة، وهكذا روى عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن البصري وقتادة والضحاك وغيرهم (4).

وهكذا تستدل جمهرة العلماء من آيات القرآن ومن الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان (5)، وما قاله ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما من السلف في تفسير آتي النساء (159) والزخرف).

ص: 348

- 1- حمود بن عبد العزيز التجري: إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان - مجلة البحوث الإسلامية - العدد 13 - شوال 1405 ص 109.
- 2- سورة الزخرف: آية 61.
- 3- في ظلال القرآن 5 / 3198.
- 4- تفسير ابن كثير 4 / 201، حمود التويجري: المرجع السابق ص 105.
- 5- جاء في نزول عيسى عليه السلام أكثر من خمسين حديثا مرفوعا أكثرها من الصحاح، والباقي غالبه من الحسان، فمن زعم أنها كلها مزيفة، فلا شك أنه فاسد العقل والدين (حمود التويجري: المرجع السابق ص 105-106).

(61) من أن نزول عيسى عليه السلام حق، وقال إمام أهل السنة، أحمد بن حنبل في عقيدة أهل السنة و الجماعة التي رواها عنه «عبدوس بن مالك العطار»، «و الإيمان أن المسيح الدجال خارج مكتوب بين عينيه كافر، و الأحاديث التي جاءت فيه، و الإيمان بأن ذلك كله كائن، و أن عيسى بن مريم ينزل فيقتله باب لَدَّ، و في الحديث: «يقتل ابن مريم الدجال باب لَدَّ»، و في رواية «إلى جانب لَدَّ» (1)، و قال أبو محمد البربهاري في شرح السنة: و الإيمان بنزول عيسى بن مريم عليه السلام، ينزل فيقتل الدجال و يتزوج، و يصلي خلف القائم من آل محمد صلى الله عليه و سلم و يموت و يدفنه المسلمون»، و القائم من آل محمد صلى الله عليه و سلم هو المهدي، كما جاء في حديث جابر، الأنف الذكر، و فيه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: «و ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي تعال صل بنا، فيقول لا، إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة»، رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بإسناد جيد، و قد ذكره ابن القيم في كتاب «المنار المنيف» و قال إسناده جيد، و قال الطحاوي في العقيدة المشهورة «و نؤمن بأشراط الساعة (2) من خروج الدجال و نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء».

و قال الإمام ابن تيمية أن عيسى بن مريم عليه السلام حي رفعه الله تعالى إليه بروحه و بدنه، و قوله تعالى: إني مُتَوَفِّيكَ، أي قابضك،).

ص: 349

1- مسند الإمام أحمد 420/3، تحفة الأحوذى 513/6.

2- روى الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اشرف علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم من عرفة، و نحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، و الدخان، و الدابة، و خروج يأجوج و مأجوج، و نزول عيسى ابن مريم و الدجال، و ثلاثة خسوف: خسف بالمشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا، و تقيل معهم حيث قالوا»، و هكذا رواه مسلم و أهل السنن من حديث فوات الفزارية (مسند الإمام أحمد 7/4، صحيح مسلم 178/8، تفسير ابن كثير 887/1).



وكذلك ثبت أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية حكما عدلا مقسطا، ويراد بالتوفي الاستيفاء، ويراد به الموت ويراد به النوم، ويدل على كل واحد القرينة التي معه، وقال القاضي عياض في شرح مسلم: نزول عيسى وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، وإنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن يوافقهم، وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى: وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وبقوله صلى الله عليه و هذا سلم: «لا نبي بعدي»، وإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا صلى الله عليه وسلم، وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة لا تنسخ، وهذا استدلال فاسد لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أن ينزل نبيا ينسخ شرعنا، ولا في الأحاديث شيء من هذا، بل صحت الأحاديث أنه ينزل حكما مقسطا يحكم بشرعنا، ويحیی من أمور شرعنا ما هجره الناس، وقد نقله النواوي في شرح مسلم وأقره، وقال المناوي في شرح الجامع الصغير: أجمعوا على نزول عيسى عليه السلام نبيا، لكنه بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم، وقال «السفاريني» في شرح عقيدته: نزول المسيح عيسى بن مريم ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية (1).

وأما الرأي الثاني، ويقول به بعض علماء المسلمين، ويذهب إلى أن المسيح عليه السلام قد توفي فعلا، بعد أن نجاه الله من مؤامرة اليهود، ولم يمكنهم من قتله وصلبه، ومن ثم فإن معنى قوله تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ (2)

ص: 350

1- حمود التويجري: المرجع السابق ص 101-113.

2- سورة النساء: آية 158.

وقوله تعالى: وَرَافِعُكَ إِلَيَّ (1)، إنما يراد به: رفع التعظيم والتكريم، ويستدلون على ذلك بأن الله عز وجل قد قدم كلمة: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ عَلَى كَلِمَةٍ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، كما يستدلون بقوله تعالى: (2) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (3)، بأن المقصود بها بأنه ليس من أحد من أهل الكتاب، اليهود أو النصارى، إلا- ويؤمن بعيسى عليه السلام، إذ عاين ملك الموت، ولكنه إيمان لا ينفع، لأنه إيمان عند اليأس، وحين التلبس بحالة الموت، فاليهودي في ذلك الوقت يقر بأنه رسول الله، والنصراني يقر بأنه كان رسول الله (4).

ص: 351

1- سورة آل عمران: آية 55.

2- سورة المائدة: آية 117.

3- يذهب الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، في تفسير هذه الآية إلى أن ظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه وتعالى قد توفي عيسى بن مريم ثم رفعه إليه، وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله، وليس هناك، فيما يرى، أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حيا عنده، فالشهداء كذلك يموتون في الأرض، وهم أحياء عند الله، أما صور حياتهم عنده، فنحن لا ندري لها كيفاً، وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام، وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ما ذا كان منهم بعد وفاتي (في ظلال القرآن 2/1001)، ويقول في تفسير قوله تعالى: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (مريم آية 33) بأن المسيح إذن حياة محدودة ذات أمد، وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله له السلام والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه، وهو لا يحتمل تأويلا في هذه الحقيقة، ولا جدالا (في ظلال القرآن 4/2308)، ويقول في تفسير قوله تعالى: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ صَلِّ عَلَى رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مَطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (آل عمران: آية 55) بأنهم أرادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله، وأراد الله أن يتوفاه ويرفعه إليه، وأن يطّره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم، وهم رجس و دنس، وأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه، فهي أمور غيبية تدخل في التشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، ولا طائل وراء البحث فيها، لا في عقيدة ولا شريعة (في ظلال القرآن 1/403).

4- محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنة النبوية- الرياض (1983) ص 282-283.

و يقرر الأستاذ الإمام محمود شلتوت في الفتاوي أن معنى قوله تعالى:

يا عيسى إني متوفيك أي مميتك إماتة عادية، إذ المعنى اللغوي الوضعي والمعنى القرآني لكلمة «متوفيك» إنما هو مميتك إماتة عادية (1)، ومن قال إن عيسى حي في السماء، فذلك ادعاء وزعم منه، كما قرر أن معنى الرفع في «ورافعك إلي»، رفع مكانة، لا رفع جسد، بدليل التعقيب الذي جاء بجانب الرفع، وهو قوله تعالى: وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم، ويؤيد ذلك أن الرفع جاء في القرآن كثيرا بهذا المعنى (في بيوت أذن الله أن ترفع - نرفع درجات من نشاء - ورفعنا لك ذكرك - ورفعناه مكانا - يرفع الله الذين آمنوا... إلخ)، ومن ثم فقد حكم بأن التعبير بقوله تعالى: وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، «بل رفعه الله إليه»، كالتعبير في قولهم: «لحق فلان بالرفيق الأعلى» وفي «أن الله معنا» وفي «عند مليك مقتدر»، وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ، والدخول في الكنف المقدس، فمن يؤخذ كلمة «السماء» من كلمة «إليه»، اللهم إن هذا الظلم للتعبير القرآني الواضح، خضوعا لقصص وروايات لم يقم على الظن بها، فضلا عن اليقين، برهان ولا شبه برهان.

ثم يذهب الأستاذ شلتوت بعد ذلك إلى أنه ليس في القرآن ولا في السنة المطهرة (2)، مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، وأنه حي إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان، وأن كل ما تفيد الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى أنه متوفيه أجله ورافعه إليه، وعاصمه من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه، ولكن وفاه الله أجله ورفعته إليه، وأن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه حي إلى الآن، وأنه سينزل آخر

ص: 352

1- روى عن الجبائي: أن عيسى مات ثم رفع إلى السماء بعد ذلك (روح المعاني 69/7).

2- أنظر: ما سبق أن ذكرناه من الأحاديث النبوة الشريفة.

الزمان، فإنه لا يكون بذلك منكر لما ثبت بدليل قطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه.

ثم أورد بعد ذلك رأي الأستاذ الإمام محمد عبده، وتلميذه الأستاذ محمد رشيد رضا (في الجزء العاشر من المجلد 28 من مجلة المنار) و الذي قال فيه: و جملة القول أنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه و جسده إلى السماء حيا، حياة دنيوية بهما، بحيث يحتاج بحسب سنن الله تعالى إلى غذاء، و ليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هي عقيدة أكثر النصارى، و قد حاولوا في كل زمان، منذ ظهور الإسلام، بثها في المسلمين (1).

هذا و يذهب الأستاذ الإمام المراغي إلى أنه ليس في القرآن نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام، رفع بجسمة و روحه، و على أنه حيّ بجسمة و روحه، و قوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سُبِّحْ لِي وَ رَافِعْكَ إِلَيَّ وَ مَطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، الظاهر منه أنه توفاه و أماته ثم رفعه، و الظاهر من الرفع بعد الوفاة أنه رفعه درجات عند الله، كما قال في إدريس عليه السلام: «و رفعناه مكانا عاليا»، و هذا الظاهر ذهب إليه بعض علماء المسلمين، فهو عند هؤلاء العلماء توفاه الله وفاة عادية، ثم رفع الله درجاته عنده، فهو حيّ حياة روحية، كحياة الشهداء، و حياة غيره من الأنبياء، لكن جمهور العلماء على أنه رفع بجسمة و روحه، فهو حيّ الآن بجسده و روحه، و فسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوغ تفسير القرآن بها، لكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة، و العقيدة لا تجب إلا

ص: 353

---

1- محمود شلتوت: الفتاوي ص 52-57، محمود بن الشريف: المرجع السابق ص 207-209.

بنص من القرآن أو بحديث متواتر، وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حيّ بروحه وجسده، والذي يخالف في ذلك لا يعد كافراً في نظر الشريعة الإسلامية (1)، والأئمة المجتهدون الذي اتجهوا هذا الاتجاه كلهم قد استقوا من معين واحد، و استمدوا رأيهم من رأي الإمام الرازي الذي قال: و اعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله:

وَرَفَعُكَ إِلَيَّ هُوَ الرِّفْعَةُ بِالدرِجَةِ وَ الْمُنْقَبَةُ، لَا بِالْمَكَانِ وَ الْجِهَةِ، كَمَا أَنَّ الْفَوْقِيَّةَ فِي هَذِهِ لَيْسَتْ بِالْمَكَانِ، بَلْ بِالدرِجَةِ وَ الرِّفْعَةَ (2).

و أما النصارى، فقد جعلوا خاتمة المسيح عليه السلام، كما يقول الأستاذ رشيد رضا، خاتمة شنيعة، و مأساة مروعة، و جعلوا الاعتقاد بحصولها على الوجه الذي صوروه أصلاً من أصول دينهم، و دعامة من دعائم عقيدتهم، لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها، و هي الاعتقاد بصلب المسيح، و قد تلمسوا لتلك العقيدة أصلاً في العهد القديم، و أسسوا عليه صلب المسيح، فقالوا: إن آدم، و هو أول كل البشر، قد عصي الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، فصار خاطئاً، و صار جميع ذريته خطاه مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي، و قد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين، فهم يحملون وزر ذنوبهم، و وزر ذنب أبيهم، و لما كان الله من صفاته العدل و الرحمة، فمن عدله ألا يترك الجريمة دون عقاب، و إلا لم يكن عادلاً، و لهذا شاء الله أن يحمل ابنه، الذي هو بنفسه (الله) في رحم امرأة من ذرية آدم، و يتجسد حيناً في رحمها و يولد منها، فيكون ولدها «إنساناً» كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة، و «إلهاً» كاملاً، من حيث أنه ابن الله، و يكون معصوماً من جميع المعاصي، ثم بعد أن يعيش كما يعيش

ص: 354

---

1- نفس المرجع السابق ص 209-210.

2- تفسير الفخر الرازي 8/69.

الناس، و يأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتلذذ ويتألم، كما يتلذذون ويتألمون يأتي أعداء الله، وأعداء شريعته، ويقتلونه شر قتلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويضفروا له إكليلا من الشوك ويصقوا في وجهه، كل ذلك ليفدي البشر من جريمة لم يقتربها هو، ولا هم (1).

ص: 355

---

1- تفسير المنار 25/6، وانظر التفصيلات عن قصة الصلب هذه: إنجيل متى 1/26-20/28، مرقس 1/14-20/16، لوقا 1/22-53/24، يوحنا 1/18-25/21.



الكتاب الرابع داود و سليمان عليه السلام الباب الأول سيرة داود عليه السلام الفصل الأول: بنو إسرائيل فيما بين عهدي موسى و داود عليهما السلام 11

1- دخول بني إسرائيل كنعان 11

2- عصر القضاة 15

3- قيام ملكية طالوت 19

4- حروب طالوت و ظهور داود 26

الفصل الثاني: داود الرسول النبي 33

1- معجزات داود عليه السلام 34

قصة الخصمين 40

الفصل الثالث: داود ملك إسرائيل 53

1- داود فيما قبل الملكية 53

2- اختيار داود ملكا على يهوذا 56

3- داود و توحيد إسرائيل 58

ص: 357



4- داود و الفلسطينيين 59

5- داود و موآب و عمون و آرام و أدوم 62

6- دولة داود و مدى اتساعها 64

7- وارثة العرش و الخلافات العائلية 68

8- ثورة أبشالوم 70

9- التعداد العام و نتائجه 74

10- وفاة داود عليه السلام 77

الفصل الرابع: داود بين آي الذكر الحكيم و روايات التوراة 81

الباب الثاني سيرة سليمان عليه السلام الفصل الأول: سليمان الرسول النبي 91

1- وراثة سليمان داود عليهما السلام 91

2- من أحكام سليمان عليه السلام 94

3- من معجزات سليمان عليه السلام 97

الفصل الثاني: بناء المسجد الأقصى 115

الفصل الثالث: سليمان و ملكة سبأ 129

الفصل الرابع: سليمان ملك بني إسرائيل 159

1- السياسة الداخلية 159

2- السياسة الخارجية 162

3- التنظيمات العسكرية 164

4- النشاط التجاري 166

5- النشاط البحري 170

6- النشاط الصناعي 179

7- مملكة سليمان و مدى اتساعها 180

8- القدس عاصمة سليمان 197

9- مباني سليمان 201

الكتاب الخامس الأنبياء: من أيوب إلى يحيى عليهم السلام الفصل الأول: أيوب عليه السلام 209

1- قصة أيوب عليه السلام 209

2- سفر أيوب عليه السلام 223

الفصل الثاني: إلياس و اليسع عليهما السلام 231

1- إلياس عليه السلام 231

2- اليسع عليه السلام 239

الفصل الثالث: زكريا و يحيى عليهما السلام 243

1- زكريا عليه السلام 243

2- يحيى عليه السلام 259

3- استشهاد يحيى عليه السلام 266

الكتاب السادس المسيح عيسى بن مريم رسول الله الفصل الأول: مريم أم المسيح عليهما السلام 275

الفصل الثاني: مولد المسيح عليه السلام 285

ص: 359

الفصل الثالث: نبوة المسيح و معجزاته 307

1- نبوة المسيح 307

2- معجزات المسيح 311

الفصل الرابع: دعوى تأليه المسيح و صلبه 325

1- دعوى التأليه 325

2- دعوى الصلب 340

ص: 360

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم  
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ  
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟  
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟  
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
اصبهان  
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

